إيزابيل ألليندي







ترجمة: رفعت عطفة



إيزابيل ألليندي

بلدي المُخْتَرَع

ترجمة: رفعت عطفة



بلدي المُخْتَرَع

• إيزابيل ألليندي
• بلدي المُخْتَرَع
• ترجمة رفعت عطفة

• الطبعة الأولى 2004
• موافقة وزارة الإعلام رقم 76348
• الناشـــــــــر : ورد للطباعـة والنشـر والتوزيـع
سوريــة ـ دمشق ☎ 3321053
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249



العنوان الأصلي للكتاب:

Mi País Inventado

... لسببٍ أو لآخر، أنا منفيٌّ حزين.

بطريقة أو بأخرى أسافر مع أرضنا،

وما زالت تعيش معي ماهيات وطني الطولية.

بابلو نيرودا 1972

كلمات للبدء

وُلِدْتُ وسط دخان وموت الحرب العالمية الثانية، وانقضى معظمُ شبابي بانتظار أن يتطاير الكوكبُ شظايا حين يضغطُ أحدٌ ما على زرٍّ وتنطلق القنابل الذرّية. لا أحد كان ينتظر أن يعيشَ طويلاً جدّاً، كنّا نمضي مستعجلين نجترعُ كلَّ لحظة قبل أن يفاجئنا الهول، حيث لم يكن هناك وقتٌ ليفحص المرء سرّته ذاتها، ويُسجّل ملاحظاته، كما يحدث اليوم. ثمّ إنّني ترعرعت في سانتياغو تشيلي، حيث تُبتر كلّ نزعة إلى تأمل الذات وهي ما تزال برعماً. المثلُ الذي يُعرّف الحياة في هذه المدينة هو: «الأربيان(*) الذي ينام يحمله التيار». وفي ثقافات أخرى أكثر تعقيداً مثل ثقافة بوينس أيرس أو نيويورك كانت زيارةُ الطبيب النفسي عملاً عادياً، والامتناع عن ذلك يُعتبر دليلاً على الجهل أو البلاهة العقلية. ومع ذلك في تشيلي وحدهم المجانين الخطرون كانوا يفعلون ذلك وهم في سترة المجانين فقط؛ لكنّ هذا تبدّل في السبعينات، تماماً مع وصول الثورة الجنسية. ربّما كان هناك رابط. ما من أحد من أسرتي لجأ قط إلى العلاج، رغم أنّ عدداً منّا شكّل حالاتٍ مثالية للدراسة، لأنّ فكرةِ ائتمانِ مجهولٍ على مسائل حميمة، ويُدفع له فوق ذلك كي يُصغي، غير معقولة، فالقساوسة والعمات وُجدوا لهذا الغرض. لم أتدرب كثيراً على التأمل، لكنّني فوجئت بنفسي في الأسابيع الأخيرة

(*) نوع من القريدس صغير الحجم ويُعرف أيضاً باسم برغوث البحر.

أُفكّر بماضيٍّ بتواترٍ لا يمكن أن يُفسّر إلا كعلامة من علامات الشيخوخة المبكرة.

حدثان جديدان أفلتا العنان لهذه الجائحة من الذكريات. الأولى ملاحظة عرضية من حفيدي ألِخاندرو الذي باغتني وأنا أتحرّى خريطة تجاعيدي أمام المرآة، وقال لي مشفقاً: «لا تهتمّي، يا عجوزي، ستعيشين ثلاث سنوات على الأقل». عندئذٍ قرّرتُ أنّ الساعةَ حانت كي أُلقي نظرةً أخرى على حياتي، وأتحقّق كيف أُريدُ أن أُمضي هذه السنوات الثلاث، التي مُنِحَتْ لي بكلِّ سخاء. الحدث الثاني كان سؤالاً من مجهولٍ في ندوةٍ لكُتّابِ الرحلات حالفني الحظُّ بافتتاحها. عليّ الاعتراف بأنّني لا أنتمي إلى هذه المجموعة الغريبة من الأشخاص، الذين يُسافرون إلى أماكنَ نائية ليعيشوا على طريقة البكتيريات، وينشروا بعدها كتباً ليُقنعوا الغافلين بأن يحذوا حذوَهم. السفر جهد متفاوت، خاصّة إلى أماكن ليس فيها خدمة غرف. إجازتي المثالية هي في كرسيّ تحت مظلة في فناء داري، أقرأ كتبَ رحلات مغامرات لن أقوم بها أبداً، ما لم يكن هرباً من شيء ما. فأنا قادمة من عالم يُسمّى بالعالم الثالث (أيُّها إذاً العالم الثاني؟). واضطررتُ لأن أتمسك بزوجٍ كي أعيش بشكلٍ شرعي في العالم الأوّل، وليس عندي نيّة بالعودة إلى التخلّف دون سببٍ مقنع. ومع ذلك تجوّلتُ رغماً عنّي في القارات الخمس؛ ثم صادف أنّني منفية طوعية ومهاجرة. أعرف قليلاً عن الرحلات، ولذلك طلبوا منّي أن أتكلّم في تلك الندوة. عند الانتهاء من كلمتي القصيرة، ارتفعت يدٌ من بين الجمهور، وسألني شابٌّ ما الدورُ الذي يلعبه الحنين في رواياتي. بقيتُ صامتةً لحظةً. حنين... حسب القاموس «هو ألم أن يرى المرء نفسه غائباً عن وطنه، هو الحزن الذي تُثيره سعادة مفقودة». قطع السؤالُ الهواءَ عنّي، لأنّني حتى تلك اللحظة لم أنتبه إلى أنّني أكتب كتمرين متواصل عن الاشتياق. طوال حياتي كنتُ غريبةً تقريباً وهو الوضع الذي أقبلُهُ، لأنّه لا خيار آخر أمامي. وجدتُ نفسي مرّاتٍ عديدة مجبرةً على المغادرة، مُحطِّمةً الأغلال،

مخلّفةً كلَّ شيء ورائي، كي أبدأَ من جديد في مكان آخر؛ فلقد جبتُ مُتغرِّبةً طرقاً أكثرَ مما أستطيع تذكّره. ومن كثرةِ ماودّعتُ جفَّت جذوري واضطُرِرتُ أن أستنبتَ أخرى، استوطنتْ الذاكرةَ لعدم وجود مكان جغرافيّ تستوطنه. لكن حذار! فالذاكرة متاهة تترصّد فيها مينوتورات(*).

لو أنّهم سألوني قبل قليل من أين أنا، لكنتُ أجبتُ، دون كثير تفكير، لستُ من أيّ مكان، أو أنّني أمريكيةٌ لاتينية، أو ربّما تشيليةُ القلب. ومع ذلك فاليوم أقول إنّني أمريكية، ليس فقط لأنّ هذا ما يشهد به جوازُ سفري، أو لأنّ هذه الكلمة تشملُ أمريكا من الشمال إلى الجنوب، أو لأنّ زوجي وابني وأحفادي ومعظم أصدقائي، وكتبي ومنزلي في شمال كاليفورنيا، بل لأنّ عمليةً إرهابيةً دمّرت منذ وقت ليس بالطويل برجَي وول ستريت سنتر (مركز التجارة العالمي)، ومنذ تلك اللحظة تغيّرت بعض الأشياء. لا يمكن للمرء أن يبقى على الحياد في الأزمة. لقد واجهتني هذه المأساة مع شعوري بالهويّة، واليوم أنتبه إلى أنّني واحدة أخرى من سكان أمريكا الشمالية المتعددة الألوان، تماماً كما كنتُ من قبل تشيلية. ما عدتُ أشعرُ بالاستلاب في الولايات المتحدة. حين رأيتُ انهيار البرجين أحسستُ أنّني عشتُ هذا الكابوس بطريقة مماثلة. بمصادفة يقشعرّ لها البدن - كارما تاريخية - اصطدمت الطائرتان المخطوفتان بهدفيهما يوم الاثنين الحادي عشر من أيلول، تماماً في الأسبوع ذاته والشهر ذاته - وساعة الصباح ذاتها تقريباً - التي حدث فيها انقلاب تشيلي العسكري عام 1973. كان ذاك عملاً إرهابياً دبّرته المخابرات المركزية الأمريكية ضدّ الديمقراطية. صورة الأبنية وهي تشتعل، الدخان، اللهب والذعر متشابهة في كلا المشهدين. في ذلك الثلاثاء البعيد من العام 1973 انفطرت حياتي، ما من شيء عاد

(*) كائن خرافي له جسم إنسان ورأس ثور، كان يسكن ما يُسمّى بالمتاهة حبسه الملك مينوس فيها.

ليكون ما كان من قبل، فأنا خسرتُ بلداً. الثلاثاء المشؤوم من العام 2001 كان أيضاً لحظة حاسمة، ما من شيء سيعود ليكون كما كان، وربحت بلداً.

هذان السؤالان، سؤالُ حفيدي وسؤالُ المجهولِ في الندوة، تسبَّبا بهذا الكتاب، الذي لا أدري حتى الآن إلى أين يسير، فأنا الآن أتيهُ كما تتيهُ الذكرياتُ دائماً، لكنّني أرجوكَ أيها القارئ أن ترافقني أكثر قليلاً.

أكتب هذه الصفحات في عُلّية على تلٍّ مرتفعٍ، تحرسها مئة سنديانة ملتوية ترنو إلى خليج سان فرانسيسكو، لكنّني قادمة من مكان آخر. الحنين عيبي. الحنين شعورٌ حزين ومتكلّف قليلاً مثل الرقّة؛ يكادُ يكون من المحال تقريباً التطرّق للموضوع دون الوقوع في العاطفية، لكنّني سأحاول. إذا ما انزلقتُ ووقعتُ في الحذلقة كنْ على ثقةٍ بأنّني سأنهضُ على قدميّ بعد عدّة أسطر. في عمري ـ أنا قديمة قِدَم البنسلين الصناعي ـ تبدأ الواحدة بتذكّر الأشياء التي محاها نصفُ قرن. لم أفكِّر في طفولتي، ولا في مراهقتي خلال عقود ـ وفي الحقيقة قليلاً ما كانت تهمّني تلك المراحل من الماضي السحيق ـ وحين كنتُ أرى ألبومات صور أمّي لم أكن أعرف أحداً فيها باستثناء كلبة البولدوغ، باسمها غير المحتمل: بِلبينا لوبِّثْ ـ بون، والسبب الوحيد الذي بقِيَتْ لأجله محفورةً في ذاكرتي هو أنّنا كنّا نشبه بعضنا بطريقة ملحوظة. توجدُ صورة لنا أنا وهي، حين كان عمري أشهراً قليلة؛ اضطرّت أمي فيها أن تُشيرَ بسهم إلى من يكون كلّ منّا. لا شكّ أنّ ذاكرتي السيئة تعود إلى أنّ تلك الأيّام لم تكنْ سعيدةً على وجه الخصوص، لكنّني أعتقد أنّ هذا ما يحدث لكلِّ البشر الفانين. الطفولة السعيدة أسطورة، ولكي ندرك ذلك يكفي أن نُلقي نظرةً على قصص الأطفال، التي يأكلُ فيها الذئبُ الجدَّةَ، ثمّ يأتي حطّاب فيشقّ الحيوانَ المسكينَ بسكين من أعلاه إلى أسفله، ويُخرِج

العجوزَ حيّةً وكاملة ويحشو بطنَه بالحجارة، ثمّ يخيط جلدَ الذئب على الفور بالإبرة والخيط مثيراً عطشه، فيخرج راكِضاً ليشرب الماء من النهر، حيث يغرق من ثقل الحجارة. وأُفكِّر: لماذا لم يقضِ عليه بطريقة أكثرَ بساطةً وإنسانية؟ بالتأكيد لأنّه ما من شيء في الطفولة بسيط أو إنساني. لم يكن مصطلح «تمادي الطفل» موجوداً في ذلك الوقت؛ وكان يُظَنُّ أنَّ أفضل طريقة لتربيةِ الصغار هي بالحزام في يد والصليب في يدٍ أخرى، تماماً كما كان يُعتبر حقّ الرجل بضرب المرأة، إذا وصل الحساء بارداً إلى المائدة، أمراً بديهيّاً. قبل أن يتدخّل علماءُ النفس والسلطات في المسألة ما من أحد كان يشكّ بالتأثيرات النافعة للصفعة الجيّدة. لم يضربوني كما كانوا يضربون أخوتي، لكنّني كنتُ أعيش خائفةً مثل بقية الأطفال من حولي.

بالنسبة إليّ كان شقاء طفولتي الطبيعي يتفاقم نتيجة كومةٍ من العقد المتشابكة، التي ما عاد باستطاعتي حتى أن أُعدِّدها. لكن من حسن حظّي أنّها لم تُخلّف جراحاً لم يشفها الزمن. سمعتُ ذات مرّة كاتبةً أمريكية مشهورة من أصلٍ أفريقي تقول إنّها شعرت منذ طفولتها بنفسها غريبةً في أسرتها وبلدتها، وأضافت أنّ هذا ما يمرّ به كلّ الكتّاب تقريباً، حتى ولو لم يخرجوا من مسقط رأسهم. وأكّدتْ أنّهُ شرطٌ لصيقُ بهذا العمل؛ فلولا قلق الشعورِ بالاختلاف ما كان هناك حاجة للكتابة. فالكتابة أوّلاً وأخيراً محاولة لفهم الظروف الخاصّة وتوضيح فوضى الوجود، هذا القلق الذي لا يُعذّب الناس العاديين، بل يعذّب الرافضين المزمنين فقط، الذين ينتهي الكثيرون منهم ليصبحوا كتّاباً بعد أن فشلوا في مهن أخرى. أزاحت هذه النظرية ثقلاً عن كاهلي: إذن لستُ مسخاً، هناك آخرون مثلي.

لم أنسجم مع أيّ مكان. لا مع الأسرة، ولا مع الطبقة الاجتماعية، ولا مع الدين الذي كان من نصيبي. لم أنتسب للعصابة الصغيرة التي كانت تمضي في الشارع على الدراجات، فأبناءُ عمومتي لم يُدرجوني في ألعابهم. كنتُ أقلّ الصغيرات شعبيةً في

المدرسة؛ وبعدها أقلّهن رقصاً في الحفلات، لخجلي أكثر مما لقبحي، كما أُفضّل أن أعتقد. كنتُ أنطوي على كبريائي، متظاهرةً أنّ الأمرَ لا يهمّني، لكنّني كنت أستطيعُ أن أبيع نفسيَ للشيطان مقابل أن يقبلوني في المجموعة، لو أنّ إبليساً تقدّم إليّ بمثل هذا الطلب الجذّاب. جذر مشكلتي كان دائماً هو ذاته: عدمُ قدرتي على قبول ما يعتبره الآخرون طبيعيّاً، وميلي الذي لا يُقاوَم لإعطاء آراء لا أحد يرغب بسماعها، وهو ما أرعبَ أكثرَ من خاطِبِ ودٍّ. (لا أرغب بالتباهي فهم لم يكونوا كثراً قط). بعدها وفي سنوات العمل في الصحافة كان للفضولُ والجرأة بعضَ الفضائل. فقد أصبحتُ لأوّلِ مرّة جزءاً من جماعة، كان مسموحاً لي أنّ أطرح أسئلة طائشة وأن أنشر أفكاري، لكنّ هذا انتهى بقسوة إثرَ انقلاب 1973 العسكري، الذي أفلت العنان لسلسلة من القوى الجامحة. وبين ليلة وضحاها تحوّلتُ إلى غريبة في بلدي ذاته، حتى اضطُرِرتُ أخيراً للخروج، لأنّني لم أعد أستطيعِ أن أعيش وأربّي ولديَّ في بلدٍ يسودُه الخوف، ولا مكان فيه لمنشقّين من أمثالي. كان الفضولُ والجرأة ممنوعين بقرار في ذلك الوقت. انتظرتُ خارجَ تشيلي لسنواتِ استعادةَ الديمقراطية كي أعود، وحين تمّ ذلك لم أفعل؛ لأنّني كنتُ متزوّجة من أمريكي شماليّ وأعيش بالقرب من سان فرانسيسكو. لم أعد بعدها لأقيم في تشيلي، التي قضيتُ فيها بالحقيقة أقلّ من نصف عمري، وإن كنتُ أزورها كثيراً؛ لكن للإجابة على سؤال ذلك المجهول عن الحنين، عليّ أن أشير حصراً على نحو تقريبي إلى سنواتي هناك. ولكيّ أفعل هذا عليّ أن أذكر أسرتي، لأنّ الوطن والقبيلة يختلطان في ذهني.

بلد ماهياته طولية

لنبدأ من البداية، من تشيلي، هذا البلد القصيّ الذي يندرُ من يستطيع أن يحدّده على الخريطة، لأنّه أبعد بلد يمكن أن يذهب إليه المرء دون أن يسقط من الكوكب. «لماذا لا نبيع تشيلي ونشتري شيئاً أقرب إلى باريس...؟» سأل أحدُ كُتّابنا. ما من أحد يمرّ هناك مصادفة، مهما كان تائهاً، وإن قرّر كثير من الزوّار البقاء فيه للأبد عاشقين للناس والأرض. إنّه نهاية كلّ الطرق، رمح في جنوبِ جنوب أمريكا، أربعة آلاف وثلاثمئة كيلومتر من الهضاب والوديان والبحيرات والبحر. هكذا يصفه نيرودا في شعره الملتهب:

ليلٌ وثلجٌ ورملٌ تعطي
وطني النحيل شكله،
كلُّ الصمت في خطّه الطويل،
كلّ الزبد يخرج من لحيته البحرية،
كلّ الفحم يملؤه بالقُبل الغامضة.

هذا البلد الرشيقُ كجزيرة، مفصول عن بقية القارّة من الشمال بصحراء أتاكاما، أكثر صحارى العالم جفافاً حسب ما يحبّ أن يقولَ سكانها، وإن كان هذا ليس صحيحاً، لأنّ قسماً من هذا الحطام القمريّ يرتدي عادة دثاراً من الزهر، مثل لوحة عجيبة «لمونيه»، فمن الشرق سلسلة جبال الأند، الخليط الرهيب من

الصخور والثلوج الأبديّة؛ ومن الغرب شواطئ المحيط الهادي الوعرة؛ ومن الأسفل أنتارتيدا الموحشة. بلدُ الطبوغرافية المأساوية والطقس المتنوّع، المرقش بعوائق نزوية والمهزوز بزفراتِ مئات البراكين، الموجود كمعجزة جيولوجية بين مرتفعات الجبال وأعماق البحار، والمُتَّحِد من رأسه إلى ذيله بمشاعر سكانه الوطنية القويّة.

ما زلنا نحن التشيليين مرتبطين بالأرض كما كنّا كفلاّحين من قبل. معظمنا يحلم بامتلاك قطعة أرض، حتى ولو كان لزراعة أربع خسّات منخورة. «إلْ مِركوريو» الصحيفة اليومية الأهمّ، تنشر ملحقاً زراعياً أسبوعياً يُحيط السكان علماً بآخر حشرة تافهة ظهرت في البطاطا، أو بإنتاج الحليب الذي يتمّ الحصول عليه بنوع معيّن من العلف. والقرّاء الذين يعيشون على الأسفلت وبين الإسمنت يقرؤونه بشغف، حتى ولو لم يروا بقرةً حيّةً في حياتهم قط.

وبخطوطٍ عريضة يمكن القول إنّه يوجدُ أربعة أقاليم متباينة جدّاً على طول هذا البلد، بلدي، تشيلي الممشوقة. البلدُ مقسّم إلى مقاطعات جميلة الأسماء، أضاف إليها العسكرُ، الذين ربّما وجدوا بعض الصعوبة في حفظها، أرقاماً. أرفضُ استخدامها، لأنّه ليس من الممكن لبلد الشعراء أن تكون خريطته مرقطة بالأرقام مثل هذيانِ حسابي. لنتكلّم عن الأقاليم الأربعة الكبيرة، مبتدئين بالشمال الكبير، الموحش والوعر، الذي تحرسه الجبالُ الشاهقةُ، ويشغلُ ربعَ مساحة البلد ويخبّئ في أحشائه ثروة لا تنضب من المعادن.

ذهبتُ في طفولتي إلى الشمال ولم أنسه، رغم أنّه مرّ خمسون عاماً على ذلك. بعدها كان من نصيبي أن أجتازَ صحراءَ أتاكاما مرّتين، ومع أنّ التجربة دائماً رائعة إلا أنّ ذكريات تلك المرّة الأولى أكثر حضوراً. أنتوفاغاستا، التي تعني باللغة الكِتشوية «بلد السبخة الكبرى»، ليست في ذاكرتي مدينة اليوم الحديثة، بل ميناء مهجوراً ومدقع الفقر، تفوحُ منه رائحة اليود، مرقش بزوارق الصيد

والنوارس والبجع. انبثقت أنتوفاغاستا في القرن التاسع عشر مثل سراب في الصحراء بفضل صناعة الملح، الذي بقي لعدّة عقود أحد منتجات التصدير الرئيسية في البلد. ولم يفقد الميناءُ أهميته بعد ذلك، حين اختُرِعَت النترات الصناعية، فهو يُصدِّر الآن النحاسَ، لكنّ شركات الملح راحت تُغلَق الواحدة بعد الأخرى وبقيت السهوب مزروعة بقرى الأشباح. راحت هاتان الكلمتان «قرية الشبح» تُحلّق في خيالي في تلك الرحلة الأولى.

أتذكّر أنّنا صعدنا أنا وأسرتي محمَّلين بالأحمال إلى قطارٍ كان يسير بخطو سلحفاة في صحراء أتاكاما القاسية باتجاه بوليفيا. شمس وحجارة متكلّسة، كيلومترات وكيلومترات من الوحشة الشبحية، ومن حين لآخر تظهر مقبرةٌ مهجورة، أبنيةٌ خربة من طوب أو خشبٍ. كانت الحرارة جافّة، حتى الذباب لا يستطيع أن يعيش فيها؛ العطش لا ينتهي، ونشرب غالونات من الماء، نمتصّ برتقالاً ونحمي بشقِّ النفس أنفسَنا من الغبار الذي كان ينفذ من كلّ شقّ؛ فشفاهنا تتشقّق حتى تدمى، وتؤلمنا آذاننا، لقد أصبنا بالتجفاف. في الليل كان يحلُّ بردٌ قاسٍ كالزجاج، والقمرُ يضيء المشهدَ بسطوع أزرق. زرتُ بعد سنوات طويلة تشوكيكاماتا، أكبر منجم نحاسٍ فُتح في العالم قطعاً، وهو مسرح روماني شاسع حيث ينتزع آلافُ الرجال المُغبّرين، كالنمل، المعدنَ من الحجارة. صعد القطار أكثر من أربعة آلاف متر وهبطت الحرارة إلى درجة أنّ الماء كان يتجمد في الكأس. مررنا بمملحة أويوني، وهي بحر أبيض يسودُه صمت خالص ولا تطير فوقه الطيور، وممالح أخرى رأينا فيها طيور النحام. كانت تبدو مثل ضربات ريشة رسام بين الكريستال المتشكل في الملح، كأنّه حجارة كريمة.

ما يُسمّى بالـ «شمال الصغير»، الذي لا يعتبره بعضهم منطقةً بمعنى الكلمة، يفصل الشمال الجافّ عن المنطقة الوسطى الخصيبة. هنا يقع وادي إلْكي، أحد المراكز الروحية على الأرض، الذي يشدّ إليه الزوّار الذين يذهبون ليتواصلوا مع طاقة الكون الكونية، ويبقى

الكثيرون ليعيشوا في تجمعات باطنية. إلْكي فيها من كلّ شيء: تأمّل، ديانات شرقية، وغورو(*) من مختلف الأصناف، كأنّها ركن من كاليفورنيا. هناك يصنعون أيضاً البيسكو، مشروبنا المصنوع من عنب الخُميّ، الشفاف، الفضيل والرزين كقوّة ملائكية تنبثق من تلك الأرض. إنّها المادة الأوّلية للـ «بيسكو سور»، مشروبنا الوطنيّ الحلو والغدّار، الذي يُشرب بثقة، لكنّه يَرفس من الكأس الثاني رفسة قادرة على أن تقلب أشجع الشجعان. وقد اغتصبنا اسم هذا النبيذ دون تروٍّ من مدينة بيسكو البيروية. إذا كان كلّ نبيذٍ بفقاعاتٍ يسمّى عادة شامبانيا، والحقيقيُّ هو فقط من شامبان في فرنسا، أعتقدُ أنّ باستطاعة نبيذنا بيسكو أن يستولي على اسم غريب. في الشمال الصغير شيّدت لا سِيّا(**)، أحد أهم المراصد الفلكيّة في العالم، لأنّ الجوَّ من الصفاء، حيث أنّه ما من نجم ـ ميت أو قيد الولادة ـ يمكنه أن يفلت من عين التلسكوب العملاق. بالمناسبة، حكى لي شخصٌ عمل هناك ثلاثة عقود، أنّ أشهر علماء الفلك في العالم ينتظرون لسنوات دورَهم هناك كي يسبروا الكون. علّقتُ أنّه لا بدّ أنّ العمل مع العلماء، الذين يُبقون على عيونهم في المطلق ويعيشون منفصلين عن البؤس الأرضي شيء رائع؛ لكنّه أعلمني أنّ العكس تماماً هو الصحيح: فالفلكيون مساكين كالشعراء. يقول إنّهم يتشاجرون على مربّى الفطور. الشرط البشري مُدهِش.

«الوادي الأوسط» هو أكثر مناطق البلد ازدهاراً، أرض الأعناب والتفاح، حيث تتجمّع الصناعاتُ وثلث السكّان الذين يعيشون في العاصمة. أسّس بِّدرو بالديبيا سانتياغو في ذلك المكان عام 1541، لأنّه بدا له، بعد أن سار أشهراً في جفاف الشمال، أنّه وصل إلى جنّة عدن. في تشيلي كلُّ شيء متمركز في العاصمة، رغم جهود مختلف الحكومات التي حاولت خلال نصف قرنٍ أن تمنح سلطات

(*) مرشِد ديني هندوسي.
(**) La Silla الكرسي.

للمقاطعات. يبدو أنَّ الشيء الذي لا يتمّ في سانتياغو ليس له أيّة أهمية، رغم أنَّ الحياةَ في بقيّة البلد ألطفُ واهدأُ ألفَ مرّة.

تبدأ «المنطقة الجنوبية» من بُورْتو مونتْ، على بعد أربعين درجة عرض جنوباً، وهي منطقة ساحرة بغاباتها وبحيراتها وأنهارها وبراكينها. أمطار وأمطار تغذّي نباتات الغابات الباردة المتشابكة، حيث تنمو أشجارنا الطبيعية، التي عمرها ألف عام والمُهدَّدة اليومِ بالصناعات الخشبية. يجوب المسافر في رحلته نحو الجنوب سهوباً تسوطها رياح قاسية؛ ينفرطُ عقد البلدُ بعدها إلى سبحة من الجزر المهجورة والضباب الحليبيّ، ومتاهةٍ من الخلجان الجرفية والجزر الصغيرة والأقنية، وماء في كلِّ مكان. آخر مدينة قارّية هي «بونتا أرِناس»، التي تنهشها كلّ الرياح، الخشنة، الشامخة، قبالةَ الفلواتِ وجبال الثلج الشاهقة.

تملكُ تشيلي قطعة من قارّة أنتارتيكا(*) المجهولة، عالم الجليد والوحشة، والبياض المطلق، حيث تولَد الخرافات ويموت الرجال؛ على القطب الجنوبي نصبنا رايتنا. زمن طويل مرّ لم يولِ فيه أحدٌ قيمة لأنتارتيدا، لكنّنا نعلم اليوم كم من الثروات المعدنية تُخبّئ، إضافة إلى أنّها جنّة الحيوانات البحرية، وهكذا لم يبقَ بلد إلاّ ووضع عينه عليها. تسمح عابرة قارّاتٍ بزيارتها صيفاً براحة نسبية، لكنّها تكلّف غالياً، واليوم لا يقوم بالسفر إليها إلا السياح الأثرياء وعلماء بيئة فقراء، لكنّهم أصحاب عزيمة.

ضممنا إلينا في العام 1888 جزيرة بَاسكوَا الغامضة «سرّة العالم»، أو رابّانوي، كما تُدعى في لغة أهل بَاسكوَا. وهي ضائعة في المحيط الهادئ الشاسع، على بعد ألفين وخمسمئة ميل عن تشيلي القارّية، أي على بعد ست ساعات بالطائرة تقريباً من

(*) القارّة المتجمّدة الجنوبية.

بالباريسو أو تاهيتي. لستُ واثقة من سبب انتمائها إلينا. كان يكفي في تلك الأيّام أن يقومَ قبطانُ سفينةٍ بغرز علم كي يستولي شرعياً على قطعة من الكوكب، حتى ولو لم يوافق سكانها، وهم في هذه الحالة وديعون من سلالة بولينيزية. هكذا كانت تفعل الأمم الأوروبية؛ وتشيلي لم يكن باستطاعتها أن تبقى في الخلف. كان الاحتكاك بأمريكا الجنوبية بالنسبة لسكّان باسكوَا مشؤوماً. ففي أواسط القرن التاسع عشر اقتيدَ معظم السكان الذكور إلى البيرو ليعملوا كعبيدٍ في أكوام ذرق الطيور، بينما تشيلي تهزّ أكتافها أمام مصير أولئك المواطنين المنسيين. بلغَ سوء المعاملة التي تلقاها هؤلاء الناس البؤساء حدّاً دفع إلى قيام احتجاجٍ دوليّ في أوروبا؛ ثمّ وبعد صراعٍ دبلوماسيّ طويل أعيد الخمسة عشر الباقون أحياء إلى أسرهم. عادوا مصابين بالجدري، وقضى المرضُ في زمنٍ قصير على ثمانين بالمئة من الباسكويين الذين بقوا في الجزيرة. لم يكن مصير البقيّة أفضل. رعت الماشية النباتات وحوّلت الأرضَ إلى أنقاضٍ حمّية مقشورة، وأغرق إهمال السلطات - هي في هذه الحالة البحرية التشيلية - السكّان في الفاقة. في العقدين الأخيرين أنقذت السياحة واهتمامُ العالم العلمي منطقة «رابّانوي».

هناك تماثيل هائلة لا تُحصى من الحجارة البركانية مبعثرة في الجزيرة، بعضها يزن أكثر من عشرين طنّاً. وقد حيّرت هذه «الموايات» الخبراءَ قروناً عديدة؛ فنحتُها على سفوح البراكين ثمّ جرّها عبر أرضٍ غير مستوية، ونصبها فوق منصات هي في الغالب عصيّة المنال، ووضع قبّعة من الحجر الأحمر عليها، كانت مهمّة عمالقة. كيف فعلوا ذلك؟ لا توجد آثار لحضارة متطوّرة تُفسّر مثل هذه المأثرة. قطن الجزيرة عرقان مختلفان، واحد منهما، حسب الأسطورة، هو الأريكيس، وكان أبناؤه يملكون قدرات عقلية فائقة، يرفعون بوساطتها «الموايات» في الهواء وينقلونها طافين دون جهد جسدي إلى مذابحها المرتفعة. من المؤسف أنّ هذه التقنية ضاعت. ففي العام 1940 اخترع عالم الإناسة النرويجي «ثور

هِيْرداهل» طوافةٌ تُدعى «كون تيكي»، أبحر بها من أمريكا الجنوبية إلى جزيرة باسكوَا كي يُبرهن عن أنّه قام احتكاك بين الإنكيين والباسكويين.

ذهبتُ إلى جزيرة بَاسكوَا في العام 1974، حين لم يكن هناك إلاّ رحلة أسبوعية واحدة، والسياحة لا يكاد يكون لها وجود. ونظراً لأنّني عشقتُ المكانَ، مكثتُ فيه ثلاثة أسابيع أكثر مما خطّطتُ له، وهكذا صادف وجودي تدشين التلفزيون وزيارة الجنرال بِنوتشيت، الذي كان يرأس الطغمة العسكرية التي حلّت قبل أشهر محلّ الديمقراطية، واستُقْبِل التلفزيون بحرارة أكبر من استقبال الديكتاتور. كان وجود الجنرال من أكثر الأمور غرابة، لكن ليست هذه هي المناسبة للدخول في التفاصيل. يكفي أن نقول إنّ سحابة جسورة توضّعت استراتيجياً فوق رأسه مبلِّلة إيّاه مثل خرقة في كلِّ مرّة أراد فيها أن يتحدّث للجمهور. كان ينوي تسليم سنداتِ تمليك للبّاسكويين، لكنّ أحداً لم يهتمّ باستلامها، ذلك أنّه منذ أزمنة قديمة كان كلّ واحدٍ يعرف ما الذي يملكه كلّ واحد، وخافوا، وهم مُحقّون بذلك، ألاّ تفيدهم تلك الورقة الحكومية إلا في تعقيد حياتهم.

كما أنّ تشيلي تملك جزيرة خوان فِرنانْدِثْ، التي هُجِر فيها في العام 1704 البحار الاسكتلندي أليكساندر سِلكيرك، الذي ألهم دانييل ديفو رواية «روبنسون كروزو». عاش أليكساندر سِلكيرك أكثر من أربع سنواتٍ في الجزيرة، دون ببغاء مروّض ودون رفقة ابنِ البلد الأصلي المدعو بييرنِس، كما في الرواية، إلى أن أنقذه قبطان وحمله عائداً به إلى إنكلترا، حيث، لنقل ذلك، لم يكن مصيره أفضل. يستطيع السائح العازِم، بعد الطيران المرتج في طائرة صغيرة، أو بعد عبور لا نهاية له في زورق، أن يزورَ الكهفَ الذي عاش فيه الاسكتلندي على الأعشاب والسمك.

منحنا البعدُ، نحن التشيليين، عقليةً جزيرية، كما جعلنا جمالُ

الأرض العجيب متغطرِسين. نعتقد أنّنا مركزُ العالم ـ نعتبر أنّه كان على غرينتش أن تكون في سانتياغو ـ وندير ظهرنا إلى أمريكا الجنوبية، ونقارن أنفسنا دائماً بأوروبا. نتحدث عن أنفسنا، وبقيّة العالم موجود فقط كي يستهلك نبيذَنا ويُنتج فرق كرة قدم كي نهزمها.

أنصح الزائر بألاّ يشكّك بما يسمع عن عجائبِ البلد ونبيذِهِ ونسائه، لأنّه من غير المسموح به للأجنبيّ أن ينتقد، ولهذا يوجد أكثر من خمسة عشر مليوناً من السكّان الأصليين يقومون بذلك طوال الوقت. لو أنّ ماركو بولو نزل على سواحلنا بعد ثلاثين سنة من المغامرات في آسيا لكان أوّل ما قالوه له إنّ فطائرنا المحشوة ألذُّ من كلّ مطبخ الإمبراطورية السماوية (آه، هذه ميّزة أخرى من ميّزاتنا: نعطي رأياً دون أساس، لكن بنبرة هي من الصواب بحيث لا يشكّ أحد به). أعترف بأنّني أنا أيضاً أُعاني من هذه الشوفينية المقشعرة للبدن. كان تعليقي الوحيد في المرّة الأولى التي زرتُ فيها سان فرانسيسكو، بينما تمتدّ أمام عينيّ الهضابُ الذهبية الناعمة، وجلال الغابات ومرآة الخليج الخضراء، أنّها تُشبِه الساحل التشيلي. طبعاً تأكّدت بعد ذلك أنّ أحلى فواكه وأنعم نبيذ وأخفّ أسماك هي المستوردة من تشيلي.

كي يرى المرء بلدي بقلبه عليه أن يقرأ بابلو نيرودا، الشاعر القومي الذي خلَّد بأشعاره المناظر الشامخة والنكهاتِ والأسحار، والمطر العنيد والفقر الكريم، والرواقية وحسن الضيافة. هذا هو بلد حنيني الذي أستحضره في حالات وحشتي، ويظهرُ كخلفية في الكثير من قصصي، ويتجلّى لي في أحلامي. طبعاً هناك وجوهٌ أخرى لتشيلي: وجه مادّي متعجرف، وجه نمر، يعيش على إحصاءِ خطوط جسده وتسريح شاربيه، ووجه آخر مقموع، تقطّعه ندبُ ماضٍ وحشية، وآخر يُقدّمها مبتسمة للسياح ورجال المصارف، وذاك الذي ينتظر مذعناً الكارثة الجيولوجية أو السياسية التالية. فتشيلي فيها شيء من كلّ شيء.

حلوى بالحليب، وأرغنات صغيرة وغجر

أسرتي من سانتياغو، لكنّ هذا لا يفسّر كلّ رضوضي، فهناك أماكن أسوأ تحت الشمس. هناك ترعرعتُ، لكنّني لا أكاد أعرفها اليوم، وأضيع في شوارعها. أنشأ المدينة جنودٌ بحدّ السيف والرصاص، حسب المخطط الكلاسيكي لمدن الماضي الإسبانية: ساحة سلاح في المركز، تنطلق منها شوارع متوازية ومتعامِدة وهو ما لا يكاد يبقى منه غير الذكرى. تبعثرت سانتياغو مثل أخطبوط مجنون، ناشرةً مجسّاتها المتلهفة في كلّ الاتجاهات؛ وهي تضمّ اليوم خمسة ملايين نسمة ونصف، يعيشون بأفضل ما يستطيعون. لا بدّ أنّها مدينة جميلة، لأنّها نظيفة ولا تنقصها الحدائق، لولا أنّه تعلوها قبّعة شهباء من التلوث، تقتل في الشتاء أطفالاً في مهودهم، وشيوخاً في مآويهم وعصافير في الجوّ. اعتاد السانتياغيون أن يُتابعوا مؤشّر «الضّبْخَن»(*) اليومي، تماماً كما يتابعون حسابَ بورصة السندات ونتائج كرة القدم. في الأيّام التي يرتفع فيها المؤشّر أكثر من اللازم تُحَدَّدُ حركةُ السيارات حسب رقم الإجازة، والأطفال لا يمارسون الرياضة في المدرسة، ويحاول بقية السكان أن يتنفّسوا أقل ما يستطيعون. تغسل المطرةُ السنوية الأولى وسخَ الجوّ الذي يسقط مثل الحامض فوق المدينة؛ وإذا ما كنتَ تسير دون

(*) Smog كلمة إنكليزية مشتقة من smoke وfog أي مزيج من ضباب ودخان، والكلمة العربية منحوتة من هاتين الكلمتين.

مظلّة ستشعر كما لو أنّهم صبّوا عصيرَ ليمون على عينيك؛ لكن لا تهتمّ، فحتى الآن لم يُعمَ أحدٌ لهذا السبب بعد. ليست كلّ الأيّام كذلك، فأحياناً تُشرق منقشعةً ويمكن تأمّل المشهد الرائع للجبال المغطاة بالثلج.

هناك مدن مثل كاراكاس أو الدائرة الاتحادية في المكسيك، يختلط فيها الأغنياء والفقراء، بينما الحدودُ في سانتياغو واضحة. المسافة فلكيةٌ بين بيوت الأغنياء في السفوح الجبلية، مع وجود حرّاس على الأبواب وغرفة مرآب، وبين بيوت السكان العاملين البائسة، حيث يعيش خمسة عشر شخصاً متكدِّسين في غرفتين من دون حمّام. وكلّما ذهبتُ إلى سانتياغو يلفتُ انتباهي أنّ قسماً من المدينة بالأبيض والأسوَد وقسم آخر بكلّ الألوان. في المركز وفي تجمعات سكن العمّال كلُّ شيء يبدو رمادياً. وفي مناطق الطبقة الوسطى الأشجار وارفة والبيوت متواضعة، لكنّها مخدومة جيّداً. في أحياء الأغنياء وحدها النباتات قيّمة، فالبيوت تختفي خلف الجدران، التي لا يمكن اختراقها، لا أحد يسير في الشوارع والكلابُ من نوع الدرواس ولا تُفلَت إلاّ ليلاً لحماية الممتلكات.

طويل وجاف وحار صيفُ العاصمة؛ غبار ضارب للصفرة يلفّ المدينة في هذه الأشهر؛ والشمس تذيب الإسفلتَ وتؤثّر على مزاج السانتياغيين، لذلك من يستطيع يُحاول أن يهرب. في طفولتي كانت أسرتي تخرج إلى الشاطئ مدّة شهرين، رحلة سفاري حقيقية في سيّارة جدّي، المحملة بطنٌّ من الأمتعة فوق الشبك وثلاثة صبية دائخين تماماً في داخلها. كانت الطرقُ في تلك الأيّام في غاية السوء وعلينا أن نمضي مثل أفعى صاعدين هضاباً وهابطين أخرى بجهد جبّار بالنسبة للسيّارة. كنّا نضطرّ دائماً لتبديل إطارٍ أو إطارين، وهو عمل كان يتطلّب تنزيل كلّ الأحمال. كان جدّي يحمل في حضنه مسدساً ضخماً، من تلك التي كانت تُستخدَم في المبارزة، لأنّه كان

يظنّ أنّ بعض قطّاع الطرق اعتاد أن يكمن في نزلة كوراكابي، المسماة بشكل مناسب نزلة لاسِبُولتورا(*). وإذا وُجدوا فلا أظنّ أنّهم إلاّ بعض الصعاليك الذين سيهربون من أوّل طلقة في الهواء، لكننا وقطعاً للشكّ كنّا نقطع النزلة مُصلّين، الطريقة التي لا تُخطئ ضدّ الهجمات، ذلك لأنّنا لم نَرَ قطّاعَ الطرق المشؤومين قطّ. لا شيء من هذا اليوم. والناسُ يصلون إلى المنتجعات في أقلّ من ساعتين عبر طرق رائعة. كانت الطرق، السيّئة حتى وقت قصير، هي الوحيدة المؤدية إلى الأماكن التي يصطاف فيها الأغنياء، الذين كانوا يصارعون كي يحجزوا شواطئها الحصرية. كان يُرعبهم أن يروا الرعاعَ يصلون بالحافلات في نهاية الأسابيع مع أولادهم السمر، بصنادلهم وفراريجهم المشوية ومذياعاتهم التي تنقل الموسيقى الشعبية؛ لذلك كانوا يُبْقون على الطريق الترابية في أسوأ حالٍ ممكن. تماماً كما قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ: «حين تصبح الديمقراطيةُ ديمقراطيّةً، لا تجدي». لقد تبدّل هذا. فالبلد مربوط بشرايين طويلة، وطريق باناميريكا، تتصل بطريق أوسترال وبشبكة واسعة من الطرق المرصوفة والآمنة جدّاً. لا وجود لرجال عصابات يبحثون عمّن يختطفونه، أو قطعان تجار مخدرات يدافعون عن مناطقهم أو شرطة فاسدة تبحث عن رشوة، كما في بلدان أمريكية جنوبية أخرى، أهمّ من بلدنا بقليل. من المحتمل أن يهاجموك في مركز المدينة أكثر مما في طريق مقفر في الريف.

ما إن يخرج المرء من سانتياغو، حتى يصبح المنظرُ ريفيّاً: مراتع خيل محاطة بالحور، روابي وكروم عنب. أنصحُ الزائر بالتوقّف لشراء الفواكه والخضراوات من المحلات المنتشرة على

(*) القبر.

امتداد الطريق، أو أن ينعطف قليلاً ويدخل في القرى الفقيرة بحثاً عن بيتٍ تُرفرف فوقه خرقةٌ بيضاء، هناك يُقدّمون خبزاً معجوناً يدوياً وعسلاً وبيضاً ذهبيّ اللون.

على طريق الساحل توجد شواطئ للسباحة وقرى ساحرة وخلجان مليئة بالشباك والزوارق، حيث توجد كنوز مطبخنا الخرافية: أوّلها ثعبان الماء، ملك البحر،، بصدرته ذات الحراشف المزخرفة، يليه الكوربين، ذو اللحم الأبيض اللذيذ، يرافقه مئة نوعٍ آخر من أسماك أكثر تواضعاً، لكنّها لذيذة مثله، تليها على الفور بحرياتنا: السرطان العنكبوتي، المحار والبلح البحري والأستريدية، والأبالونات والقريدس الكبير وقنفذ البحر وغيرها كثير، بما فيها أخرى ذات أشكال مريبة، ما من أجنبيّ يجرؤ على تذوّقها، مثل القنفذ والبيكوروكو، الذي يبدو يوداً وملحاً، أي خلاصة بحريّة محضة. وأسماكنا من الجودة بحيث أنّ تحضيرها لا يتطلّب معرفة مطبخية. افرش طبقة من البصل المفروم في قصعة فخّارية أو من الزجاج الحراري، ضع فوقها السمك البرّاق مغطساً بالليمون مع عدّة ملاعق زبدة، ورشّة ملح وفلفل أسود. ضعها في الفرن الساخن حتى ينضج اللحم، لكن من دون إفراط، كيلا يجفّ؛ ثم قدّمه مع أحد أنواع نبيذنا الأبيض المبرّد جيّداً برفقة أفضل أصدقائك.

كنّا ننطلق في كلّ عام مع الجدّ لنشتري الدجاج الحبشي لعيد الميلاد، الذي كان الفلاحون يربونه لهذه المناسبة. أستطيع أن أرى ذلك العجوز يجرجر ساقه العرجاء، راكضاً في مرتع خيول محاولاً أن يصطاد الطائر المذكور. كان عليه أن يُقدّر القفزة كي يقع فوقه، يسحقه على الأرض ويمسك به، بينما يحاول واحد منّا أن يربط ساقيه برباط. بعدها يجب أن يُعطى الفلاحُ بقشيشاً كي يذبح الديك الحبشي بعيداً عن عيون الأطفال، الذين لولا هذه الطريقة لرفضوا أن يتذوقوا طعاماً، إذ يبدو من الصعب ليّ عنق مخلوق قامت معه علاقة شخصية، كما استطعنا أن نتأكّد في تلك المرّة التي حمل فيها جدّي

عنزة كي يُسمّنها في صحن الدار ويشويها في عيد ميلاده. فقد ماتت العنزة من الشيخوخة. ثم تبينّ أنّها لم تكن أنثى، بل ذكراً ولم يكد يظهر قرناه حتى راح يهاجمنا غدراً.

سانتياغو طفولتي كانت لديها تطلّعات مدينة كبيرة، لكن بروح ضيعة. كلّ شيء كان يُعرف. هل من أحدٍ غاب عن قدّاس الأحد؟ كان الخبر يدور بسرعة فيقرع الخوري باب الخطّاء كي يتأكّد من أسبابه، والرجال يسيرون متخشّبين من مثبت الشعر والنشا والخيلاء، والنساء يضعن الدبابيس على قبعاتهنّ ويرتدين قفازات جلد الماعز؛ فالأناقة مطلبٌ ضروريٌّ للذهاب إلى مركز المدينة أو إلى السينما، التي كانت ما تزال تُدعى «بيوغرافو ـ كاتب سيرة». قليلة هي البيوت التي احتوت على برّادات ـ ومن هذه الناحية كان بيت جدّي حديثاً جدّاً ـ ففي كلّ يوم يمرّ أحدبٌ يوزّعُ قوالبَ الثلج والملح الخشن للثلاجات. برّادنا، الذي دام أربعين سنة دون أن يُصلّح أبداً، كان له محرّكُ غوّاصة مُدوٍّ يهزّ البيتَ من حين لآخر، مثل نوبة سعال؛ والطبّاخة تُخرج بالمكنسة جثثَ القطط المكهربة، التي تدخل تحته بحثاً عن الدفء. في الأصل كانت هذه طريقة وقائية، لأنّ القططَ كانت تتوالد بالعشرات على السطوح، ولولا صعقة تيار البرّاد لغزتنا تماماً.

وكان في بيتنا، كما في كلّ بيت تشيلي، حيوانات؛ والكلاب يتمّ الحصول عليها بطرق مختلفة: تُورَّث، تُهدى، وموجودة هناك مظلومة، لكنّها حيّة أو تتبع الطفلَ عند خروجه من المدرسة فلا تعود توجد إمكانية لإخراجها. هكذا كان الأمر دائماً وآمل ألاّ يتبدّل. لا أعرف تشيلياً واحداً اشترى كلباً؛ الوحيدون الذين كانوا يفعلون ذلك هم المتعصبون لِـ «كِنِل كلوب»، لكن ما من أحد يأخذها مأخذ الجدّ؛ فغالبيّة كلابنا الوطنية كانت تُسمّى أسود حتى ولو كان لونها آخر، والقطط تُدعى باسم النوع ميثيفو أو كوتشو، ومع ذلك فإنّ

ماسكوتات بيتنا كانت تلقى تقليدياً أسماء توراتية: بارّاباس، سالومِه، قابيل، باستثناء كلب مشكوك بنسبه، سُمّي حصبة، لأنّه ظهر خلال وباء هذا المرض. في مدن وقرى بلدي تجري كلاب لا أصحاب لها، لا تشكل قطعاناً جائعة وحزينة، كتلك التي تشاهَد في أماكن كثيرة من العالم، بل جماعات منظّمة. إنّها حيوانات وديعة، راضية عن وضعها الاجتماعي وناعسة قليلاً. قرأتُ ذات مرّة دراسة تؤكّد أنّه لو أنَّ كلّ سلالات الكلاب الموجودة اختلطت بحرّية لأصبحت بعد أجيالٍ قليلة نوعاً واحداً: حيوان قويّ ومكّار، متوسّط الحجم، قصير وقاسي الشعر، مدبّب المخطم وعنيد الذيل، أي الجرو التشيلي النموذجيّ. أفترض أنّنا سنصل إلى هذه الحالة. كذلك حين تنصهر جميع الأعراق البشرية في عرق واحد، سيصبح الناسُ أقربَ إلى القصر، بلون غير محدّد، يمكن تبنيه، مقاومين ومذعنين لصروف الحياة، مثلنا نحن التشيليين.

كنّا في تلك الأزمنة نذهب مرّتين إلى فرن الزاوية بحثاً عن الخبز، ونحضره إلى البيت ملفوفاً في قطعة قماش أبيض. رائحة ذلك الخبز الخارج من الفرن للتو، وهو ما يزال دافئاً، واحدة من أكثر ذكريات طفولتي حضوراً. كان الحليب كريماً مزبداً يُباع من دون تعليب. كان الجرس المعلق إلى عنق الجواد ورائحة الإسطبل التي تغزو الشارع تعلن عن وصول عربة الحليب؛ والمستخدمات يقفن في الصف بأوعيتهنّ ويشترينه بالطاسة، وكان بائع الحليب يقيسه بإدخال ذراعه المشعرة حتى إبطه في الأوعية الكبيرة، المغطاة دائماً بالذباب. أحياناً كانوا يشترون عدّة لترات أكثر، لصنع المنخار الأبيض(*) ـ أو حلوى الحليب ـ التي تدوم عدّة أشهر بتخزينها في عتمة القبو البارد، حيث يُخزّن النبيذُ، المعبّأ في البيت أيضاً. يبدؤون بإشعال نار من الحطب والفحم في صحن الدار. يُعلّق

(*) Manjar blanco لون من الطعام قوامه لحم الدجاج والسكّر والحليب ودقيق الرز.

فوقها إلى حامل ثلاثي قدرٌ من الحديد المسودّ من كثرة الاستعمال، ثم توضع فيه المكوّنات بمعدّل أربع طاسات من الحليب وطاسة من السكّر ويُنَكّهُ بعودين من القرفة وقشر ليمونة، يُغلى بصبرٍ لساعات ويُحرَّك من حين لآخر بمغرفة خشبية طويلة. كنّا ننظر نحن الأطفال من بعيد منتظرين أن تنتهي العملية وتبرد الحلوى كي نكشط القدر. لم يكونوا يسمحون لنا بالاقتراب، ويكرّرون علينا في كلّ مرّة قصّة ذلك الطفل النهم للحلوى الذي سقط في القدر و«ذاب، كما كانوا يُوَضِّحون لنا، في الحلوى المغلية ولم يستطيعوا أن يعثروا حتى على عظامه». وحين اخترعوا الحليب المبستر في القناني، كانت سيّدات البيت يتزيّن بملابس الأحد ليتصورن، كما في أفلام هوليوود إلى جانب الشاحنة الصغيرة المدهونة بالأبيض التي حلّت محلّ العربة البائسة. اليوم لا يوجد حليب كامل الدسم وخالٍ منه ومُتَعدِّد المذاقات وحسب، بل ومنخار أبيض أيضاً، يُشترى معلّباً؛ فما عاد أحد يصنعه في البيت.

في الصيف كان يمرُّ أطفالٌ متواضعون، يحملون سلالَ توتٍ وأكياس سفرجل لصناعة الحلوى؛ أيضاً كان يظهر «خِرباسيو لونغيماي» المفتول العضلات، الذي يشّد نوابضَ الأسرَّة ويغسل صوفَ الفرش، المَهمّة التي كان من الممكن أن تدوم ثلاثة أو أربعة أيّامٍ، لأنّ الصوف كان يُجفف بالشمس وبعدها يجب ندفه باليد قبل تنجيده من جديد. كان يُهمَس عن خِرباسيو لونغيماي أنه سُجِن لأنّه قطع رأس خصم له، هذه الإشاعة التي أضفت عليه هالةً وقار أكيدة، فتُقدِّمُ له المستخدمات عصير اللوز لسدِّ عطشه ومناشف لتجفيف عرقه.

عازف أرغن، هو نفسه دائماً، بقي يطوف في الشوارع إلى أن اشترى أحدُ أخوالي الأرغن وخرج يعزف الموسيقى ويوزِّع أوراق الحظ السعيد بوساطة ببغاء مشعٍ أمام رعب الجدِّ وبقية الأسرة.

أفهم أنّ خالي كان يريد أن يغري ابنة عمّ[*] له، لكنّ الخطّة لم تُعطِ أُكلها المنتظر: فالفتاة تزوّجت على الفور وذهبت إلى أبعد مكان استطاعت الهرب إليه. أخيراً أهدى خالي الآلة الموسيقية وبقي الببغاء في البيت. كان سيِّئ المزاج ويمكن أن يقتلع بنقرة واحدة إصبع أيّ شخصٍ يقترب منه عند أوّل غفلة، لكنّ جدّي كان يستظرفه، لأنه يصبّ اللعنات مثل قرصان. عاش ذلك الطائر القبيح عشرين سنة معه، ومن يدري كم عاش قبلها؛ كان رائشاً، طاعناً في السنّ. أيضاً كانت الغجريات يمررن في الحي ينصبن على الغافلين بقشتاليتهنّ المعقّدة وعيونهنّ التي لا تُقاوَم والتي رأت عوالمَ كثيرة، وكنَّ يمضين مثنى أو ثلاثاً ومعهنّ نصف دزينة أولاد مسلولين متعلقين بتنوراتهنّ. كنّا نرتعب منهنّ، لأنّهم كانوا يقولون إنّهنّ يسرقنَ الأطفالَ الصغار ويحبسنهم في أقفاصٍ كي ينموا مُشَوَّهين، يبعنهم فيما بعد كمسوخ للسيركات. كنّ يُصبن بالعين من يرفض إعطاءهنَّ صدقة؛ وتُعزى لهنّ قدراتٌ سحرية، فهنّ يستطِعنَ أن يجعلن المجوهرات تختفي دون أن يلمسنها، ويطلقن العنانَ لوباءِ القمل والثآليل والصلع والأسنان المتعفنة. ورغم كلّ ذلك لم نكن نُقاوِم إغواء أن يقرأن حظّنا في راحة الكفّ. بالنسبة إليّ دائماً كنّ يقلن لي الشيءَ ذاته: رجل أسمر له شارب سيأخذني بعيداً. وبما أنّني لا أتذكّر أيَّ عاشق بمثل هذه الصفات أفترض أنّهنّ كنّ يعنين زوج أمي، الذي كان له شارب فقمة وحملني بعدها إلى بلاد كثيرة، في ترحاله كدبلوماسي.

(*) يصعب كثيراً معرفة ما إذا كان المقصود عمّاً أو خالاً، ابنة عمّ أو ابنة خال، نظراً لعدم الإشارة إلى الكنى، ولكنّنا فضّلنا بشكل عام أن نُترجم العم بالخال، وذلك نظراً لعدم وجود علاقة مع أسرة أبِ الروائية، كما تقول هي نفسها في متن هذا الكتاب.

بيت قديم مسحور

أوّل ذكرى لي عن تشيلي هي بيت لم أعرفه. كان بطل روايتي الأولى، بيت الأرواح، حيث يظهر كبيت يؤوي ذريّة آل ترويبا. هذه الأسرة الوهمية تُشبِهُ إلى حدٍّ مُقلِقٍ أسرةَ أمّي، فلا يمكن أن أكون قد استطعت أن أخترع شخصياتٍ مثل تلك. مع أنّه لم يكن ضرورياً في عائلة مثل عائلتي. إنّ فكرة «بيت الزاوية الكبير»، الذي يظهر في الكتاب انبثقت من منزلِ شارع كوِتو القديم، الذي وُلِدَت فيه أمّي، واستذكره جدّي كثيراً، حتى ليبدو لي أنّني عشتُ فيه. لم تعد هناك بيوتٌ من هذا النوع في سانتياغو، فقد التهمها التقدّم والنموّ السكاني، لكنّها ما زالت موجودة في المقاطعات. أستطيع أن أراه: فسيحاً، فاتراً، متداعياً من الاستخدام والتمادي، عالي السقوف، ضيّق النوافذ وله ثلاثة فناءات، الأوّل فناء البرتقال والياسمين، حيث كانت تصدح نافورة، والثاني فيه بستان تغطيه الأعشاب الضارة، والثالث فوضى من أحواض غسيل وبيوت كلاب وأخمام دجاج، وغرف مستخدماتٍ غير صحيّة، مثل زنزانات في سجن تحت الأرض. وللذهاب إلى الحمّام ليلاً كان على المرء أن يمضي في نزهة مصطحباً قنديلاً، ومتحدياً تيارات الهواء والعناكب، ويصمّ أذنيه عن صرير الخشب وجري الجرذان. كان البيت الذي يُدخَلُ إليه من شارعين، مكوناً من طابقٍ واحد وعلّيةٍ، ويضمّ قبيلةً من آباء الأجداد والعمّات العوانس، وأبناء الأعمام والخدم والأقرباء الفقراء والضيوف، الذين يقيمون للأبد دون أن يجرؤ أحدٌ على طردهم لأنّ

«الغرباء» محميّون بعُرْفِ الضيافة المقدّس، إضافةً إلى هذا الشبح وذاك المشكوك بحقيقته، ممن لم تكن تخلو منهم أسرتي. هناك من أكّد لي أن الأرواح كانت تتعذّب بين تلك الجدران، لكن أحد أقربائي الشيوخ اعترف لي بأنّه كان في طفولته يَتَقَنَّع بلباس عسكريّ قديم ليخيف الخالة كوبِّرتينا. لم يخطر ببال العانس المسكينة قط أنّه يمكن للزائر الليلي أن يكون روح خوسّهْ ميغِل كارّرا، أحد آباء الوطن الذي كان يأتي ليطلب نقوداً ليُصلّي من أجل خلاص روحه المحنّكة.

كان أخوالي آل بارّوس اثني عشر أخاً، غريبي الأطوار كفاية، لكن ما من أحد منهم كان مجنوناً إلى حدّ أن يُقيَّد، وعندما تزوّج بعضهم بقي مع زوجته وأبنائه في بيتِ شارع كوِتو. وهذا ما فعلته جدّتي إيزابيل، التي تزوّجت من جدّي أغوستين. لم يعِش الزوجان في خمّ الأقرباء غريبي الأطوار وحسب، بل اشتريا البيتَ بعد موت أبي جدّي، وفيه ربّيا أولادهما الأربعة عدّة سنوات. حدّث جدّي البيت، لكنّ الزوجة عانت من الربو بسبب رطوبة الغرف، ثمّ إنّ الجوار امتلأ بالفقراء وبدأ «الناس الميسورون» يُهاجرون جماعاتٍ باتجاه شرق المدينة. أذعن للضغط الاجتماعي وبنى بيتاً حديثاً في حي بروبيدِنثيا، الذي كان يقع آنذاك خارج الأسوار، ويُفترض أنّه سيزدهر. كان للرجل عين صائبة، لأنّ حيّ بروبيدِنثيا تحوّل بعد سنواتٍ قليلة إلى أرقى منطقة سكنية في العاصمة، وإنْ لم يعد كذلك منذ زمن طويل، حين بدأت الطبقة الوسطى تتسلّقُ سفوحَ الهضاب، وذهب الأغنياء الحقيقيون إلى أعلى الجبل، حيث تُعشّش نسور الكوندور. بروبيدِنثيا الآن فوضى مرور وتجارة ومكاتب ومطاعم؛ لا يعيش فيه إلا أكثر الناس شيخوخةً في أبنية صغيرة الشقق، لكنّها كانت آنذاك على تخوم الريف، حيثُ شاليهات اصطياف الأغنياء والهواء النقيّ، والحياة الريفية. سأتكلّم عن هذا البيت قليلاً فيما بعد، ولكن لنعد مؤقّتاً إلى أسرتي.

تشيلي بلدٌ حديث من خمسة عشر مليون نسمة، لكنه بعقلية قبليّة كريهة. لم يتبدّل هذا كثيراً رغم الانفجار السكّاني، خاصّة في المقاطعات، حيث ما تزال كلّ أسرة منغلقة في دائرتها، كبيرة كانت أو صغيرة. نحن منقسمون إلى عشائر، تشترك في مصلحة أو عقيدة. يتشابه أعضاؤها، يرتدون ملابس متشابهة، يُفكِّرون ويتصرّفون كعِرق، وبالطبع يحمي بعضُهم بعضاً، مستبعِدين الآخرين. مثلاً عشيرة المزارعين (أقصد ملاّكَ الأرض وليس الفلاحين المتواضعين)، الأطباء، السياسيين (ليس مهماً إلى أي حزب ينتمون)، رجال الأعمال، العسكر، سائقي الشاحنات وأخيراً كلّ من تبقى. وفوق العشائر هناك الأسرة، المقدَّسة والعصية على الاختراق، والتي لا أحد يفلت من واجباته تجاهها. مثلاً العم رامون يهتف عادة إلى كاليفورنيا، حيث أعيشُ، ليُبلغني أنّ عمّاً من الدرجة الثالثة لم أعرفه، قد تُوفِّي وخلَّفَ ابنةً في وضع سيّئ. الشابة تريد أن تدرس تمريضاً، لكنّها لا تملك الإمكانيات لذلك. وعلى العمّ رامون، كأكبر عضو في العشيرة، أن يتصل بأيّ شخص تربطه بالمُتَوفّى أواصر الدم، بدءاً من أقربهم إلى أبعدهم لتمويل دراسة الممرضة المستقبلية. والرفض يعتبر عملاً خسيساً، سوف يستمرّ ذكره لأجيال عدّة. ونظراً لأهمية الأسرة عندنا فقد اخترتُ أسرتي كخيط رابط في هذا الكتاب، فإذا أسهبتُ بالكلام عن أحد أفرادها فمن المؤكّد أنّ هناك سبباً، وإن كان أحياناً مجرّد رغبتي بألا أفقد روابط الدم هذه التي تربطني أيضاً ببلدي. سيفيدني أقربائي لتوضيح بعض رذائل عريكة التشيليين وفضائلهم. وهذا من ناحية المنهج العلمي يمكن أن يكون مطعوناً به، أمّا من الناحية الأدبية فله فضائله.

عَشِق جدّي، الذي كان ينحدر من أسرة صغيرة ومفلسة، نظراً لوفاة الأب المبكرة، فتاةً مشهورة بجمالها، تُدعى روسا بارّوس،

لكنّ الصغيرةَ ماتت بطريقة غامضة قبل العرس. لم يبقَ من أثرها غير صورتين حائلتي اللون، ذهبَ ضبابُ الزمن بلونهما، لا تكاد تتميّز فيهما بعض ملامحهما. تزوَّج جدّي بعد سنوات من إيزابيل، أخت روسا الصغرى. في تلك الأيّام كان الجميع في الطبقة الاجتماعية الواحدة يعرفون بعضهم بعضاً في سانتياغو، بحيث الزيجاتُ، وإن لم تكن منظّمة كما في الهند، مسألة عائلية. بدا لجدّي أنّ من المنطقي أنّه إذا كان قد قُبِل بين آل بارّوس كخطيب لواحدة من بناتهم، فلأنّه لم يكن هناك سبب كي لا يكون كذلك.

كان جدّي أغوستين في شبابه نحيلاً، له أنف معقوف، يرتدي طقماً أسودَ، مصلّحاً على قياسه ويعودُ لوالده المتوفّى. كان وقوراً ومختالاً؛ وينتمي إلى أسرة ذات أصول قشتالية ـ باسكية عريقة، لكنّه بخلافِ أقربائه فقيرٌ. لم يكن عند أقربائه ما يُثير فضيحة، باستثناء العمّ خورخِهْ، الفتى الوسيم والأنيق كأمير، الذي يركع المستقبل اللامع عند قدميه، والذي تُحاصره عدّة آنسات بعمر الزواج، فضعف وعشق امرأة «متوسِّطة الحال» كما يقولون في تشيلي عن الطبقة الوسطى الدنيا المجتهدة. بالتأكيد كان باستطاعتهما في بلد آخر أن يُحبّا بعضهما دون مأساة، لكنّهما كانا في الجوّ الذي يعيشان فيه محكومين بالنبذ. هي عبدت العمّ خورخِهْ لمدة خمسين عاماً، لكنّها كانت تستخدم لِفاع ثعلبٍ أكله العث وتصبغ شعرها بلون الجزر وتُدخِّن بأريحية وتشرب البيرة من الزجاجة مباشرةً، وهي أسباب فائضة كي تُعلن جدّتي إستِر الحرب عليها، وتمنع ابنها من ذكرها في حضورها. أطاعها هو صامتاً، لكنّه تزوّج في اليوم التالي لوفاة أمّه من حبيبته، التي أصبحت امرأةً ناضجةً ومريضة بالرئة، رغم أنّها بقيت دائماً ساحرة. أحبّا بعضهما في الفاقة دون أن يستطيع أحد أن يفصل بينهما: وجدوها بعد يومين من موتِهِ بجلطةٍ قلبية ميتةً في فراشها ملفوفة بدثار نومِ زوجِها العتيق.

عليّ أن أقول بعض الكلمات عن والدة جدّي إستِر، لأنّني أعتقدُ أن تأثيرها الجبّار يفسِّر بعض مظاهر جِبِلَّة أسلافها، وتُمثّل بطريقة ما الأمّ المتسلطة غير المتسامحة، الأمر الذي كان وما زال شائعاً حتى الآن. إنّ لصورة الأمومة أبعاداً أسطورية في بلدنا، ولذلك لا أستغرب الموقف المذعن للعم خورخِهْ. وتعتبر الأمّ اليهودية والماما الإيطالية هاويتين مقارنةً بالأم التشيلية. اكتشفتُ للتو وبالمصادفة أنّ زوج دونيا إستر لم يكن يملك رأساً صالحة للتجارة وأضاع أراضيه وثروته التي ورثها، يبدو أنّ دائنيه كانوا أخوته أنفسهم. وحين رأى نفسه مفلساً ذهب إلى البيت الريفي وهناك مزّق صدره بطلقة بندقيّة. أقول عرفت ذلك للتو، لأنّ الأسرة أخفته مئة سنة، وهو حتى اليوم لا يُذكر إلا همساً؛ فقد كان يُنظر إلى الانتحار باعتباره خطيئة واضحة بشكل خاصّ، لأنّ الجسد لا يمكن أن يُقبَر في الأرض المقدّسة للمقبرة الكاثوليكية. ولتفادي العار ألبس أقرباؤه الجثّةَ سترةً طويلة وقبّعةَ عالية، أجلسوها في عربة خيل وحملوها إلى سانتياغو، حيث استطاعوا أن يمنحوها قبراً مسيحياً بفضل جميع الناس بمن فيهم القسّ الذين غضّوا الطرف. قسَّم هذا الحدثُ الأسرة بين الوارثين المباشرين، الذين أكّدوا أن الانتحار كان شائعة، والوارثين من أخوة المُتوفّى، الذين حصلوا أخيراً على أملاكه. في جميع الأحوال غرقت أرملته في الاكتئاب والفاقة. كانت امرأة حلوةً، تضجُّ فرحاً، بارعة بالعزف على البيانو، لكنّها ارتدت بعد موت زوجها ثيابَ الحداد الصارمة، ووضعت قفلاً للبيانو ولم تخرج منذ ذلك اليوم إلاّ للذهاب إلى القدّاس اليومي. وقد حوّلها الروماتيزم والبدانة إلى تمثال مريع محصور ضمن أربعة جدران. راح القسُّ يحمل لها كلَّ أسبوعٍ العشاءَ الربّاني إلى البيت. وقد لقّنت هذه الأرملة المكتئبةُ أولادَها فكرة أنّ العالم وادٍ للدموع، وأنّنا لسنا هنا إلاّ لنُعاني. كانت تحكم من كرسيّ عجزها على حياة الآخرين، لا شيء

كان يفلت من عينيها، عيني الصقر الصغيرتين، ولسانِها، لسان النبيّ. وقد اضطرّوا من أجل تصوير فيلم «بيت الأرواح»، أن ينقلوا من إنكلترا إلى الاستديو في كوبّنهاغن ممثلةً بحجم الحوت للعبِ هذا الدور، بعد أن رفعوا عدّة مقاعد من الطائرة كي تتسع لجسدها الهائل إلى حدّ لا يُصدّق. لا تكاد تظهر سوى لحظة واحدة على الشاشة، لكنّها تُوَلِّدُ انطباعاً لا يُنسى.

على العكس من دونيا إستر وذرّيتها من الناس الوقورين والجدّيين، كان أخوالي منشرحين ومفرطين ومسرفين، مريضين بالعشق، ماهرين في رهان الخيل وعزف الموسيقى ورقص البولكا. (موضوع الرقص هذا قليلاً ما يحدث عند التشيليين، الذين ليس لديهم بشكل عام حسّ إيقاعيّ. أحد اكتشافاتي المهمّة في فنزويلا، التي ذهبتُ لأعيش فيها في العام 1975، هو القدرة العلاجية للرقص. لا يكاد يجتمع ثلاثة فنزويليين حتى يضرب واحد على الطبل أو يعزف على القيثارة ويرقص الآخران، ما من وجع يمكنه أن يقاوِم هذا العلاج. بالمقابل تبدو احتفالاتنا أقرب إلى الجنائز: ينزوي الرجالُ ليتحدّثوا عن التجارة بينما تُصاب النساء بالسأم. لا يرقص غير الشبان، الذين تُغويهم الموسيقى الأمريكية الشمالية، لكنّ ما إن يتزوّجوا حتى يصبحوا وقورين مثل آبائهم). معظم نوادر وشخصيات كتبي ترتكز على أصول أسرة بارّوس. كانت النساء رقيقات، روحانيات وظريفات؛ والذكور طويلين، وسيمين ومستعدين دائماً للدخول في مشاجرات باللكم: مولعين بالصينيات، كما كانوا يقولون عن المُغرمين بالمواخير، وأكثر من واحد منهم انتهى مصاباً بمرضٍ غامِض. أتصوَّرُ أنّ ثقافة المواخير كانت مُهمّة في تشيلي، لأنّها تَظهر مرَّةً وأخرى في الأدب، كما لو أنّ كتّابنا كانوا يعيشون مهووسين بها. ورغم أنّني لا أعتبرُ

نفسي خبيرة بالموضوع لكنني لم أنجُ من إبداع عاهرة لها قلب من ذهب: ترانسيتو سوتو في روايتي الأولى.

لي جدّة مئوية تتطلّع إلى القداسة ورغبتها الوحيدة هي الدخول في دير، لكن ما من أخويَّات، ولا حتى أخويات الإحسان، يتحملنها أكثر من أسبوعين، وهكذا اضطرت الأسرةُ لأن تأخذها على عاتقها. صدِّقني لا يوجد شيء أثقل من قدّيس، فأنا لا أتمنى ذلك ولا حتى لألدِّ أعدائي. كان أخوالي أثناء تناول الغداء في بيت الجدّ يُخطِّطون لاغتيالها، لكنّها استطاعت دائماً أن تفلتَ منهم، وتخرجَ سليمةً وأكثر حيويّة. كانت هذه السيّدة تستخدم في شبابها فساتين من اختراعها، وتنشد في كلّ ساعة أناشيدَ دينية بصوتٍ ملائكيّ، وتنسلّ عند أيّة غفلة لتذهب إلى شارع مايبّو لتعلّم بأعلى صوتها أصول الدين لبنات الهوى، اللواتي كنَّ يستقبلنها ضرباً بالخضار المتعفِّنة. في الشارع ذاته كان خالي خايِمْ، ابن عمّ أمّي، يكسبُ المال لدراسةِ الطب بالعزفِ على الأكورديون في «البيوت سيِّئة السمعة»، ويطلع عليه الصباح وهو يُغنّي بأعلى صوته أغنيةً تسمّى «أريد امرأة عارية»، وهو ما كان يُثير فضيحةً تحمل الورعات على الخروج للاحتجاج. كانت قائمةُ الكنيسة الكاثوليكية السوداءُ تحتوي على كتب مثل الكونت دي مونت كريستو: تصوّر الرعب الذي يمكن أن تُحدثه الرغبةُ بامرأة عارية يعلن عنها خالي بأعلى صوته. أصبح الخال خايِمْ أشهرَ وأحب طبيب أطفال في البلد، وأغرب سياسيّ - قادر على أن يُلقي خطبَه بالشعر المقفى في مجلس الشيوخ - ودون شكّ أكثر أخوالي جذرية، فهو شيوعي على يسار ماو، حين كان ماو ما يزالُ في نعومة أظفاره. وهو اليوم عجوز وسيم وفطن يستخدم جوارب حمراء فاقعة، كرمز لأفكاره السياسية. وكان أحد أخوالي يخلع بنطلونه في الشارع ليعطيه للفقراء، وعادة ما كانت تظهر صورته في الصحف بالسروال الداخلي، لكن أيضاً بالقبّعة والسترة

وربطة العنق. كان معتدّاً بنفسه إلى حدٍّ أنّه ترك في وصيّته تعليمات كي يُوارى التراب واقفاً، وبذلك يستطيع أن ينظر إلى عيني الربّ مباشرة حين يقرع باب السماء.

وُلِدت في ليما، حيث كان أبي سكرتيراً في السفارة. أحد أسباب ترعرعي في بيت جدّي في سانتياغو هو أن زواج أبوَيّ كان كارثة منذ البداية. فذات يومٍ وعمري قرابة الأربع سنوات خرج والدي لشراء سجائر، ولم يعُد بعدها قط. الحقيقة أنّه لم يخرج لشراء السجائر كما قيل دائماً، بل ليسكر متقنّعاً بثياب هندية بيروية، وفساتين متعدّدة الألوان وشعر مستعار، طويل الجدائل. ترك أمّي في ليما وعلى كاهلها كومة حسابات لم تُسدَّد وثلاثة أولاد، أصغرهم حديث الولادة. أعتقد أنّ هذا الهجران الأوّل ترك في نفسي ندبة ما، ففي أعمالي من الأطفال المهجورين ما يكفي لإقامة مأوى أيتام وآباء شخصياتي إمّا هم موتى أو مختفون أو هم من التسلط والبعد بحيث يبدون وكأنّهم في كوكب آخر. يبدو أنّ أمي حين وجدت نفسها بلا زوج يتقاذفها التيار في بلد أجنبيّ انتصرت على كبريائها الهائل الذي تربّت عليه، وعادت إلى بيت جدّي. سنواتي في ليما محاها ضبابُ النسيان؛ وكلّ ذكريات طفولتي مرتبطة بتشيلي.

ترعرعتُ في أسرة بطريركية، جدّي فيها مثل إله معصوم، كلّي الحضور والقوّة. لم تكن داره في حيٍّ بّروبيدِنْثيا لتشكّل ولا حتى ظلاً لدار والد جدّي في شارع كوِتو، لكنّها شكّلت عالمي، خلال السنوات الأولى من عمري. لم يمضِ زمن طويل على ذهاب صحافيّ يابانيّ إلى سانتياغو بهدف تصوير «بيت الزاوية الكبير» المفترض، الذي يظهر في روايتي الأولى حيث كان من العبث أن أُوَضّح له أنّه وهم. خرج الرجل المسكين، بعد تلك الرحلة الطويلة، بخيبة أملٍ رهيبة، لأنّ سانتياغو كانت قد هُدِمت وأُعيدَ بناؤها مرّاتٍ عديدة. لا

شيء يدوم في هذه المدينة. فالبيت الذي بناه جدّي صار الآن ديسكوتيك من النوع البائس؛ مسخاً مُحزناً من البلاستيك الأسود والأنوار المفرحة. ومنزل شارع كوِتو، الذي كان لأب جدّي قد اختفى منذ سنواتٍ طويلة ويقوم مكانه الآن برجانٌ حديثان لمستأجِرين من ذوي الدخل المنخفض، لا يمكن تمييزهما بين قرابة اثني عشر بناء متشابهين.

اسمحْ لي بأن أقدّم تعليقاً مثل نزوة عاطفية عن ذلك الهدم. وصلت ذات يوم آلاتُ التقدّمِ بمهمّة نسف بيت أسلافي؛ وسوّت الديناصورات المعدنية التي لا ترحم، خلال أسابيعَ، الأرضَ بقوائمها المسنّنة. أخيراً حين استقرّ غبار البدو استطاعَ المارّة أن يتأكّدوا من أنّه ما زالت تنتصب في ذلك القفر بعض النخلات سليمة. انتظرتْ موحشة وعاريةً بشعرها الذابل ومظهرها الرماديّ المتواضع نهايتّها، لكن ظهر بدلَ الجلاّدِ المرعب عدّة عمّال يتصببون عرقاً، وحفروا مثل نمل نشيط خنادقَ حول كلّ شجرة منها حتى فصلوها عن الأرض. تشبّثت الشجرات الرشيقة بجذورها الدقيقة بحفنات من التراب الجاف، وحملت الرافعات النخلات الجريحة إلى بعض الحفر التي أعدّها عمّال الحدائق لها في مكان آخر، وزرعوها هناك. أنّت الجذوعُ بصمتٍ وسقطت السعف على شكل نسالةٍ صفراء، وبقيت فترة بدا أنّه لا شيء يستطيع إنقاذها من كلّ ذلك الاحتضار، لكنّها مخلوقات عنيدة، فقد راح تمرّدٌ سفليٌّ بطيء يُدبُّ الحياة فيها، وشقّت المجساتُ النباتية طريقها خالطة بقايا تربة شارع كوِتو بالتربة الجديدة. وذات ربيع حتميّ جاء الصباحُ على النخلات وقد هزّت شعرها الحيّ والمتجدّد، الذي حفَّ بخصرها رغم كلّ شيء. كثيراً ما تراود صورة نخلات أسلافي هذه فكري حين أفكّر بمصيري كمنفية. قدري أن أمضي من مكانٍ إلى آخر، وأتكيّف مع أراضٍ جديدة. أظنّ أنّني أتمكّن من ذلك لأنّني دائماً أحمل معي حفنةً من

تراب بلدي. في جميع الأحوال عادَ الصحافيُّ الياباني، الذي ذهب إلى نهاية العالم ليصوّر داراً مذكورة في روايةٍ إلى وطنه خالي الوفاض.

كانت دار جدّي مماثلة لدور أخوالي ولدارِ أيّة أسرة من بيئة مشابهة. لم يتميّز التشيليون بالأصالة: بيوتهم جميعها متشابهة إلى هذا الحدّ أو ذاك من الداخل. يقولون لي إنّ الأغنياء يتعاقدون الآن مع مهندسي ديكور ويشترون من الخارج حتى صنابير حماماتهم. لكن لم يكن هناك من سمع، في ذلك الزمن، بالديكور الداخلي. في القاعة، التي تمحوها تيارات هواءٍ غامِضة، كان هناك ستائر مزأبرة، بلون دم الثور، وثريات طويلة الدموع، وبيانو مُذَنَّب غير مدوزن، وساعة أثاث سوداء كبيرة كتابوت تُعلن عن الساعة بدقات نواقيس جنائزية. كما كان هناك منحوتة من الخزف الفرنسي لآنستين مريعيتن بشعر مغبر وفرسانٍ بكعب عال. كان أخوالي يستعملونها كي يصقلوا فعلهم الانعكاسي: يتقاذفونها فيما بينهم على رؤوس بعضهم، بأمل عبثي، عساها تسقط على الأرض وتتشظّى. كان البيتُ مسكوناً ببشرٍ غريبي الأطوار، وتمائم شبه وحشية وأشباحٍ صديقة للجدّة، لحقت بها من بيت شارع كوِتو بل وبقيت تطوف من حولنا حتى بعد موتها.

كان جدّي أغوستين رجلاً صلباً وقويّاً كمحارب، رغم أنّه وُلِدَ بساقٍ أقصر من أخرى. لم يخطر بباله قط أن يستشير طبيباً لهذه المسألة وفضَّل عليه «مُجبِّراً»، كان أعمى يُجَبِّرُ أرجلَ الخيول المصابةِ في نادي الخيول ومعرفته بالعظام أكبر من معرفةِ أيّ طبيب حوادث. ومع الزمن ساء عرج جدّي. أصيب بالتهاب أعصاب وتشوَّهَ عمودُهُ الفقري، حتى شكّلت كلُّ حركة عذاباً له، لكنّني لم أسمعه قط يشكو آلامَه أو مشاكلَه، رغم أنّه كان ككل تشيليّ محترم يشكو من كلّ ما عدا ذلك. كان يتحمّلُ ألم هيكله البائسِ بحفنة من

الأسبرين وجرعاتٍ كبيرة من الماء. علمتُ فيما بعد أنّه لم يكن ماءً بريئاً بل جِناً يشربه مثل قرصان، دون أن يؤثّر على سلوكه أو صحّته. عاش قرابة القرن دون أن يفقدَ برغياً واحداً من دماغه. لم يعفِهِ الألم من واجباته الفروسيّة حتى في آخر أيّامه، حين لم يعد أكثر من حزمة من عظام وجلد، فينهض بجهدٍ عن كرسيِّه كي يسلّم على السيّدات أو يودِّعهنّ.

صورته على مكتب عملي. يبدو فلاّحاً باسكيّاً. الصورة جانبية يعتمر فيها بيريه سوداء تُبرز أنفَهُ المعقوف وتعبيرَ وجهه القوي المُعلَّم بالدروب. شاخ مسلّحاً بالذكاء ومعزَّزاً بالتجربة. توفّي وعنده خصلة شعر بيضاء ونظرة حادّة زرقاء كما في شبابه. ما أصعب الموت! قال لي ذات يوم حين أضناه ألم العظام. كان يتكلّم بالأمثال، ويعرف مئات القصص الشعبية، وينشد عن ظهر قلب قصائدَ طويلة. منحني هذا الرجل الرهيب موهِبة النظام وحب اللغة، اللذين لولاهما ما كان باستطاعتي أن أكرّس نفسي للكتابة. كما علَّمني تأمّلَ الطبيعة وحبَّ مناظر تشيلي. كان يقول إنَّنا نعيش، نحن التشيليين، في أكثر البلدان على وجه الكوكب إبهاراً دون أن نقدِّره، تماماً كما يعيش الرومان بين التماثيل والنوافير دون أن ينتبهوا إليها. لا ندرك الحضور الهادئ للجبال المثلجة، والبراكين الخامدة والهضاب غير المنتهية التي تضمّنا في عناق عظيم، لا يفاجئنا غضبُ المحيط الهادي المزبد، وهو يتكسّر على الشواطئ، ولا سكون الجنوب الطويل وشلالاته الرنّانة؛ لا نبجّل كزوّار الطبيعةَ الألفية لغاباتنا الأصيلة ومناظر الشمال القمرية، والأنهار الأراوكانية الغزيرة ولا الزرقة الجليدية حيث يتحطّم الزمن.

نحن نتحدَّث عن الأربعينات والخمسينات... كم عشتُ، يا إلهي! الشيخوخة عملية تدريجية ومواربة. يفوتني أحياناً مرور الزمن، لأنّني في داخلي لم أكمل الثلاثين بعد، لكنّ أحفادي يجعلونني أواجه

حتماً الحقيقةَ القاسية حين يسألونني عمّا إذا وُجِدَ «في عصري» كهرباء. هؤلاء الأحفاد أنفسهم يؤكّدون أنّ في رأسي شعباً وتعيش فيه شخصياتُ كتبي حكاياتها. حين أحكي لهم نادرةً من تشيلي يعتقدون أنّني أشير إلى هذا الشعب المُختَرَع.

حلوى الألف وريقة

من نحن التشيليون؟ يصعب عليّ أن أُعرِّف بنا كتابةً، لكنّني أستطيع أن أُمَيّز ابنَ بلدي بنظرة واحدة عن بعد خمسين متراً. ثمّ إنّني ألقاهم في كلّ مكان؛ في معبد نيبال المقدّس، في غابات الأمازون، في كرنفالٍ في نيوأورليانز، على الجليد المشع في أيسلندا، حيث تشاءُ يوجد تشيلي ما بطريقته المتميِّزة في السير ونبرته المُغناة. رغم أنّنا مفصولون على امتداد بلدنا النحيل بآلاف الكيلومترات فنحن متشابهون بعناد، نتقاسَم اللغة ذاتها والعادات المُماثِلة. الاستثناء الوحيد هي الطبقةُ العليا التي تنحدر دون كثير من الذهول من أوروبيين، وأبناءُ البلد الأصليين، الأيماريون وبعض الكِتشويين في الشمال والمابوتشيون في الجنوب يناضلون للحافظ على هويَّتهم في عالمِ المكانُ يضيق بهم في كلّ مرّة أكثر.

كبرت على حكاية أنّه لا يوجد في تشيلي مشاكل عنصرية. لا أفهم كيف نجرؤ على تكرار مثل هذا الزيف. أنا لا أتكلم عن العنصرية، بل عن «نظام الطبقات» (نحبُّ تلطيف العبارات) لكنّها عملياً شيء واحد. لا توجد عنصرية و/أو طبقية وحسب، بل هي متجذّرة مثل الأضراس. يُخطئ تماماً من يؤكّد أنّها شيء من الماضي، كما تأكّدتُ في آخر زيارة لي، حين علمتُ أنّهم رفضوا استقبالَ أحدَ ألمع طلاّبِ مدرسة الحقوق في جامعة تشيلي في بوفيه مُعتَبَر للمحامين، لأنّه «لم يكن له بروفيل نقابي». بكلماتٍ أخرى كان خلاسياً وله كنية مابّوتشية. أصحاب العلامة التجارية لا يثقون بأن

يُمثلوا من قِبله، كما لا يقبلون بأن يخرج مع إحدى بناتهم. طبقتُنا العليا، كما في بقيّة أمريكا اللاتينية، بيضاءُ نسبياً وكلّما هبطنا في السلّم الاجتماعي كلّما برزت ملامح السكان المحليين أكثر، ومع ذلك ونظراً لغياب مرجعيات أخرى فإنّ غالبية التشيليين يعتبرون أنفسهم بيضاً. وكانت مفاجأة بالنسبة إليّ أن أكتشف أنّني في الولايات المتحدة «شخصٌ ملوّنٌ» (ففي إحدى المناسبات حيث كان عليّ أن أملأ استمارة هجرة، فتحت قميصي كي أُري موظفاً أمريكياً، من أصلٍ أفريقي، لوني، فقد كان يريد أن يضعني في آخر الطبقات العرقية من قائمته: «عرق آخر». لم يستظرف الرجل الحالة).

رغم أنّه لم يبقَ كثير من الهنود الأنقياء ـ عشرة بالمئة من السكان تقريباً ـ إلاّ أنّ دمهم يجري في عروق شعبنا الخلاسي. المابوتشيون بشكل عام قصيرو القامة والساقين، طويلو الجذع، سمر البشرة، داكنو الشعر والعينين، بارزو الوجنتين. يشعرون باحترازٍ بعيد الرجع ـ ومُبَرَّر ـ تجاه من ليسوا هنوداً، وينادونهم «هوينكيين»، وهي لا تعني «بيضاً»، بل «لصوص أراضٍ». هؤلاء الهنود، المنقسمون إلى عدّة قبائل، يُساهمون بقوّة في صياغة الطبيعة الوطنية، رغم أنّه ما من أحد يحترم نفسه من قبل كان يقبل أدنى صلة بهم؛ فقد اشتُهروا بأنّهم سكارى، كسالى، ولصوص. ليس هذا هو رأي ألونسو دِ أرثيّا إي ثونييغا، الجندي والكاتب الإسبانيّ البارز، الذي عاش في تشيلي أواسطَ القرن السادس عشر وكتب لا أراوكانا، وهي قصيدة ملحمية طويلة عن الاحتلال الإسباني ومقاومة السكان الأصليين الشرسة. يتوجّه في المقدّمة إلى سيّدِهِ، الملك، قائلاً له عن الأراوكانيين: «لقد افتدوا حرّيتَهم وحافظوا عليها ببسالة خالصة وعزيمة لا تلين، باذلين من أجل ذلك كثيراً من دمهم ومن دم الإسبان، وحقّاً يمكن أن يُقال إنّ الأماكنَ غيرَ المصبوغة به وغير العامرة بالعظام قليلةٌ... والناس من القلّة لكثرة ما قُتِلَ منهم في سبيل ذلك، حيث تأتي النساء إلى الحرب، ليزدن

حجمهم ويعبّئن سراياهم أيضاً ويقاتلن أحياناً مثل الرجال، ويندفعن بحماسة نحو الموت».

تمرّدت، في السنوات الأخيرة، بعضُ القبائل المابّوتشية ولا يستطيع البلد أن يتجاهلهم زمناً أطول. في الواقع صار الهنود اليوم موضة. لا يخلو الأمر من مفكرين وبيئيين يبحثون عن سلف يحمل رمحاً كي يزيّنوا به شجرتهم العائلية، فابن بلدٍ بطل في شجرة العائلة يزيّنها أكثر من مركيز سقيم، يرتدي مطرزات صفراء، أوهنته حياة البلاط. أعترفُ أنّني حاولتُ أن أحصل على كنية مابوتشية كي أتباهى بجدٍّ، شيخ قبيلة، كما كانت تُشترى من قبل ألقابُ النبالة الأوروبية، لكنّني لم أخرج حتى الآن بنتيجة. أظنّ أنّ أبي حصل على ترس سلاحِهِ بهذه الطريقة: ثلاثة كلاب جائعة في حقل أزرق، حسب ما أذكر. بقي الترس المذكور في القبو ولم يكن يذكره أحد أبداً، لأنّ ألقاب النبالة أُلغيت بعد إعلان الاستقلال عن إسبانيا؛ ولا يوجد في تشيلي ما هو مثير للسخرية مثل محاولة أن يُعرف المرء على أنه نبيل. عندما كنتُ أعمل في الأمم المتحدة كان رئيسي كونتاً إيطالياً حقيقياً، يبدو أنّه بدّل بطاقات زيارته أمام القهقهات التي كانت تُثيرها تروسُهُ.

كان زعماء أبناء البلد الأصليين يكسبون مواقعهم بمآثر القوّة والشجاعة الخارقة. كانوا يرفعون على ظهورهم جذعاً من تلك الغابات العذراء، ومن يتحمّل وزنه زمناً أطول يصبح توكي(*). وكانوا، كما لو أنّ ذلك لم يكن كافياً، ينشدون دون توقّف ولا تنفّسٍ خطاباً مرتجلاً، لأنّهم بالإضافة إلى التأكّد من قدرتهم الجسديّة عليهم أن يُقنعوا الآخرين بتناغم وجمال كلماتهم. ربّما من هنا جاء هوسنا القديم بالشعر. وكانت سلطة المنتصر لا تعود لتُطرح حتى المباراة التالية. ما من تعذيب مما ابتدعه المحتلون الإسبان

(*) Toqui مصطلح يعني بين الأراوكانيين القدماء قائد جيش في زمن الحرب.

العباقرة، مهما كان مرعباً، استطاع أن يُثبط معنويات أولئك الأبطال، داكني اللون، الذين كانوا يموتون دون أيّة شكوى، مخوزقين على رمح، ممزقين بأربعة أحصنة، أو محروقين ببطءٍ فوق محرقة. لم يكن هنودنا ينتمون مثل الأزتِكيين والمايا أو الأنكا، إلى ثقافة بهيّة؛ بل كانوا مشاكسين، بدائيين غضوبين، وقليلي العدد، لكنّهم من البسالة بحيثُ استمرّوا في حالة حرب طوال ثلاثمئة سنة، في البداية ضدَّ المستعمرين الإسبان وبعدها ضدَّ الجمهورية. هُدِّئوا في العام 1880 ولم يُسمع أحدٌ يتكلّم عنهم خلال أكثر من قرنٍ، لكنّ المابّوتشيين الآن ـ (أهل الأرض) ـ عادوا للنضال من أجل الدفاع عن القليل من الأرض الذي تبقى لهم، والمُهدَّد ببناء سدٍّ على نهر بيّو بيّو.

الظواهر الفنيّة والثقافية لهنودنا، معتدلة ككل ما عداها من منتجات البلد. يصبغون سطوحهم بصبغات نباتية: بنّية، وسوداء، ورمادية، وبيضاء؛ آلاتهم الموسيقية حزينة مثل غناء الحيتان، رقصاتهم ثقيلة رتيبة، وهي من العند بحيث أنّها تنزل المطر أخيراً، وصناعاتهم اليدوية جميلة، لكنّها ليست بتطوّر وتنوّع الصناعات المكسيكية، أو البيروية أو الغواتيمالية.

الأيماريون، «أبناء الشمس»، مختلفون جدّاً عن المابّوتشيين، هم أنفسهم الموجودون في بوليفيا، يروحون ويغدون غير آبهين بالحدود، لأنّ المنطقة منطقتهم منذ الأبد. مزاجهم لطيف. ومع أنّهم يُحافظون على عاداتهم ولغتهم ومعتقداتهم إلاّ إنّهم اندمجوا في ثقافة البيض، خاصّة من الناحية التجارية. يختلفون من هذه الناحية عن بعض مجموعات السكان الأصليين الكِتشويين في المناطق الأكثر عزلة من جبال بيرو؛ يعتبرون الحكومة عدوّهم، كما في أيّام الاستعمار؛ ولم تبدل حياتهم حربُ الاستقلال وإنشاء جمهورية البيرو.

لقي الهنود سيّئو الحظ، في تيرًّا دِ فوِغو[*] في أقصى جنوب تشيلي، حتفَهم رمياً بالرصاص وبالأوبئة منذ زمن طويل. ولم يبق من تلك القبائل إلاّ حفنة من ألاكالوفِ. كانوا يدفعون جائزة للصيادين مقابل كلّ زوجين من الآذان يأتون بها كبرهان على أنّهم قتلوا هندياً، هكذا أفرغ المستعمرون المنطقة. كانوا عمالقة يعيشون شبه عراة في أرضِ جليدٍ لا يرحم، حيث وحدها الفقمةُ تشعر بالراحة.

لم يأتوا إلى تشيلي بدم أفريقيّ كان من الممكن أن يمنحنا إيقاعاً ولوناً؛ ولم تصلنا، كما وصلت إلى الأرجنتين، هجرةٌ إيطالية قويّة، كان من الممكن أن تجعلنا فاسدين، عبثيين ومرحين؛ كما لم يصلنا، كما وصل إلى البيرو، ما يكفي من الآسيويين، الذين كانوا سيعدلون من وقارنا ويُبَهِّروا طعامنا، لكنّني واثقة أنّهم لو انصبوا علينا من جهات الأرض الأربع لكانوا التقوا متحمّسين لأن يقطنوا بلدنا ولتدبّرت الأسر القشتالية - الباسكية الفخورة أمرَها كي يكون اختلاطها في حدوده الدنيا، إلا إذا كانوا من أوروبا الشمالية. يجب أن نعترف: لقد كانت سياسة الهجرة عندنا عنصرية بشكلٍ مفتوح. لزمن طويل لم يُقبَل الآسيويون أو الزنوج المحمّصين جداً. خطر لأحد الرؤساء في القرن التاسع عشر أن يجلب ألماناً من لا سِلبا نِغرا ويخصّهم بأراض في الجنوب، طبعاً لم تكن له، بل للمابّوتشيين، لكنّ أحداً لم يتوقّف عند ذلك التفصيل، باستثناء المالكين الشرعيين. كانت الفكرة أن يُحسِّن الدمُ التوتيني شعبنا الهجين، ويلقنونه روحَ العمل، والتهذيب، والدقة والتنظيم. كان يُنظَرُ إلى بشرة الهنود الصفراء الضاربة للخضرة وشعرهم القاسي نظرة سيئة، ولن يضرّنا، كما كانت تفكر السلطات آنذاك، بعضُ الجرمان. كان يؤمَل

(*) أرض النار.

أن يتزوّج المهاجرون من تشيليات ونخرج رابحين بتهجين أبناء البلد الأصليين المتواضعين. وهو ما حدث في بالديبيا وأوسورنو، المقاطعتين اللتين تستطيعان أن تتباهيا اليوم برجالهما الطوال ونسائهما كبيرات الصدر، وأطفالهما زرقِ العيون، وستروديِل التفاح، الحلوى الأكثر أصالة. ما تزال عقدةُ اللون قويّة، إذ يكفي أن تملك المرأةُ شعراً أصفرَ، حتى ولو كان لها وجه عظاءة، كي يلتفتوا لينظروا إليها في الشارع. وقد ذهبوا بلون شعري منذ نعومة أظفاري بسائلٍ له رائحة حلوة اسمه بايروم؛ إذ لايوجد تفسير آخر لمعجزة أن الخصلات السود التي ولدت معي تحوّلت قبل أن أُتمَّ الستّة أشهر إلى جعدات ذهبية ملائكية. لم يكن ضرورياً اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات المتطرّفة بالنسبة إلى أخوتي، لأنّ واحداً كان أجعد الشعر والثاني أشقر. في جميع الأحوال أثّر مهاجرو لا سِلبا نِغرا جدّاً في تشيلي، وأنقذوا، حسب رأي الكثيرين، الجنوبَ من البربرية وحوّلوه إلى الجنّة الرائعة التي هو عليها الآن.

وصلتْ، بعد الحرب العالمية الثانية، موجةٌ مختلفة من الألمان لتلجأ إلى تشيلي، حيث كان هناك تعاطف كبير معهم، إلى حدٍّ أنّ حكومتنا لم تنضمّ إلى الحلفاء حتى آخر ساعة، حين لم يعد من الممكن البقاء على الحياد. خلال الحرب كان الحزب النازي التشيلي يقدم عروضه بلباسٍ بنيٍّ موحّد وأعلام صلبانها معقوفة، وأذرع مرفوعة. كانت جدّتي تركض بجانبهم وترميهم بالبندورة. وهذه السيّدة استثناءٌ، لأنَّ الناسَ في تشيلي كانوا مُعادين للسامية، فكلمة «يهودي» فظّة، ولي أصدقاء كانوا يغسلون أفواههم بالماء والصابون إذا ما تجرَّؤوا على لفظها. ولكي يشيروا إليهم يقولون بما يشبه الهمس دائماً: «إسرائيليون» أو «عبريون». ما زالت هناك حتى الآن مستعمرة الكرامة الغامضة، وهو معسكر نازيّ مغلق تماماً، كما لو أنّه أمّة مستقلّة، لم تستطع أيّة حكومة تفكيكه، لأنّهم يعتقدِون أنّه يلقى دعم القوات المسلحة الموارب. في زمن

الديكتاتورية (1973 ـ 1989) تحوّل إلى مركز تعذيب تستخدمه قوى الأمن. زعيمه الآن هارب من العدالة، ومتهم باغتصابِ الأحداث وجرائم أخرى. ومع ذلك فإنّ الفلاحين الذين يحيطونَ بالمنطقة يتعاطفون مع هؤلاء النازيين المفترضين، لأنّهم يديرون مشفى رائعاً، يضعونه في خدمة البلدة. يوجد عند مدخل المستعمرة مطعم ألماني، تُقدّم فيه أفضل حلوى في المنطقة، ويقوم على الخدمة فيه رجال شقرٌ، غريبو الأطوار، وجوههم كثيرةُ العَرّات، ولهم عيون ضبّ، ويجيبون بكلمات مقتضبة. لم أتحقّق من ذلك، لكنّهم رووه لي.

في القرن التاسع عشر جاء الإنكليزُ بأعداد كبيرة وسيطروا على النقل البحري والسكك الحديدية وكذلك على تجارة الاستيراد والتصدير. بعض أحفادهم من الجيل الثالث أو الرابع لم يطؤوا أرض إنكلترا قط، ومع ذلك يسمونها الوطن. ويُشرّفهم أن يتكلموا القشتالية بلكنة وأن يسمعوا بالأخبارَ من الصحف المتأخرة القادمة من هناك. جدّي الذي كانت له علاقات تجارية كثيرة مع شركات تربية الأغنام في بّاتاغونيا لصناعة النسيج الإنكليزي، كان يحكي أنّه لم يوقّع معهم عقداً قط؛ كانت تكفي كلمة وشدّة على اليد. الإنكليز ـ الغرينغو(*) ـ كما نسمّي عامّة أيّ شخص أشقر الشعر أو لغته الأمّ هي الإنكليزية، أنشؤوا مدارس، ونوادٍ وعلّمونا عدداً من أكثر الألعاب مللاً، بما في ذلك البريدج.

نحبّ نحن التشيليين الألمان بسبب النقانق، والبيرة والقلبق البروسي، إضافة إلى مشية الإوزّة التي تبناها العسكر عندنا للعروض العسكرية؛ لكنّنا في الحقيقة نحاول أن نُقلّد الإنكليز. نُعجب بهم إلى حدّ أنّنا نعتقد أنّنا إنكليز أمريكا اللاتينية، تماماً كما نعتقد

(*) الأجنبي، خاصّة المتكلّم بالإنكليزية، وتُطلق عامّة على كلّ من يتكلّم لغة غير الإسبانية، وعلى أيّ أشقر؛ وتُطلق في بعض مناطق أمريكا الوسطى على الأمريكي الشمالي.

أن الإنكليز هم تشيليو أوروبا. خلال حرب المالفين المثيرة للسخرية (1982) ساندنا البريطانيين، بدل أن نساند الأرجنتينيين، الذين هم جيراننا، وبدءاً من تلك اللحظة تحوّلت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر إلى صديقة الروح للجنرال المشؤوم بِنوتشيت. لن تغفر لنا أمريكا اللاتينية مثل هذه الخطوة السيّئة. لا شكّ أنّنا نملك بعض الأشياء المشتركة مع أبناء ألبيون(*) الشقر: فردانية، آداب حسنة، شعور بالإنصاف، طبقية، تجهّم وأسنان سيّئة. (التجهّم الإنكليزي لا ينطوي، طبعاً، على العظمة، التي هي الروح الإنكليزية والتي هي مثل لاس فيغاس بالنسبة إلى صحراء موجاف). تفتننا غرابة الأطوار، التي يتباهى بها البريطانيون، لكنّنا لسنا قادرين على تقليدها، لأنّنا نخاف أكثر من اللازم مما هو مُضحِك. بالمقابل نحاول أن ننسخ عنهم التحكم الظاهري بالذات. وأقول الظاهري، لأنّ الإنكليز والتشيليين يفقدون في ظروف محدَّدة، مثل مباراة كرة قدم، صوابَهم على حدٍّ سواء، وهم قادرون على أن يمزِّقوا خصومهم. كما أن باستطاعة كلا الشعبين، رغم أنهما مشهوران باتزانهما، أن يتصرفا بالطريقة ذاتها وبوحشية ضارية. إنّ الفظائع التي ارتكبها الإنكليز على امتداد تاريخهم تعادل ما يرتكبه التشيليون ما إن يمتلكوا ذريعة مناسبة وحصانة. فتاريخنا ملطخ بعيّنات من الوحشية. ليس عبثاً أنّ شعار الوطن «بالحقّ أو بالقوّة»، الجملة التي بدت لي دائماً حمقاء على وجه الخصوص. خلال الأشهر التسعة للثورة عام 1891، قُتِل من التشيليين أكثر مما قُتل في سنوات الحرب الأربع ضدّ بيرو وبوليفيا (1879 - 1883)، كثيرون منهم رمياً بالرصاص من ظهورهم أو بالتعذيب وآخرون رمياً في البحر مع حجارة ربطت إلى أرسُغِهم. إنّ طريقة إخفاء الأعداء الإيديولوجيين، التي كثيراً ما طبّقتها مُختلف الديكتاتوريات الأمريكية اللاتينية في سبعينات وثمانينات القرن العشرين مُورِسَت في تشيلي قبل قرن

(*) Albión اسم قديم لإنكلترا.

تقريباً. هذا لا يلغي أنّ ديمقراطيتنا كانت الأكثر تماسكاً وقِدماً في القارة. كنّا نشعر بالفخر لفعالية مؤسساتنا، وجنودنا العصيين على الفساد، وجدّية القضاة وبأنّه ما من رئيس أثرى في السلطة؛ على العكس، فكثيراً ما كان الرئيس يخرج من قصر لا مونِدا أفقرَ مما كان حين دخله. ومنذ العام 1973 لم نعد نتباهى بذلك.

وقد وصل إلى شواطئنا، إضافة إلى الإنكليز والألمان والعرب واليهود والإسبان والطليان مهاجرون من أوروبا الوسطى، علماء ومخترعون وأكاديميون وبعض العباقرة الحقيقيين، الذين نسميهم دون تمييز طبقي «يوغسلافيين».

بعد الحرب الأهلية الإسبانية، وصل لاجئون هاربون من الهزيمة. في العام 1939 استأجر الشاعر بابلو نيرودا، بتكليفٍ من الحكومة، سفينة «وينبيغ»، التي انطلقت من مرسيليا محمّلة بالمفكرين والكتاب والفنانين والأطباء والمهندسين والفنانين اليدويين الرقيقين. وهرعت العائلات الغنية إلى بالبارايسو لاستقبال السفينة واستضافة المسافرين. واحد منهم كان جدّي؛ الذي وُجِد دائماً على مائدته مكانٌ للأصدقاء الإسبان، الذين قد يصلون على حين غرّة. لم أكن قد وُلِدتُ بعد، لكنّني ترعرعتُ وأنا أسمع قصص الحرب الأهلية وأغاني أولئك الفوضويين والجمهوريين المتحمِّسين، المطعمة بالكلمات السيئة. لقد هزّ هؤلاء الناس بأفكارهم وفنونهم ومهنهم ومعاناتهم وعواطفهم وأطوارهم الغريبة السباتَ الاستعماري في البلد. حملني أحد أولئك اللاجئين، وهو كتلاني صديق لأسرتي، ذات يوم ليريني آلة لينوتيب. كان شاباً ناحلاً، عصبياً، له بروفيل طائر هائج، لا يأكل خضاراً، لأنّه كان يعتبره غذاء حمير ويعيش مهووساً بفكرة العودة إلى إسبانيا حين يموت فرانكو، دون أن يخطر له أن ذلك الرجلَ سيعيش أربعين عاماً. كانت مهنته منضّد أحرفٍ وتفوح منه رائحة ثوم وحبر. كنتُ

أراه من آخر زاوية على المائدة، يأكل دون شهية ويهذر ضدّ فرانكو والملكيات والرهبان، دون أن يلتفت قط بعينيه باتجاهي، لأنّه كان يمقت الأطفال والكلاب معاً. وذات يوم شتوي أعلن الكتلاني بشكلٍ مفاجئ أنّه سيأخذني للنزهة. تلفع بلفاعه الطويل وانطلقنا بصمت. وصلنا إلى بناءٍ رماديّ، عبرنا باباً معدنياً وتقدّمنا في ممر تتكدّس فيه بكراتُ ورق هائلة. جلبةٌ تصمُّ الآذان كانت تهزّ الجدران. وعندها رأيته يتحوّل، صار خطوه خفيفاً وعيناه تلمعان ويبتسم. لمسني لأوّل مرَّة، وقادني آخذاً بيدي أمام آلة عجيبة، نوع من القاطرة السوداء، مكشوفة للنظر بكلّ آليتها، منزوعة الأحشاء وحانقة. لمس مفاتيحها فسقطت قوالبها مشكلة خطوطَ نص مُحدثةً دويَّ حرب.

ـ ساعاتي ألماني ملعون، مهاجر إلى الولايات المتحدة، اخترع هذه الروعةَ في العام 1884 ـ صرخ في أذني ـ. تُسمّى لينوتيب، قبلها كان يجب تركيب النص بتنضيدِ الأحرف يدوياً، حرفاً فحرفاً.

ـ ولماذا ملعون؟ ـ سألت أيضاً صارخة.

ـ لأنّ أبي اخترع الآلة ذاتها قبله باثني عشر عاماً وشغّلها في فناء داره، لكنّ هذا لم يهم أحداً قيد أنملة.

لم يرجع عامل التنضيد إلى إسبانيا قط. بقي يستعمل آلة الكلمات، تزوَّج، وهبط عليه أولادٌ من السماء؛ تعلّم أكلَ الخضراوات، وتبنّى عدّة أجيالٍ من الكلاب الشاردة. وخلّف عندي ذكرى آلة اللينوتيب وحبَّ رائحة الحبر والورق للأبد.

في المجتمع الذي وُلِدتُ فيه آنذاك، في الأربعينات، كان هناك حدود لا يمكن تخطيها بين الطبقات. هذه الحدود هي اليوم أكثر ذكاءً، لكنّها موجودة، أبدية، مثل سور الصين. كان صعود السلّم الاجتماعي سابقاً أمراً محالاً، والهبوط كان أكثر حدوثاً، ويكفي أحياناً تبديل الحيّ أو سوء الزواج، كما كان يُقال، ليس من عامّي أو

عديم ضمير، بل ممن هو دون طبقته. لم يكن للمال وزنٌ كبير. وكما أنّه لم يكن هناك هبوط من الطبقة بسبب الوقوع في الفقر، كذلك لم يكن هناك صعود بجمع ثروة، كما يمكن أن يبرهن على ذلك العربُ واليهود، الذين مهما أثروا لم يكونوا مقبولين في الدوائر المقصورة على «الخاصّة». بهذه العبارة كان يُعرِّف بنفسه من هو في أعلى الهرم الاجتماعي (معتبراً بحكم المُسلّم به، كما أعتقد، أنّ البقية «دهماء»).

نادراً ما ينتبه الأجانبُ إلى الكيفية التي يعمل بها هذا النظام الطبقيّ المثير للاستغراب، لأنّ المعاملة في كلِّ الأوساط كانت لطيفة وودّية. أسوأ نعت للعسكر الذين استولوا على السلطة في السبعينات هو «الغوغاء الثائرون». كانت خالاتي يرين أنّه لم يكن هناك ما هو أكثر قبحاً من أن يكون المرء بِنوتشياً؛ ولم يكنّ يقلن هذا كنقد للديكتاتورية، التي كنّ متفقات معها تماماً، بل كموقف طبقيّ. قليلون هم الآن من يتجرّؤون على استخدام كلمة «الغوغاء» جهراً، لأنّ وقعها مشؤوم، لكنّها على رأس لسان الغالبية. مجتمعنا مثل حلوى بألف وُريقة؛ كلُّ إنسان في مكانه وطبقته، موسوم بالولادة. كان الناس يقدّمون أنفسهم ـ وما زالوا في الطبقة العليا ـ بكنيتهم كي يحدّدوا هويّتهم ومنبتهم. عيوننا، نحن التشيليين، مدربة على تحديد الطبقة التي ينتمي إليها الشخص، من خلال مظهره الجسدي، لون بشرته وتكلّف الآداب وخاصّة الطريقة في الكلام. في بلدان أخرى تتنوّع اللهجة من مكانٍ إلى آخر، وفي تشيلي تتغيّر حسب الطبقة الاجتماعية. نستطيع عادة أن نتكهّن أيضاً على الفور بالطبقة الفرعية؛ فهناك قرابة الثلاثين طبقة فرعية، حسب مختلف مستويات الابتذال والوصولية، والتحذلق، والمال المكتسب للتو، إلخ. نعرف مثلاً الطبقة التي ينتمي إليها الشخص من المكان الذي يصطاف فيه.

إن عملية التصنيف الآلية التي نُطبِّقُها نحن التشيليين لها اسم: «التوضَع»، وهو يساوي ما تفعله الكلاب حين يشمّ بعضُها مؤخرة

بعض. منذ العام 1973، عام الانقلاب العسكري الذي غيَّر أشياءَ كثيرة في البلد، تعقّد التوضُّع قليلاً، لأنّه أيضاً يجب التكهن منذ الدقائق الثلاث الأولى من الحديث ما إذا كان المخاطب مع الديكتاتوريّة أو ضدّها. في الوقت الراهن قليلون هم الذين يعترفون بأنّهم معها، لكن في جميع الأحوال من الملائم التأكّد من الموقف السياسي لكلّ شخصٍ، قبل الإدلاء بأيّ رأي قاطع. الشيء ذاته يحدث بين التشيليين الذين يعيشون في الخارج، حيث أنّ السؤال القائم هو متى خرجت من البلد، فإذا كان قبل العام 1973، فهذا يعني أنّه يمينيّ وهرب من اشتراكية سالفادور ألليندي، وإذا خرج بين 1973 و1978 فبالتأكيد هو لاجئ سياسيّ، لكنه بعد هذا التاريخ يمكن أن يكون «منفيّاً اقتصادياً» كما يُصَنّف الذين هاجروا بحثاً عن فرص عملٍ. ومع ذلك يصعب أكثر تحديد ذلك بين الذين بقوا في تشيلي، جزئياً لأنّهم اعتادوا السكوت على آرائهم.

حوريات ينظرن إلى البحر

لا أحد يسأل المواطنَ الذي يعودُ أين كان وماذا رأى؛ ويخبرون الأجنبيَّ الذي يصلُ زائراً على الفور أنّ نساءنا أجملُ نساء العالم، وعلمَنَا فاز في مسابقةٍ دولية غامضة، وطقسَنَا مثالي. احكُمْ: فالعَلَمُ يكادُ يكون علمَ تكساس، وأبرزُ ما في طقسنا أنّه مادام هناك جفافٌ في الشمال فبالتأكيد هناك فيضانات في الجنوب. وحين أقول فيضانات أقصدُ طوفاناتٍ توراتيةً تُخَلّف وراءها ما حصيلته مئات الموتى، وآلاف المنكوبين واقتصاداً مدمّراً، لكنّها تفيدُ في دبّ الحيوية من جديد في آلية التضامن، التي عادة ما تفترُ في الأزمنة العادية. تسحرنا، نحن التشيليين، الطوارئ. الحرارة في سانتياغو أسوأ من مدريد، في الصيف نموت من الحر وفي الشتاء من البرد، لكن لا أحد عنده هواء مكيّف أو تدفئة لائقة، لأنّهم لا يستطيعون دفع تكاليفها، ثم إنّ هذا سيعني قبول أنّ الطقس عندنا ليس بالجودة التي يتحدّثون عنها. حين يُصبح الجوُّ لطيفاً فهو علامة أكيدة على أنّ هزّةً ستحدث. عندنا أكثر من ستمئة بركانٍ، بعضها ما تزال حممُ انفجاراته القديمة فاترة؛ وبعضها له أسماء مابوتشية شاعرية: بيرِبّيّان، شيطان الثلج؛ بِتروهوِهْ، مكان الضباب. تهتزّ هذه العمالقة الغافيةُ أحياناً في نومها، مطلقة هديراً طويلاً، وعندها يبدو كأنّ العالم سينتهي. يقول خبراءُ الهزات الأرضية إنّ تشيلي سوف تختفي عاجلاً أو آجلاً مطمورة في حممها أو مجرورة إلى قاع البحر بواحدة من تلك الموجات التي عادة ما ترتفع هائجة

في المحيط الهادي، لكنّني آمل ألا يفقد السياح المحتملون حماسهم، لأنّ إمكانية أن يحدث ذلك أثناء زيارتهم بالضبط أمرٌ مستبعد بما يكفي.

أما جمال المرأة فإنّه يتطلَّب تعليقاً على انفراد. إنّه غزل مثير على المستوى الوطني. الحقيقة أنّني لم أسمع قط في الخارج أنّ التشيليات مذهلات إلى هذا الحدّ، كما يؤكّد أبناء وطني اللطيفون، فهن لسن أفضل من الفنزويليات اللواتي يفزن في كلّ مسابقات الجمال الدولية؛ ولا من البرازيليات، اللواتي يختلن بمنحنياتهنّ الخلاسية على الشواطئ، هذا مع الاكتفاء بذكر مَثَلين من منافساتنا؛ لكنّ البحارة، حسب الأسطورة الشعبية، منذ أزمنة سحيقة يهربون من بواخرهم، محاصرين بالحورياتِ، طويلاتِ الشعر، اللواتي ينتظرن مترصدات البحرَ على شواطئنا. هذه المداهنة الهائلة من رجالنا هي من اللطف حيث تجعلنا نحن النساء مستعداتٍ لأنّ نغفر لهم أشياء كثيرة. كيف يمكننا أن نرفض لهم شيئاً إذا كانوا يجدوننا جميلات؟ والحقيقة، إذا كان ثمة شيء من هذا القبيل، فربّما يكون الجاذبية الناشئة عن مزيج من القوّة والغنج، الذي يندر الرجالُ الذين يستطيعون مُقاومته، حسب ما يقولون، رغم أنّه لم تكن هذه هي حالتي على الإطلاق. يحكي لي الأصدقاء أن لعبة النظرات الغرامية هي ما يولههم، لكنّني أعتقدُ أنّ هذا لم يتم اختراعه في تشيلي بل استوردناه من الأندلس.

عملت عدّة سنواتٍ في مجلّة نسائية، مرَّ عليها أكثر الموديلات طلباً، ومرشحاتُ ملكات جمال تشيلي. كانت الموديلات بشكلٍ عام من قلّة الشهية حيث أنّهنّ كنّ يبقين أغلبَ الوقت جامدات، ثابتات النظرة، مثل سلاحف، وهو ما كان جذاباً جدّاً، لأنّ أيّ رجلٍ يقف أمامهنّ يستطيع أن يتصوّر أنّهنّ ينظرن إليه مذهولات. هؤلاء الجميلات كنّ يبدين سائحاتٍ؛ يجري في عروقهنّ جميعاً، دون

استثناء، دمٌ أوروبيّ: كنّ طويلات، نحيلات، شقراوات البشرة والشعر. وهكذا ليست التشيلية النموذجية هي التي تشاهد في الشارع، إنما المرأة الخلاسية السمراء والأقرب إلى قصر القامة، وإن كان عليّ أن أعترف أنّ الأجيال الجديدة ازدادت طولاً. فشباب اليوم يبدون لي طويلين جدّاً (طبعاً طولي مئة وخمسون سنتيمتراً...)، وتكاد تكون جميع الشخصيات النسائية في رواياتي مستلهمات من التشيليات، اللواتي أعرفهنّ جيّداً، لأنّني عملتُ معهنّ ولَهُنَّ عدّة سنوات. تدهشني نساء الشعب، الناضجات، القويات، العاملات، والأرضيات أكثر من نساء الطبقة العليا، بسيقانهنّ الطويلة وشعرهنّ الأشقر. في مرحلة الشباب هُنَّ محباتٍ مغرماتٍ، بعدها يصبحن عمادَ الأسرة، أمّهاتٍ جيّدات ورفيقاتِ رجال صالحات، لا يستحقونهنّ في أكثر الأحيان. يفردن أجنحتهنّ على أولادهن وأولاد غيرهنّ وأصدقائهن وأنسبائهن وأقربائهن. يعشن متعبات، في خدمة الآخرين، مؤجّلاتٍ أمورهنّ دائماً، الأخيرات بين الأخيرين، يعملنَ بلا كللٍ ويشخنَ مبكّراً، لكنّهن لا يفقدن القدرةَ على الضحك من أنفسهنَّ، ولا الرومانسيةَ في الرغبة بأنّ يكون رفيقُهن شخص آخرَ، بينما بريق تمرّد صغير يلمع في قلوبهن. غالبيتهنّ يملكن نزعة استشهادية: فهنّ أوّل من ينهض لخدمة الأسرة وآخر من ينام؛ ويفتخرن بالمعاناة والتضحية. بكم من المتعة يتنهدن ويبكين وهنّ يحكين لبعضهن بعضاً تماديات الزّوج والأبناء!

ترتدي التشيليات ملابس بسيطة، فهن لا يكدن يلبسن غير البنطلون، وهن مسدلات الشعر ولا يستخدمن الماكياج إلاّ نادراً. جميعهن على الشاطئ أو في الحفلات متشابهات، يبدين بهلوانات. رحتُ أتصفح مجلاتٍ قديمةً، منذ نهاية الستينات وحتى اليوم، وأرى أنه بهذا المعنى لم يتبدل إلّا القليل خلال الأربعين عاماً؛ أظنّ أنّ الفارقَ الوحيد هو حجم التسريحة. ما من واحدة ينقصها «الفستان الأسود»، رديف الأناقة، الذي يرافقهنَّ، مع بعض الاختلافات القليلة، منذ سنِّ البلوغ وحتى التابوت. أحد الأسباب التي تجعلني لا أعيش

في تشيلي هو أنّه لا يوجد عندي ما أرتديه. خزانتي تحتوي من الأوشحة والريش والبرّاق أي ما يكفي لتزيين لائحة «بحيرة البجع» كاملة؛ ثمَّ إنّني صبغتُ شعري بكلّ الألوان التي في متناول الكيمياء، كما لم أخرج قط من الحمّام دون ماكياج على العينين. الحِميات المستمرة رمز الحالة الراقية بيننا، رغم أنّ الرجال الذين أجريت معهم مقابلاتٍ في عدد من الاستقصاءات، يستخدمون، كي يصفوا من يفضلون من النساء مفرداتٍ مثل «بضّة، خطوط منحنية، عندها ما تُمسك به». لا نصدِّقهم: يقولون ذلك كي يواسونا... لذلك نغطّي نتوءاتنا بصُدَيريّات طويلة أو بلوزات منشاة، بعكس الكاريبيات، اللواتي يتخطَّرْن فخورات بوفرة صدورهنّ وتقويراتها وبالبطانة اللاحقة «بالسباندِكس» البراق. وكلّما كانت المرأة أكثر مالاً كانت أقلّ أكلاً: فالطبقة العليا تتميَّز بنحولها. في جميع الأحوال الجمال مسألة موقف. أتذكّر سيّدة كان لها أنف سيرانو دي بيرجيراك(*). ونظراً لقلّة نجاحها في سانتياغو ذهبت إلى باريس، وبعد زمن قصير ظهرت مصوَّرة في ثماني صفحاتٍ ملونة في أكثر مجلات الموضة خصوصيةً، وعلى رأسها عمامة و... صورة جانبية (بروفيل)! ومنذ تلك اللحظة انتقلت تلك السيّدة من صاحبة أنف ملتصِق إلى رمز للجمال الأكثر تغنياً عند المرأة التشيلية في الزمن التالي.

يرى بعض المتهوِّرين أنّ تشيلي نظام أمومي، مخدوعين ربّما بشخصية النساء الرهيبة، اللواتي يبدين أنّهن صاحبات الكلمة في المجتمع. إنهنَّ حرّات ومنظمات، يحتفظن باسم العازبة عندما يتزوّجن، ويتنافسن في مجال العمل يداً بيد، ولا يتحكمن بالأسرة

(*) سيرانو دي بيرجيراك (1619 - 1655) كاتب مسرحي من أشهر مسرحياته موت أغريبّين، اشتهر بطول أنفه المفرط.

وحسب بل وكثيراً ما يُعلِنَّها أيضاً. هنّ أهمّ من غالبية الرجال، لكن هذا لا ينفي أنّهن يعشن في نظام أبوي بلا ملطفات. مبدئياً لا يُحترم عمل المرأة ولا فكرها، وعلينا أن نبذل جهداً مضاعفاً أكثر من أيّ رجل كي يُعترف بنا نصف اعتراف. وماذا سأقول في حقل الأدب! لكنّنا لن نتكلّم عن ذلك، لأنّ ضغطي يرتفع. يملك الرجال السلطة الاقتصادية والسياسية، التي تنتقل من واحد إلى آخر، مثل سباق الخيل، بينما النساء، ما عدا بعض الاستثناءات، يبقين مهمَّشاتٍ. تشيلي بلد ذكوري: فالهرمونات الذكورية عند النساء من البروز للعيان بحيث يبدو من المعجزة ألا ينبت الشعر في وجوههنّ.

تصدح الذكورية في المكسيك حتى في الأغاني الشعبية، لكنّها عندنا أكثر مداراة، وإن لم تكن لهذا السبب أقل ضرراً. أعاد علماء الاجتماع الأسباب إلى مرحلة الاحتلال، لكن وبما أنّها مشكلة عالمية فإنّ الجذور يجب أن تكون أقدم. ليس من العدل أن نضع الذنب كلّه على الإسبان. في جميع الأحوال سأكرِّر ما قرأته هناك. كان الهنود الأراوكانيون متعدّدي الزوجات ويعاملون النساء بكثير من القسوة؛ فعادة ما كانوا يهجرونهنّ مع أطفالهنّ وينطلقون في مجموعات بحثاً عن أراضي صيدٍ أخرى، حيث يكوِّنون زيجات أخرى وينجبون أولاداً آخرين، يتركونهم أيضاً وراءهم فيما بعد. كانت الأمهات يأخذن على عاتقهنّ تربية الأطفال كيفما استطعن، وهذه العادة التي ما تزال مستمرّة في أعماق شعبنا، وتميل التشيليات إلى قبول هجران الرجل لهنّ - وإن كن لا يملن لغفران هذا الهجران -، لأنّه يبدو لهنّ مرضاً مستوطِناً، وخاصّةً من خصائصِ طبيعة الذكر. غالبية المحتلين الإسبان من ناحيتهم لم يأتوا معهم بنسائهم، بل سافَدوا الهنديات، اللواتي كانوا يقدّرونهنّ أقل مما يقدرون الحصان بكثير. من هذه العلاقات غير المتكافئة كانت تولَد بناتٌ مُذلّات، يُغْتَصَبن بدورهنّ، وأولادٌ يخافون الأب العسكريَّ الغضوب، متقلِّب

الأطوار، مالك كلّ الحقوق، بما فيها حقّ الحياة والموت، ويوقرونه. وحين يكبرون يتماهون به، ولم يتماهوا قط مع عِرق الأم المغلوب. وصل الأمرُ ببعض المحتلين حدّ امتلاك ثلاثين محظية، دون أن تُعدّ النساء اللواتي يغتصبوهنّ ويهجرونهنّ بعد دقائق قليلة. وكانت محاكم التفتيش تمتار غضباً ضدّ المابّوتشيين، بسبب عادة تعدّد الزوجات، لكنّها تغضُّ الطرف عن حريم الهنديات الأسيرات، اللواتي كنّ يرافقن الإسبان، لأنّ مضاعفة الخلاسيين كان يعني مزيداً من الرعايا للتاج الإسباني والأرواح للدين المسيحي. من تلك العناقات العنيفة يتحدّر شعبنا؛ ورجالنا حتى يومنا هذا يتصرفون كما لو أنّهم على جواد، ينظرون إلى العالم من علٍ، يأمرون ويحتلون. نظرياً هذا ليس سيئاً، أليس كذلك؟

التشيليات متواطئات مع الفحولة: يُرَبّينَ بناتهنّ ليخدِمْنَ وأولادَهن ليُخْدَموا. بينما يناضلن من ناحية أخرى من أجل حقوقهنّ ويعملْنَ بلا كَلَلٍ، ومن ناحية أخرى يعتنين بالزوج وبالأولاد الذكور، تُساعدهنّ بناتهنّ، اللواتي يلقمنهنّ واجباتهنّ منذ صغرهنّ. طبعاً تتمرّد الفتيات الحديثات، لكن ما إن يعشقن حتى يُكَررِّنَ النموذج المُلقَّن، خالطات بين الحبّ والخدمة. يحزنني أن أرى هؤلاء الفتيات الرائعات يخدمن خطّابهن، كما لو أنهم مقعدون. فهنّ لا يضعنَ لهم الطعام في الصحن وحسب، بل ويعرضن أنفسهنّ كي يقطعن لهم اللحم. يحزنني لأنّني كنتُ مثلهنّ. منذ فترة كان هناك شخصية كوميدية في التلفزيون لاقت نجاحاً كبيراً: رجل بزيّ امرأة يُقلِّد المرأة النموذجية. كانت المسكينة إلفيرا ـ هكذا كانت تُدعى ـ تكوي، تطهو صحوناً في غاية التعقيد، تقوم بواجبات الأطفال، تُشَمّعُ أرضَ البيت بيديها وتطير، إضافة إلى ذلك، لتسوّي هندامها قبل أن يصل رجلها، كي لا يجدها قبيحة. لم تكن ترتاح أبداً وكانت

مسؤولة عن كلّ شيء. ثمّ إنّها كانت تجري في الشارع كما لو أنّها في سباق ماراتوني، ملاحقة الباص الذي يمضي فيه الزوج، كي تسلِّمه الحقيبةَ التي تركها وراءه. كان البرنامج يجعل الرجال يضحكون مُقهقهين، ويزعج النساء إلى حدّ أنّهم اضطروا إلى قطعه: لم يكنّ يحببن أن يُصَوَّرن بمثل ذلك الوفاء من قِبل إلفيرا التي لا تُخطئ.

زوجي الأمريكي، الذي يقوم بنصف الأعمال المنزلية، ينزعج من الفحولة التشيلية. فالرجل حين يغسلُ الصحن الذي استخدمه لطعامه، يعتبر أنّه «يُساعِد» زوجته أو أمّه، وينتظِر أن يُحتفى به. بين صداقاتنا التشيلية هناك دائماً امرأة تحمل الفطور في صينية إلى سرير أولادها المراهقين، تغسل ثيابهم وترتب أَسِرَّتهم. إذا لم يكن هناك مربية تقوم الأمُّ أو الأختُ بذلك، وهو ما لا يحدث أبداً في الولايات المتحدة. كما يُرعب «ويلي» نظامُ المُستخدَمة المنزلية. أُفضِّل ألاّ أحكي له أنّه عادةً ما كانت واجبات هؤلاء النسوة في عقودٍ سابقة حميميةً جدّاً، وإن لم يتحدّثوا عن ذلك أبداً. فالأمهات يغضضن الطرف، بينما الآباء يتباهون بمآثر الشاب في غرفة الخدمة. كانوا يقولون «ابن نمر» مستذكرين تجاربهم الخاصّة. الفكرة العامة كانت أنّه بالترويح عن نفسه مع الخادمة لا يتمادى مع طفلة من طبقته الاجتماعية، ثمَّ إنّه في جميع الأحوال معها في أمان أكثر مما مع عاهرة. في الريف كانت تسود رواية شعبية عن «حقِّ ضربة الساق»، الذي كان يسمح في زمن الإقطاع للسيّد بأن يغتصب الخطيبات قبل ليلة زواجهنّ الأولى، لم تكن هذه المسألة منظمة تماماً بيننا. فقد كان ربّ العمل يضاجع مِن يشاء ومتى يشاء. وهكذا زرعوا أرضهم بأولاد الزنى. عملياً هناك مناطق يحمل فيها الجميعُ الكنية ذاتها. (أحد أسلافي كان يُصلي راكِعاً على ركبتيه بعد كلّ

اغتصاب: «يا ربّ، أنا لا أضاجع رغبة أو نزوة، بل كي أعطي أولاداً لخدمتك...»). تحررت المربيات اليومَ إلى حدّ أنَّ أرباب العمل يُفَضِّلون أن يتعاقدوا من مهاجرات غير شرعيات من البيرو، ما زال باستطاعتهم أن يسيئوا معاملتهنّ كما كانوا يفعلون قبل ذلك مع التشيليات.

بالنسبة إلى التربية والنظافة فالنساء نظيرات الرجال أو يفقنهم، لكنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الفرص والسلطة والسياسة. الطبيعي في مجال العمل أن يقمن هنَّ بالعمل الثقيل، وأن يأمروا هم. قليلات هنّ اللواتي يشغلن أعلى المناصب في الحكومة، والصناعة، والمؤسّسات الخاصّة أو العامّة: إنهن يصطدمن بصخرة تمنعنهنّ من الوصول إلى القمّة. حين تصل إحداهنّ إلى مستوى عال، لنقل وزيرة في الحكومة أو مديرة في مصرف، تصبح مدعاة للاستغراب والإعجاب. ومع ذلك فالرأي العام في السنوات العشر الأخيرة تكوَّنت لديه فكرة إيجابية عن النساء، كقائدات سياسيات، يرى فيهنّ خياراً إيجابياً ممكناً، لأنّهنّ استطعنَ أن يُثبتن أنّهن نزيهات وفاعلات ومجدّات أكثر من الرجال. يااللاكتشاف! حين ينظمن أنفسهنَّ يتمكّن من ممارسة تأثير كبير، لكن يظهرن كأنّهنّ لا يعينَ قوّتهنّ الخاصّة. ظهرت هذه الحالة خلال حكومة سالفادور ألليندي، فنساء اليمين خرجن يطرقن على القدور محتجاتٍ على نقص التموين ويرمين ريش دجاج في الكلّية العسكرية، داعيات الجنود للتمرد. وهكذا ساهمن في التحريض على الانقلاب العسكري. بعد سنواتٍ كانت نساء أُخريات أوّل من خرج إلى الشارع للتنديد بقمع العسكر، مواجهاتٍ خراطيم المياه، والهراوات، والرصاص. وقد شكّلن مجموعة جبّارة، دُعِيَت نساء من أجل الحياة، لعبن دوراً أساسياً في إسقاط الديكتاتورية، لكنهنّ

قررن بعد الانتخابات حلّ الحركة. وتنازلن مرّة أخرى عن سلطتهنّ للرجال.

عليَّ أن أوضِّح أنّ التشيليات، غير العدوانيات تقريباً في الصراع على السلطة السياسية، محاربات حقيقيّات فيما يتعلّق بالحب. خطيرات جدّاً حين يكنّ عاشقات، ثمَّ إنّهنَّ، علينا أن نقول ذلك، يعشقن كثيراً جدّاً. فحسب الإحصاءات هناك ثمانية وخمسون بالمئة من النساء المتزوجات غير وفيّات. يخطر لي أنّه كثيراً ما يتقاطع الأزواج: فبينما يغري الرجل زوجة أفضل صديق، تصول زوجته نفسها وتجول في الفندق ذاته مع الصديق الطيب. في مرحلة الاستعمار كانت تشيلي تتبع نائب الملك في ليما. وصل راهب دومينيكاني من البيرو، مرسلاً من محكمة التفتيش، لاتهام بعض سيدات المجتمع بممارسة الجنس الفموي مع أزواجهنَّ (كيف تحقّق من ذلك؟). لم يتوصّل الحكم إلى أيّة نتيجة، لأنّ السيّدات المعنيات لم يسمحن بأن يُصبن بالخزي. أرسلن في تلك الليلة الأزواج، الذين ساهموا أيضاً بطريقة محرجة في الخطيئة، رغم أنّ أحداً لم يُحاكِمهم، ليثنوا قاضي محكمة التفتيش عن قراره. باغته هؤلاء في زقاق مظلم وخصوه دون أية مقدمات، كما يُخصى العجل. عاد الدومينيكاني المسكين إلى ليما دون خصيتين ولم تُطرَح المسألةُ بعد ذلك.

دون الوصول إلى هذه الحدود، أعرف صديقاً لم يكن يستطيع التخلّص من عاشقة متولهة، تركها ذات يوم نائمة وخرج هارباً. كان قد حزم بعض ممتلكاته في حقيبة ظهر وراح يجري في الشارع خلف سيّارة أجرة، بغتة شعر بدبٍّ ينقضُّ عليه من الخلف ويرمي به أرضاً على وجهه، حيث بقي مسحوقاً مثل خنفسة: تلك كانت العشيقة، التي خرجت تلاحقُه، عارية تماماً، وهي تصرخ. أطلّ الفضوليون من بيوت الحيّ ليستمتعوا بالمشهد. كان الرجال يراقبون المشهد بمرح،

لكن ما إن فهمت نساء أخريات الأمر حتى ساهمن في مهمّة الإمساك بصديقي الفار. أخيراً حمله بعضُهنّ مضطرباً وعدن به إلى السرير الذي غادره خلال القيلولة.

أستطيع أن أعطي أكثر من ثلاثمئة مثال، لكنّني أعتقدُ أنّ هذا يكفي.

متضرّعة إلى الله

ما انتهيتُ من روايته عن السيدات في العصر الاستعماري، اللواتي تحدين محاكم التفتيش، هو لحظةٌ من تلك اللحظات الاستثنائية في تاريخنا، لأنّ سلطة الكنيسة الكاثوليكية في الحقيقة مسألة غير قابلة للنقاش. والآن الحالة أسوأ بكثير، مع ذروة الحركات الأصولية الكاثوليكية مثل الأوبّوس دِيْ وجنود المسيح.

التشيليون متديِّنون وإن كانت في ممارستهم للدين من الوثنية والشعوذة أكثر بكثير مما فيها من قلق الزهد والمعرفة اللاهوتية. لا أحد يقول عن نفسه ملحداً، ولا حتى الشيوعيين على سنّ الرمح، لأنّ هذه الكلمة تعتبر شتيمة، يُفضّلون كلمة غنوصي. غالباً ما يتوبُ على فراش الموت حتى أقلّ الناس إيماناً، ذلك أنّهم يخاطرون كثيراً إن لم يفعلوا؛ ثمَّ إنّ الاعتراف في الساعة الأخيرة لا يضرّ أحداً. هذا الدافع الروحي مصدره الأرض ذاتها: إنّ شعباً يعيش بين الجبال، يلتفت عملياً بعيونه إلى السماء. ومظاهر الإيمان مدهشة. يخرج العسكر وآلاف الشبان بدعوة من الكنيسة في مواكب طويلة، يحملون الشموع والأزهار، يمدحون مريم العذراء أو يطلبون السلام بأعلى أصواتهم، بالحماس ذاته الذي يصرخ به الناس في بلدان أخرى في حفلات الروك. صلاة السبحة في الأسرة وشهر مريم عادة ما يلقيان نجاحاً منقطع النظير، لكنّ المسلسلات التلفزيونية الآن كسبت أتباعاً أكثر.

طبعاً لم تخلُ أسرتي قط من باطنيين. فقد أمْضى أحدُ أخوالي سبعين سنة يدعو إلى اللقاء مع العدم؛ وكان له أتباع كثيرون. لو أنّني أوليته في شبابي اهتماماً ما كنتُ أدرس الآن البوذية، وأحاول عبثاً أن أقف في درس اليوغا على رأسي. تلك الخالة المئوية المعتوهة، المموّهة بزيّ راهبة، التي حاولت أن تُصلح عاهرات شارع مايبّو، لم تصل في مسألة القداسةِ إلى كعبِ أخت جدّي، التي نبتت لها أجنحة. لم تكن أجنحة من ريش نوراني، كما عند ملائكة عصر النهضة، التي كانت ستلفت الانتباه، بل جدعتان صغيرتان ظريفتان على الكتفين، شُخِّصتا خطأً من قبل الأطباء على أنّهما تشوّه في العظام. أحياناً كان باستطاعتنا، حسب مسقط الضوء، أن نرى الهالة مثل طبق من نور يطفو فوق رأسها. وقد رويتُ قصّتها في «حكايات إيفا لونا»؛ ولا تسمح الحالة هنا بإعادة روايتها، إذ يكفي أن نقول إنّه وبالتناقض مع نزعة الشكوى من كلّ شيءٍ المُعَمَّمة، والمميّزة لكلّ التشيليين، كانت تمضي دائماً سعيدةً، رغم أنّها لاقت مصيراً مأساوياً. ما كان لِيُغفَر موقف السعادة غير المبررة هذا في شخص آخر، لكنّه كان مسموحاً على أفضل وجه عند تلك المرأة الشفافة. دائماً كانت صورتها فوق طاولة عملي، كي أتعرَّف عليها حين تدخل مواربة في صفحات كتاب، أو تظهر لي في إحدى زوايا البيت.

في تشيلي يكثر القديسون من مختلف الأنواع، وهو ليس أمراً غريباً، لأنّه أكثر بلدان العالم كاثوليكيةً، أكثر من إيرلندا، وبالتأكيد أكثر من الفاتيكان. منذ سنواتٍ كان لدينا فتاة تُشبه في مظهرها تمثال سِباستيان الشهيد، تقوم بأعمال شفاء ملحوظة. انهالت عليها الصحافةُ، والتلفزيون، وحشودُ الحجاج الذين لم يتركوها ساعةً بسلام؛ وعندما فُحصت عن قرب تبيّن أنّها متنكّرة، لكنّ على العكس، فهذا لم ينقص من مكانتها ولم يضع نهاية للمعجزات. فكلّ فترة

نستيقظ على إعلان بأنّ قديساً آخر أو مسيحاً جديداً قد ظهر، وهو ما يشدّ دائماً الحشود المؤمَّلة. كان من نصيبي أن أقومَ بتحقيقٍ صحافي في السبعينات حين كنتُ أعملُ صحافيةً، عن حالة فتاة تُعزى لها نبوءاتٌ وموهبة شفاء الحيوانات وتصليح محركاتٍ مفكَّكة دون أن تلمسها. كان الكوخُ المتواضِع الذي تعيش فيه يمتلئ بالفلاحين الذين يأتون إليها كلّ يوم، في الساعة ذاتها لحضور تلك المعجزات الحصيفة. وكانوا يؤكِّدون أن مطراً من حجارة ينهمرُ متشظياً بخشخشة نهاية العالم على سقف الكوخ، فتهتزّ الأرضُ وتسقط الفتاة في غيبوبة. حالفني الحظ بحضور حادثين من تلك الحوادث، وتأكّدت من الغيبوبة التي تُحرز القديسة خلالها قوّةَ مُجالِدٍ خارقة، لكنَّني لا أتذكر أنَّ حجارة سقطت من السماء ولا أنّ أرضاً اهتزّت. من المحتمل، كما وضّح أحد إنجيليي المنطقة، أنّ ذلك لم يحدث بسبب وجودي هناك. فقد كنتُ كافرة، قادرة على تخريب أكثر المعجزات شرعية. في جميع الأحوال ظهرت الحالة في الصحافة، وراحت نبرةُ الاهتمام بالقديسة ترتفع إلى أن حضر الجيش ووضع لها حدّاً على طريقته. أفادتني القصّة بعد عشر سنوات لإدخالها في إحدى رواياتي.

الكاثوليكون أغلبيةٌ في البلد، رغم أنّ الإنجيليين والحصاديين هم في كلّ مرّة أكثر، ويُثيرون كلّ الناس، لأنّهم يتفاهمون مع الربّ مباشرة، بينما على البقيَّةِ أن يمروا عبر البيروقراطية الكهنوتية. المورمونيون، الكثيرون والأقوياء جداً، يُساعدون أتباعَهم مثلَ وكالة توظيف حقيقية، تماماً كما كان يفعل قبلهم أتباع الحزب الراديكالي. البقيّة يهود وقليل من المسلمين وروحانيون من أبناء جيلي من المرحلة الجديدة وهي خليط من البيئيّة، والمسيحيّة، والتمارين البوذية، وعدد من الطقوس المُنقَذة توّاً من الاحتياطيّ المحلي، والتي يرافقها عادة الغورو والفلكيون والنفسانيون

ومرشدو أرواح آخرون. ومنذ أن خُصْخِص نظامُ الصحة وصارت الأدوية تجارة غير أخلاقية حلّت الأدوية الفولكلورية والشرقية، والأطباء الشعبيون أو ميكاس، الشامانيون الأصليون، والعشبيون من السكان الأصليين، والتطبيب بالمعجزات حلّت جزئيّاً محل الطبِّ التقليدي، وتعطي نتائج مماثلة. نصف أصدقائي هم بين يدي طبيب نفساني يُوَجِّهُ مصيرهم ويحافظ عليهم أصحاء، يغسل إحساسهم، يضع يديه على رؤوسهم أو يقودهم في أسفار فلكية. المرّة الأخيرة التي كنتُ فيها في تشيلي نوّمني مغناطيسيّاً صديقٌ لي، يدرس الطبَّ الشعبي، وجعلني أعود عدّة أجيال إلى الوراء. لم تكن العودة إلى الحاضر سهلةً، لأنّ صديقي لم يكن قد أنهى دورته الدراسية بعد، لكنّ التجربة استحقّت المعاناة، لأنّني اكتشفتُ أنّني لم أكن في الأجيال السابقة جنكيزَ خان كما كانت تعتقد أمّي.

لم أتمكّن من أن أنفض عنّي الدين كلّياً، وأوّلُ ما يخطر لي أمام أيّ مأزق هو الصلاة، فعسى ولعلّ، كما يفعل جميع التشيليين، بمن فيهم الملحدون، عفواً، الغنوصيون. فلنقل إنّني بحاجة إلى سيّارة أجرة، التجربة برهنت أنّه تكفي صلاة أبانا كي تجعلها تظهر. مرّت مرحلة بين الطفولة وسن الخامسة عشرة، غذّيت فيها خيال أن أصبح راهبة، كي أخفي مسألة أنّني بالتأكيد لن أحصل على زوج، الفكرة التي لم أستبعدها، فما زال يراودني إغواء أن أنهي أيّامي في فقر وصمت وعزلة أخوية بِندِكينية أو في دير هندوسي. لا تهمّني الفطنة اللاهوتية، فما أحبّه هو طريقة الحياة. رغم طيشي فإنّ حياة الدير تبدو لي جذّابة. في الخامسة عشرة من عمري ابتعدت نهائيّاً عن الكنيسة واكتسبتُ رعباً من الأديان بشكل عام ومن التوحيديين بشكل خاص. لست وحدي في هذه المقولة، فنساء كثيرات من عمري، محاربات من أجل تحرُّر المرأة، هنّ أيضاً لا يشعرن بالراحة للأديان الأبوية ـ هل من واحد منها ليس كذلك؟ ـ وكان عليهنّ أن

يخترعن طقوسهنّ الخاصّة، وإن كان لها في تشيلي دائماً صبغة مسيحية. مهما قال المرءُ عن نفسه أنّه روحاني فهناك دائماً صليب في بيته، أو معلّق على صدره. ديني، إن كان هذا يهمّ أحداً، يقتصر على سؤال بسيط: «ما الشيء الأكرم الذي يمكن فعله في هذه الحالة؟» إذا لم ينطبق هذا السؤال فعندي آخر: «ماذا يُفَكّر جدّي حول هذا؟». وهو لا ينفي أنّني في ساعة الحاجة أرسم الصليب.

كنتُ أقول عادةً أنّ تشيلي بلدٌ أصولي، لكنّني بعد أن تأكّدت من شطط طالبان، عليّ أن أعدِّل من حكمي. ربّما لسنا أصوليين، لكنّ ما ينقصنا من أجل ذلك قليل. حالفنا الحظّ، هذا صحيح، بأنّ الكنيسة الكاثوليكية كانت، بعكس ما يجري في بلدان أمريكية جنوبية أخرى، ـ مع بعض الاستثناءات القليلة المؤسفة ـ إلى جانب الفقراء، وهو ما أكسبها احتراماً هائلاً وتعاطفاً. في زمن الديكتاتورية أخذ كثيرٌ من الرهبان والراهبات على عاتقهم مهمّة مساعدة ضحايا القمع ودفعوا الثمن غالياً. كما قال بِنوتشيت في العام 1979، «الوحيدون الذين يتباكون على استعادة الديمقراطية هم السياسيون وراهب أو راهبان». (تلك كانت المرحلة التي تمتع فيها التشيليون، حسب رأي الجنرالات بـِ «ديمقراطية شمولية»).

الكنائس تمتلئ أيّام الآحاد والبابا مُبجَّلٌ رغم أنّ أحداً لا يعيره اهتماماً في موضوع موانع الحمل، لأنّه ينطلق من قاعدة أنّ عجوزاً متبتلاً لا يحتاج لأن يتعب في حياته، لا يمكنه أن يكون خبيراً في هذه المسألة الدقيقة. الدين متنوّع وطقسي. ليس لدينا كرنفالات، بالمقابل لدينا مواكب دينية. فكلّ قدّيس يتميّز باختصاصه، مثل آلهة الأولمبياد: يعيد البصر إلى العميان، يعاقب أزواجاً غير مخلصين، يعثر على الخطيب، يحمي سائقي السيارات؛ لكنّ أكثرهم شعبية هو ولا شكّ الأب هورتادو، الذي لم يُصبِح قديساً بعد، لكنّنا جميعاً نأمل

أن يُصبح كذلك سريعاً، رغم أنّ الفاتيكان ليس مشهوراً بسرعة اتخاذ القرارات. هذا الراهب الرائع أسّس عملاً أسماه بيت المسيح، والذي أصبح اليوم مؤسسة مليونيرية مكرّسة بالكامل لمساعدة الفقراء. الأب هورتادو من المعجزة بحيث أنّني ما طلبتُ منه مرّة شيئاً إلا ونفّذه، مقابل دفع مبلغ عادل لأعماله الخيرية أو مقابل تضحية ما مهمّة. لا بدّ أنّني واحدة من الأشخاص الأحياء القليلين الذين قرؤوا مجلدات ملحمته الخالدة «أراوكانا»، كاملة، وهي شعر مقفى وبإسبانية قديمة. لم أفعل ذلك فضولاً ولا للتباهي بأنّني مثقفة، بل تنفيذاً لعهدٍ قطعته للأب هورتادو. كان هذا الرجل ذو القلب الصافي يؤكّد أنّ الأزمة الأخلاقية تحدث عندما يذهب الكاثوليكيون أنفسهم الذين يعيشون في الوفرة إلى القدّاس، بينما ينكرون على عمالهم الرواتب المستحقة. كان يجب أن تنقش هذه الكلمات على الأوراق النقدية من فئة الألف بيزو، كيلا تُنسى أبداً.

هناك أيضاً صور متعدّدة للعذراء مريم، متنافسة فيما بينها، فالمخلصون لعذراء الكرمل، قديسة القوات المسلحة، يعتبرون عذراء لوردِس أو عذراء تيرانا أدنى مستوى، وهو الشعور الذي يُدفع برقة مساوية من أتباعهما المتعبّدين. جدير بالذكر بالنسبة إلى هذه الأخيرة، أنّه يُحتفل بعيدها صيفاً في معبد قريب من مدينة أيكيكِ، في الشمال، حيث ترقص مجموعات المتعبّدين على شرفها. وهذا ما يشبه قليلاً فكرة الكرنفال البرازيلي، لكن مع التحفّظ على الحجم، لأنّنا في تشيلي، كما قلت من قبل، لسنا فاسقين. مدارس الرقص تستعد طوال العام بالتمرن على الرقصات وصناعة الألبسة، وفي اليوم المشهود يرقصون أمام عذراء تيرانا مقنّعين مثلاً بزيّ باتمان. ترتدي الفتيات فساتين مقوّرة موحية، وتنانير قصيرة لا تكاد تُغطّي مؤخراتهنّ وجزمات عالية الكعب. لم يكن غريباً، بالتالي، ألا تُسهِّل الكنيسةُ هذه المظاهر من الإيمان الشعبي.

وإذا كانت لائحة القديسين العديدين والمتنوعين لا تكفي، فإنّنا نتمتع بتراثٍ شفوي لذيذٍ لأرواح شريرة وتدخلات شيطانية، وأموات ينهضون من قبورهم. كان جدّي يُقسِم أنّ الشيطان ظهر له في حافلة وأنّه تعرّف عليه، لأنّ له ساقي فحل ماعز خضراوين. تروى في تشيلوِ، وهي مجموعة جزر في جنوب البلد، مقابل ميناء مونت، قصصُ سحرة ومسوخ أشرار، عن بينكويا، العذراء الجميلة التي تخرج من الماء كي توقع بالرجال الغافلين عن الكالِوْتشِ، السفينة المسحورة التي تحمل الموتى. في ليالي البدر تلمع أنوار تدلّ على الأماكن التي تحتوي على كنوز مخبّأة. يقولون إنّه قامت في تشيلوِ لزمن طويل حكومة من السحرة، تدعى بالمقاطعة المستقيمة، كانت تجتمع ليلاً في الكهوف. حراس هذه الكهوف هم «الإمبوتشيون» المخلوقات المرعِبة التي تتغذّى على الدم، فكسرَ السحرة عظامهم وخاطوا أجفانهم وشروجهم. الخيال التشيلي بالنسبة للأمور المرعبة لم يكفّ عن دب الرعب في نفسي...

تشيلوِ تملك ثقافة مختلفة عن بقيّة البلد والناس فيها فخورون بعزلتهم، حتى أنّهم يرفضون بناء جسر يربط الجزيرة الكبيرة بميناء مونت. إنّه مكان من الروعة حيث يجب على جميع التشيليين والسيّاح زيارته ولو مرّة واحدة فقط، ولو بمخاطرة البقاء هناك للأبد. يعيش التشيلوِيون كما كانوا يعيشون قبل مئة عام، مكرّسين أنفسهم للزراعة والصيد اليدوي وصناعة السلمون. الأبنية كلها من الخشب، وفي قلب كلّ بيت توجد دائماً مدفأة حطب مشتعلة ليلاً ونهاراً للطهي وتدفئةِ الأسرة، والأصدقاء والأعداء مجتمعون حولها. رائحة هذه المساكن في الشتاء ذكرى لا تمحي: حطب معطّر ومتأجّج، صوف مبلل، حساء في القدر... التشيلوِيون كانوا آخر من خضع للجمهورية، حين أعلنت تشيلي استقلالَها عن إسبانيا، وحاولوا في العام 1826 الانضمام إلى التاج البريطاني. يُقال إنّ لا

رِكتا بروبينثيا(*)، المعزوة للسَحَرة، كانت في الحقيقة حكومة موازية، في أزمنة كان السكان يرفضون فيها قبول سلطة الجمهورية التشيلية.

لم تكن جدّتي إيزابيل تؤمن بالساحرات، لكنّني لا أستغرب أن تكون قد حاولت ذات مرّة أن تطير على مكنستها، لأنّها قضت حياتها وهي تمارس ظواهر خارقة، محاولةً الاتصال مع الماوراء، هذا النشاط الذي كانت تنظر إليه الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأيام بعين السوء تماماً. تدبَّرت السيّدةُ الطيبة، بطريقة ما، أمرَها كي تجذب إليها القوى الغامضة، التي كانت تُحرِّكُ الطاولة في جلسات تحضير الأرواح. هذه الطاولة موجودة اليوم في بيتي، بعد أن دارت العالمَ عدّة مرّاتٍ، تابعةً زوج أمّي في دورته الدبلوماسية، وضاعت خلال سنوات المنفى. استعادتها أمّي بضربة مكر وأرسلتها إليّ بالطائرة إلى كاليفورنيا. كان أرخص لها لو أنّها أرسلت إليَّ فيلاً، لأنّ الأمر يتعلّق بأثاث إسباني من الخشب المحفور، له قائمة رهيبة في الوسط، مؤلفة من أربعة أسود ضارية. تحتاج إلى ثلاثة رجال كي يرفعوها. لا أدري ما هي الحيلة التي كانت تقوم بها جدّتي كي تجعلها ترقص في الغرفة لامسة إيّاها بسبّابتها. لقد أقنعت هذه السيّدة أخلافها بأنّها ستأتي بعد موتها لتزورهم حين يستدعونها، وأعتقد أنّها حافظت على وعدها. لا أتبجّح بأنّ شبحها، أو أيّ شبح آخر يرافقني يومياً ـ أفترضُ أنّ لديها مسائل أهمّ عليها أن تهتمّ بها ـ، لكنّ فكرة أنّها مستعدة للمثول في حال الحاجة الماسّة إليها تُعجبني.

كانت هذه المرأة الطيِّبة تؤكّد أنّنا جميعاً نملك قوى نفسية،

(*) La Recta Provincia المديرية القويمة.

لكنّنا لا نمارسها، فتضمر ـ مثل العضلات ـ وتختفي في النهاية. عليّ أن أوضِّح أنّ تجاربها التخاطرية لم تكن يوماً نشاطاً مشؤوماً. لاتوجد غرف مظلمة، ولا قناديل جنائزية، ولا موسيقى أرغن كما في ترنسيلفانيا. إنّ التخاطر، والقدرة على تحريك الأشياء دون لمسها، وبعد البصيرة أو الاتصال بالأرواح الماورائية، كان يحدث في كلّ لحظة من النهار وبأكثر الطرق عرضية. مثلاً لم تكن جدّتي تثق بالهواتف، التي بقيت في تشيلي كارثةً إلى أن اختُرِع الخليوي، بالمقابل كانت تستخدم التخاطر كي تملي وصفات حلوى التفاح على الأخوات مورلا الثلاث، رفيقات أخويتها البيضاء، اللواتي كنّ يعشن على الجانب الآخر من المدينة. لم يستطيعوا قط أن يتحقّقوا مما إذا كان النظام يعمل لأنّ الأربعة كنّ طاهيات سيّئات جدّاً. كانت الأخويّة البيضاء مكوّنة من هؤلاء السيدات الأربع وجدّي، الذي لم يكن يؤمن بشيء من هذا، لكنّه يصرُ على مرافقة زوجته ليحميها في حال الخطر. كان الرجل شكاكاً بطبيعته، ولم يقبل قط إمكانية أن تُحرّك أرواحُ الموتى الطاولة؛ لكن حين ألمحت زوجتُه إلى أنّها قد لا تكون أرواحاً، بل كائنات غير أرضية، تبنّى الفكرة بحماسة، لأنّها بدت له تفسيراً أكثر علمية.

لا شيء مستغرب في هذا كلّه. فنصف تشيلي تستهدي بالأبراج والعرّافات أو بتنبؤات «آي تشاين» المبهمة، والنصف الآخر يُعلّق زجاجاً إلى عنقه أو يدرس «فِنجِشوي». في العيادة العاطفية في التلفزيون يحلون المشاكل بورق لعب تاروت. أغلبية ثوار اليسار القدماء متفرّغون الآن للممارسات الروحانية (بين رجال حرب العصابات والباطنية، توجد خطوة جدلية لا أتمكن من تحديدها). جلسات جدّتي تبدو لي أكثر عقلانية من نذور القديسين، شراء الرحمة من أجل كسب السماء، أو الحجّ إلى أماكن الورعات في حافلاتٍ مزدحمة بالناس. سمعتهم مرّاتٍ كثيرةً يقولون إنّ جدّتي

كانت تُحَرِّك السكّرية دون أن تلمسها، بمجرّد قوّة عقلية. أظنُّ أنّني رأيت هذه المأثرة ذات مرّة، أو أنّني من كثرة ما سمعتهم يحكونها انتهيت إلى الاقتناع بأنّها صحيحة. لا أتذكّر السكّرية، لكن يبدو أنّه كان هناك جرس فضّيّ صغير، وعليه أمير مخّنث، ويُستَخدَم في غرفة الطعام لاستدعاء الخدم بين صحن وآخر. لا أدري ما إذا حلمتُ بالحادث، أم أنّني اخترعته، أم أنّه حدث فعلاً: أرى الجرسَ ينزلق على الغطاء بصمت، كما لو أنّ الأميرَ استعاد حياته، يدور دورة أولمبية أمام خوف الندماء، ويعود إلى جانب جدّتي على رأس الطاولة. هذا ما يحدثُ لي مع حوادث ونوادر كثيرة في حياتي، يبدو لي أنّني عشتها، وحين أكتبها وأقارنها بالمنطق تبدو لي غير محتملة، لكنّ المشكلة لا تُقلِقني. ما همّ أن تكون قد حدثت في الواقع أو أنّني تخيَّلتها؟ في جميع الأحوال الحياة حلم.

لم أرث قوى جدّتي النفسية؛ لكنّها فتحت عقلي على ألغاز العالم. أعترف أنّ كلّ شيء ممكن. هي كانت تؤكّد أنَّ هناك أبعاداً متعدّدة للواقع، وليس من الحكمة الوثوق بالعقل وبحواسّنا المحدودة فقط لفهم الحياة؛ هناك أدوات أخرى للإدراك، كالغريزة والخيال والأحلام، والعواطف والحدس. أدخلتني في الواقعية السحرية قبل أن تظهر موضة ما سمّي بانفجار أدب أمريكا اللاتينية بكثير. وهذا ما أفادني في عملي، لأنّني أواجه كلَّ كتابٍ بالمعيار ذاته الذي كانت تدير به جلساتها: مستدعية الأرواح برقّة، كي تحكي لي عن حياتها. الشخصيات الأدبية، مثل أشباح جدّتي، كائنات هشّة وخائفة يجب معاملتها بحكمة كي تشعر بالراحة في الصفحات.

أشباح، طاولات تتحرَّك وحدها، قديسو معجزات وشياطين بأرجل خضراء في وسائل النقل الجماعي تجعل الحياة والموت أكثر أهمية. الأرواح المعذبة لا تعرف حدوداً. لي صديق في تشيلي

يستيقظ في الليالي على زيارة بعض الأفريقيين الطوال والناحلين، يرتدون العباءات ويتسلحون بالرماح، ولا يستطيع أحد أن يراهم غيره. زوجته التي تنام إلى جانبه لم ترَ الأفارقةَ قط، فقط رأت سيّدتين إنكليزيتين من القرن التاسع عشر تجتازان الأبواب. وصديقة أخرى لي، كانت الثريات تسقط في بيتها في سانتياغو وتنقلب الكراسي بشكل غامض واكتشفت أنَّ السبب هو عظام جغرافي دانمركي، أخرجوه من قبره في فناء الدار مع خرائطه ودفتر ملاحظاته. كيف وصل الميت المسكين إلى هذا المكان البعيد؟ لن نعرف ذلك أبداً، لكن بتلاوة عدّة صلوات تساعية، وبترديد عدّة قدّاسات ذهب الجغرافي المسكين. يبدو أنّه كان في حياته كالفينياً أو لوثرياً ولم تعجبه الطقوس البابوية.

كانت جدّتي تؤكِّد أن الفضاء مليء بالأشباح من الأموات والأحياء، مختلطين جميعاً. إنّها فكرة رائعة، لذلك بنينا أنا وزوجي بيتاً كبيراً عالي الأسقف بدعامات وأقواسٍ، كي يجذبَ أشباحَ عصورٍ ودرجاتِ عرضٍ مختلفة، خاصّة الجنوبية منها. إنّها محاولة لتقليد بيت أبوي جدي، خربناه بوساطة الانقضاض الشديد والباهظ التكلفة بالمطارق على الأبواب، وبتلطيخ الجدران بالدهان وتصدئة الحديد بالأسيد، ودعقِ نباتات الحديقة. النتيجة مقنعة كفاية؛ أظنّ أن أكثر من روحٍ غافلة يمكن أن تُقيم بيننا، مخدوعة بمظهر البيت. خلال عملية إضفاء قِدم القرون عليه كان الجيران يراقبوننا من الشارع فاغري الأفواه، دون أن يفهموا لماذا نبني بيتاً جديداً إذا كنّا نريده قديماً. السبب هو أنّه لا يوجد في كاليفورنيا الطراز الاستعماري التشيلي، وفي جميع الأحوال لا شيء قديم في الواقع. يجب أن لا ننسى أنَّ سان فرانسيسكو لم تكن موجودة قبل عام 1849، وكان يوجد مكانها ضيعة تسمى جِيربا بوِنا(*) تقطنها حفنة من

(*) نعناع.

المكسيكيين والمورمونيين، وزوارها الوحيدون تجّار الجلود. حمى الذهب هي التي جذبت إليها الحشود. إنّ بيتاً له مظهر بيتنا أمرٌ تاريخي محال في هذه المناطق.

مشهد الطفولة

من الصعب جدّاً أن أحدّد كيف هي الأسرة التشيلية النموذجية، لكنّني أستطيع القول، دون أن أخاف الوقوع في الخطأ، بأنّ أسرتي لم تكن كذلك. كما لم أكن، أنا نفسي، آنسةً تشيلية نموذجية، حسب قوانين الوسط الذي ترعرعتُ فيه؛ فقد هربت نظيفةً(*)، كما يمكن أن يُقال. سأصف شبابي قليلاً لأرى ما إذا كنتُ بهذه الطريقة سأُلقي الضوءَ على بعض جوانب مجتمع بلدي، الذي كان في ذلك الوقت أقل تسامحاً منه الآن، وهذا يعني الكثير. كانت الحرب العالمية الثانية كارثة هزّت العالمَ وبدّلت كلَّ شيء، بدءاً من الجغرافيا السياسية والعلوم، وحتى العادات والثقافة والفن. أفكار جديدة كَنَّسَتْ دون تروٍّ تلك التي سبقتها وقام عليها المجتمع خلال القرون السابقة، لكنّ التجديدات كانت تتأخّر كثيراً في إبحارها عبر محيطين، أو اختراقها لجدار جبال الأند العصية. كلُّ شيء كان يصل إلى تشيلي متأخّراً عدّة سنوات.

توفِّيت جدّتي البصيرة فجأةً هابيضاضِ الدم. لم تصارع من أجل الحياة، استسلمت للموت بحماسٍ، لأنّها كانت تشعر بفضول كبير لرؤية السماء. حالفها الحظُّ خلال وجودها في هذا العالم بأنْ لاقت حبَّ ورعايةَ زوجها الذي تحمّل بذكاءٍ حسنٍ غرابةَ أطوارها،

(*) في النص مُصَوْبَنَة.

ولولا ذلك ربّما انتهت محبوسة في مأوى المجاذيب. قرأتُ بعضَ رسائلها التي تركتها بخطِّ يدها، حيث تبدو امرأةً كئيبة، مفتونة بالموت بشكلٍ مرضيٍّ، ومع ذلك أتذكرها كامرأة وهّاجة، ساخرة ومفعمة بحبّ الحياة. شعرنا بغيابها كأنّه ريح كارثة. دخلَ البيتُ في حزنٍ وتعلَّمتُ الخوف. صرتُ أخاف الشيطانَ، الذي يظهر في المرايا، الأشباحَ التي تطوف في الزوايا، الجرذانَ في القبو؛ أخافُ أن تموت أمّي وأنتهي إلى مأوى أيتام، أو أن يظهرَ أبي ـ ذلك الرجل الذي لا يمكن لفظ اسمه ـ ويحملني بعيداً، أن أرتكب آثاماً وأذهب إلى الجحيم، أخاف الغجريات والغيلان الذين كانت تُهدِّدني بهم المربية؛ أخيراً كانت اللائحة لا نهائية، فقد كان هناك فائض من الأسباب كي أعيش مذعورة.

ارتدى جدّي، الحانقُ لرؤيته أنّ حبَّ حياته العظيم قد هجره، السوادَ من رأسه وحتى أخمص قدميه؛ طلى أثاث البيت باللون ذاته ومنع الاحتفالات والموسيقى والأزهار والحلوى. راح يقضي نهاره في المكتب، يتناول غداءه في المركز، وعشاءه في نادي الوحدة، ويلعبُ الغولف والكرة الباسكية في نهاية الأسبوع، أو يذهب إلى الجبل للتزلّج. هو من بدأ هذه الرياضة في زمنٍ كان الصعود فيه إلى مناطق التزلّج ملحمة تساوي تسلّق إفِرست؛ ولم يتصوّر قط أن تشيلي ستتحوّل إلى كعبةِ الرياضات الشتوية، حيث تتدرّب فيها فرقُ العالم الأولمبية كلها. كنّا لا نراه إلا لحظةً في الصباح الباكر، ومع ذلك كان حاسماً في تربيتي. كنّا أنا وأخوتي نذهب لنسلِّم عليه قبل أن نذهب إلى المدرسة، فيستقبلنا في غرفته ذات الأثاث الجنائزي، التي تفوح منها رائحةُ صابون إنكليزي، ماركة لايفبوي. لم يداعبنا قط ـ كان يعتبر المداعبة وخيمةً ـ لكنّ كلمةَ موافقةٍ منه تستحقّ كلَّ جهد. فيما بعد، وفي قرابة السابعة من عمري، حين بدأتُ أقرأ الصحيفة وأسأل لاحظ حضوري، وعندئذٍ بدأت علاقةٌ ستستمر إلى ما بعد

موته بكثير، لأنّني ما أزال حتى اليوم أحملُ آثارَ يديه في مزاجي وأتغذّى من النكات التي حكاها لي.

لم تكن طفولتي بهيجة، لكنّها نعم، كانت مهمّة. لم أكن أملّ بفضل كتبِ الخال بابلو، الذي كان ما يزال عازباً ويعيش معنا. كان قارئاً مفرطاً، وتتكدّس مجلدات كتبه على الأرض، يعلوها الغبار والعنكبوت؛ يسرقُ الكتبَ من المكتبات، ومن أصدقائه، دون تأنيب ضمير، لأنّه كان يعتبر كلَّ مادّة مطبوعة ـ ما عدا مادّته ـ ميراثاً للإنسانية. سمح لي بقراءتها لأنّه قرّر أن ينقل إليّ عيبَ القراءة بأيِّ ثمن: أهداني دميةً حين انتهيتُ من قراءة الحرب والسلم، وهو كتاب سميك بأحرف صغيرة. لم يكن يوجد في بيتي رقابة، لكنَّ جدّي لم يكن يسمح بالأنوار المضاءة في غرفتي بعد التاسعة ليلاً؛ ولذلك أهداني خالي بابلو مصباحاً يدوياً. أفضل ذكريات تلك السنوات هي الكتب التي قرأتُها على ضوء مصباح البطارية تحت الملاحف. كنّا نقرأ، نحن الأطفال التشيليين، روايات إميليو سالْغاري وخوليو برنِ، كنز الشباب ومجموعة روايات مؤسِّسة تحثُّ على الطاعة والنقاء كفضيلتين قصويين؛ وكذلك مجلّة «إلْ بِّنِكا»، التي كانت تصدر يوم الأربعاء من كلّ أسبوع. كنتُ أنتظرها أمام الباب منذ الثلاثاء، كي أمنع وقوعها في أيدي أخوتي قبل يديَّ؛ فألتهمها كمقبلات، بعدها ألتهم بسرعة صحوناً مغذّية، مثل آنا كارنينا والبؤساء، وكتحلية أتلذّذ بحكايات الجان. لقد سمحت لي هذه الكتب الرائعة أن أهرب من واقع ذلك البيت الجنائزي الأقرب إلى البخل، حيث كنّا نحن الأطفال، نُزعِج مثل القطط.

أمّي التي تحوّلت إلى عازبة شابّة، بفضل تمكّنها من إلغاء زواجها وعيشها في كنف أبيها، كان لها بعض المعجبين، أقدّرهم بدزينة أو دزينتين. وكان لها، إضافة إلى أنّها حسناء، مظهر فتيات

أيّام زمان الأثيري والحساس، الذي ضاع تماماً في هذه الأزمان التي ترفع فيها النساء الأثقال. بدت هشاشتُها جذّابة جدّاً، لأنّه حتى أكثر الرجال سقماً كان يشعر بنفسه قويّاً إلى جانبها. كانت واحدة من تلك النسوة اللواتي يرغب المرء بأن يحميهنّ، بعكسي تماماً، أنا الدبابة في عزّ سيرها. وبدل أن ترتدي السواد وتبكي لهجران زوجها الطائش، كما كان يُتوقَّع منها، حاولت أن تتسلى قدر استطاعتها، التي كانت في حدودها الدنيا، لأنّه لم يكن باستطاعة النساء أن يذهبن إلى صالونات الشاي وحيداتٍ وأقل من ذلك إلى السينما. كانت الرقابة تُصنِّف الأفلامَ التي تنطوي على بعض الأهمية: «لا يُنصح بها للآنسات» وهو ما كان يعني أنّهنّ لا يستطعن مشاهدتها إلا برفقة رجال الأسرة، الذين يتحملون مسؤولية الأذى الأخلاقي التي يمكن أن يثيرها الفيلم في نفس الأنثى المرهفة. احتُفِظ ببعض صور تلك السنوات، التي تظهر فيها أمّي كأخت صغرى للممثلة إيفا غاردنِر. كان لها جمال لا صنعة فيه: بشرة برّاقة، ابتسامة سهلة، تقاسيم كلاسيكية وأناقة طبيعية فائقة، وهي أسباب كافية كيلا تتركها ألسنة السوء بسلام. وإذا كان الطامحون بها من الأفلاطونيين يخيفون مجتمع سانتياغو المنافق، فتصوّر الفضيحة التي قامت حين علموا بحبّها لرجل متزوِّج وأبٍ لأربعة أولاد وحفيد مطران!

اختارت أمّي من بين المرشَّحين الكثُر، أقبحهم. فـ رامون هويدوبرو كان يبدو ضفدعاً أخضر، لكنّه تحوّل مع قبلة الحبّ إلى أمير، كما في الحكاية، وأستطيع أن أقسِم الآن أنّه وسيم. دائماً كان هناك علاقات سرّيّة، ونحن التشيليين خبراء في هذا، لكنّ هذه الرومانسية لم يكن فيها شيء من السرّية وسرعان ما تحوّلت إلى سرّ مكشوف. أمام استحالة إقناع ابنته أو منع الفضيحة قرّر جدّي أن يقطع الطريق على الحالة وجاء بالعشيق ليعيش تحت سقفه،

مُتَحدِّياً المجتمع كلّه والكنيسة. المطران بنفسه جاء ليضع الأمور في نصابها، لكنّ جدّي قاده من جانبٍ بلطف إلى الباب، وأفهمه بأنّه يأخذ على عاتقه آثامه وآثام ابنته أيضاً. مع الزمن سيصبحُ هذا العشيق زوجَ أمّي، العمَّ رامون الذي لا مثيل له، الصديقَ والنَّجيَّ، أبي الحقيقيّ الوحيد، لكن وبما أنّه جاء ليعيش في بيتنا اعتبرته عدوّاً وقرّرتُ أن أجعل حياته مستحيلة. بعد خمسين سنة، يؤكِّدُ هو أنّ هذا ليس صحيحاً، وأنّني لم أُعلن عليه الحرب قطّ؛ لكنّه يقول هذا بنبلٍ خالصٍ كي يُريح ضميري، لأنّني أتذكَّرُ جيِّداً خططي من أجل أن أقتله قتلاً بطيئاً ومؤلماً.

ربّما كانت تشيلي البلد الوحيد في المجرّة الذي لا يوجد فيه طلاق، لأنّه ما من أحدٍ يجرؤ على تحدّي الرهبان، رغم أنّ واحداً وسبعين بالمئة من السكّان يُطالبون به منذ زمن طويل. ما من برلمانيّ، بمن فيهم الذين انفصلوا عن زوجاتهم وعاشروا سلسلةً من النساء بتتالٍ سريع، يواجِهُ الرهبان. والنتيجة أنّ قانونَ الطلاق ينام سنة بعد أخرى في أرشيف المسائل العالقة، وحين سيُقَرّ أخيراً سيكون أمامه من العوائق والشروط ما يجعل من قتل الزوجِ مناسباً أكثر من الطلاق. أفضل صديقة لي منهكة من انتظار صدور إلغاء زواجها، تُراجع يومياً صفحةَ الوفيات في الصحافة بأملِ أن ترى فيها اسم زوجها. لم تجرؤ قط أن تدعو اللهَ أن يلقى زوجُها الميتةَ المستحَقَّة، لكنّها لو طلبت ذلك بطيب من الأب هورتادو فلا شكّ أنه سيلبي رغبتها. الفجوات القانونية خدمت، خلال أكثر من مئة سنة، آلافَ الأزواجِ كي يلغوا زواجهم. وهذا ما فعله أبواي. كَفَتَ إرادةُ جدّي وشبكةُ علاقاته كي يختفي أبي بالسحر، وأن تُعلَن أمّي عازبةً عندها ثلاثة أولاد غير شرعيين، يُسمّيهم القانون عندنا: «وهميين». ما إن أكّدوا لأبي أنّه لن يكون مسؤولاً عن إعالة الصغار حتى وقّع الأوراق دون أن ينبس ببنت شفة. إلغاء الزواج يتمّ بأن تقوم

مجموعة من الشهود المزيّفين بحلف اليمين الكاذب أمام القاضي، الذي يتظاهر باعتبار أنّ ما يقولونه صحيح. وكان الحصول على الإلغاء يحتاج لمحامٍ واحدٍ على الأقل، الوقت بالنسبة إليه من ذهب، لأنّه يربح بالساعة، أي أنّه لا يناسبه اختصار الإجراءات. المطلبُ الوحيد كي يحصل المحامي على الإلغاء هو أن يتفق الزوجان، لأنّه إذا ما رفض أحدهما المشاركة في الخدعة، كما فعلت زوجةُ زوجِ أمّي الأولى فالمسألة ميئوس منها. النتيجة هي أن رجالاً ونساءً يجتمعون وينفصلون دون أيّ نوع من الأوراق، كما فعل كلّ الناس الذي أعرفهم. وبينما أنا أكتب هذه الأفكار في الألف الثالثة ما زال قانون الطلاق عالقاً، رغم أنّ رئيس الجمهورية ألغى زواجَهُ الأوّل وعاد وتزوَّج. وحسب السرعة التي نسير بها ستموت أمّي والعم رامون، اللذان صارا في الثمانين من عمريهما وعاشا معاً أكثر من نصف قرن، دون أن يستطيعا التصديق على وضعهما قانونياً. ما عاد هذا يهمّ أيّاً منهما، حتى ولو استطاعا، فهما لن يتزوّجا ويفضلان أن يتذكّرهما الناسُ كحبيبين أسطوريين.

كان العمُّ رامون يعمل في وزارة الخارجية، مثل أبي، وبعد وقت قصير من إقامته تحت سقف جدّي وحمايته، بصفته صهراً غير شرعيٍّ، أُرسل في مهمّة دبلوماسية إلى بوليفيا. كانت بداية الخمسينات. وانطلقت أمّي ونحنُ وأولاده خلفه.

كنتُ قبل أن أبدأَ السفر مقتنعة بأنّ جميع الأسر مثل أسرتي، وأنّ تشيلي مركز الكون، وأنّ بقية البشرية لهم مظهرنا ويتكلّمون القشتالية كلغة أولى؛ والإنكليزية والفرنسية مادتين مدرسيتين، مثلهما مثل الهندسة. ما كدتُ أجتاز الحدودَ حتى انتابني شكٌّ بسعة العالم وانتبهت إلى أنّه ما من أحدٍ، ما من أحدٍ على الإطلاق، كان يعرفُ كم هي أسرتي خاصّة. وسرعان ما تعلّمتُ ما يشعر به المرء

عندما يُرفَض. منذ اللحظة التي غادرنا فيها تشيلي وبدأنا نتنقل من بلد إلى آخر تحوّلتُ إلى الطفلة الجديدة في الحي، الأجنبية في المدرسة، الغريبة التي ترتدي ثياباً مختلفة، ولا تعرف حتى كيف تتكلّم مثل الآخرين. لم أعرف متى تأتي ساعات عودتي إلى مجالي المعروف في سانتياغو، لكن حين حدث هذا أخيراً بعد سنوات أيضاً لم أتأقلم هناك، لأنّني بقيت في الخارج زمناً أطول من اللازم. أن أكون أجنبية، كما كنتُ دائماً تقريباً، يعني أنّ عليَّ أن أبذل جهداً أكبر من أبناء البلد الأصلي، وهو ما أبقى عليّ في حالة استنفار، وأجبرني على تطوير مرونتي كي أتكيّف مع مختلف الأجواء. لهذا الظرف بعض الميزات بالنسبة لمن يكسب عيشه من المراقبة: فلا شيء يبدو لي طبيعياً، ويكاد كلُّ شيء يُدهِشني. أطرح أسئلة غير معقولة، لكنّني أطرحها أحياناً على أناسٍ مناسبين فأكسب موضوعاتٍ لرواياتي.

بصراحة إنّ إحدى أكثر الميزات التي تشدّني إلى ويلي هي موقفه المتحدّي والواثق. فهو لا يشكّ بنفسه ولا بظروفه. فقد عاش دائماً في البلد ذاته، يعرف كيف يشتري من خلال اللائحة، ويصوِّتُ بالبريد، وكيف يفتح علبة أسبرين وإلى أين يهتفُ حين يغرق المطبخ. أغبطه على ثقته، فهو يشعرُ بالراحة تماماً في جسده ولغته وبلده وحياته. هناك طراوة وبراءة معيّنة عند الناس الذين بقوا دائماً في المكان ذاته، ولديهم شهود على مرورهم في العالم. بينما نحن الذين سافرنا مراتٍ كثيرة، نطوِّر، نتيجةَ الحاجةِ، جلداً قاسياً. وبما أنّنا لا نملك جذوراً ولا شهوداً من الماضي، نثق بالذاكرة كي نمنح الاستمرارية لحياتنا. لكنّ الذاكرة ضبابية دائماً ولا نستطيع أن نثق بها. ليس لحوادث ماضِيّ حواف دقيقة، إنّها متلاشية، كما لو أنّ حياتي كانت مجرّد تعاقب أوهام وصور هاربة، مسائل لا أفهمها أو أفهمها بشكل متوسط. ليس عندي أيّ نوع من اليقين. كما

لا أتمكَّن من الشعور بتشيلي كمكانٍ جغرافيّ، له بعض الخصائص الدقيقة، مكانٍ محدّدٍ وواقعي. أراه كما ترى دروبَ الريف في المساء، حين تخدع ظلال الحور البصرَ، ويبدو المشهد مجرّد حلم.

ناس أباة وجدّيون

لديّ صديقة تقول إنّنا، نحن التشيليين، فقراء، لكنّنا ناعمو الأقدام. طبعاً تشير إلى حساسيتنا السهلة وغير المُبرَّرة، إلى كبريائنا الوقور، إلى ميلنا لأن نُصبح أغبياء خطرين، ما إن يُتيحوا لنا الفرصة. من أين تأتينا هذه الخصائص؟ أفترض أن قليلاً منها يأتي من الوطن الأم، إسبانيا، التي ورّثتنا مزيجاً من العاطفة والصرامة، ومثلها إلى دم الأراوكانيين المعذَّبين، والبقية نستطيع أن نلصقها بالقدر.

فيَّ شيء من الدم الفرنسي من ناحية الأب وقليل من السكان الأصليين، تكفي رؤيتي للتكهّن بذلك، لكنّ أصولي قشتالية ـ باسكية بشكل رئيسيّ. لقد حاول مؤسّسو أسرٍ مثل أسرتي أن يؤسّسوا سلالاتٍ، ومن أجل ذلك عزا بعضهم لنفسه ماضياً أرستقراطياً، رغم أنّهم كانوا فلاّحين ومغامرين إسباناً، وصلوا قبل قرون إلى ذيل أمريكا يداً من أمام وأخرى من الخلف. لا شيء مما يقال له دم أزرق، لا شيء. كانوا طموحين وعمّالاً، استولوا على أخصب الأراضي بالقرب من سانتياغو، وانهمكوا في أن يصبحوا وجهاء. وبما أنّهم هاجروا قبل غيرهم وأثروا بسرعة استطاعوا أن يسمحوا لأنفسهم بالنظر بدونية لمن وصلوا بعدهم. كانوا يتزوَّجون فيما بينهم ويُنجِبون، ككاثوليكٍ صالحين، ذريّةً كثيرة؛ فيتفرّغ الأبناء العاديون للأرض، والوزارات والرتب الكنسيّة، لكن ليس للتجارة أبداً، فهي لصنفٍ آخر من الناس، الأقل قدرة عقلياً بينهم كانوا

ينتهون إلى البحرية. وكثيراً ما كان يفيض ولد لرئاسة الجمهورية. هناك سلالات من الرؤساء، كما لو كانت الرئاسة وراثية لأنّ التشيليين يصوّتون لاسم معروف. فمثلاً أسرة إرّارويث أعطت ثلاثة رؤساء وثلاثين عضو مجلس شيوخ ونيّفاً ولا أدري كم برلمانيّاً، بالإضافة إلى عدد من الرؤساء الكنسيين. كانت البنات الورعات في الأسر المعروفة يتزوجن من أبناء عمومتهنّ وخؤولتهنّ(*) أو يتحولن إلى ورعات لهنّ معجزات مشكوك فيها. أمّا البنات الضالات فتتكفّل بهنّ الراهبات. كانوا أناساً مُحافِظين، ورعين ونزيهين، أنوفين وبخلاء، لكنّهم بشكلٍ عام طيّبو النوايا، ليس بسببِ طبيعتهم بقدر ما هو من أجل ما يقدّمونه لكسب السماء. كانوا يعيشون في الخوف من الله. ترعرعتُ مقتنعة بأنّ كلَّ امتياز يأتي معه، كنتيجةٍ طبيعية، بلائحة طويلة من المسؤوليات. هذه الطبقة الاجتماعية التشيلية كانت تُبقي على مسافة بينها وبين أمثالِها، لأنّها وُجِدَتْ على الأرض كي تكون مثلاً يُحْتَذى، هذا الحمل الثقيل الذي كانت تأخذه على عاتقها بورع مسيحي. ومع ذلك عليَّ أن أوضِّح أنّه رغم أصوله وكناه، لم يُشكِّل فرعُ أسرة جدّي جزءاً من الأقلية الحاكمة، وكان يتمتّع بحالة متوسطة لكنّه يفتقر للثروة والأرض.

إحدى خصائص التشيليين بشكل عام، والمتحدرين من قشتاليين وباسكيين بشكل خاص، هي القناعة التي تتناقض مع الطبع والمزاج الطافح، الشائع جدّاً في أمريكا اللاتينية. ترعرعتُ بين خالاتٍ مليونيريات وبنات عمٍّ لجدّي وأمي مرتديات جلابيب سوداء حتى الكعبين، كنَّ يتباهين بأنّهن يقلبن أطقم أزواجهنّ، تلك العملية المزعجة التي تقوم على فكّ خياطة الطقم، وكيِّ القطع وجمعها من جديد من الخلف كي يمنحنها حياةً جديدة. كان من السهل تمييز الضحايا، لأنّ الجيبَ العلوي في الجاكيت يصبح على

(*) في الإسبانية العمّ والخال يعبّر عنهما بكلمة واحدة. وكان من الضروري هنا الإشارة إلى الطرفين.

اليمين بدل اليسار. والنتيجة كانت دائماً محزنة، لكنّ الجهد يُظهر كم هي السيّدة التشيلية اقتصادية ومدبِّرة. بالنسبة إلى موضوع أنّها مُدبِّرة هذا شيء أساسي في بلدي، حيث الكسل امتياز ذكوري. يُغفَر للرجال كما يُسمح لهم بالكحولية، لأنّهم يفترضون أنّها خصائص بيولوجية لا مفرّ منها: من يولد هكذا، يولد هكذا... ويُفْهَم من هذا أنّها ليست هذه هي حالة النساء. فالتشيليات، بمن فيهنّ الثّرِيّات، لا يَطلين أظافرَهنّ، لأنّ هذا يدلّ على أنّهنّ لا يعملن بأيديهنَّ وأحد أسوأ النعوت هو أن تُعاب بأنّها كسولة. في الماضي عند الصعود إلى الحافلات كانت تُرى جميع النسوة يحِكْنَ؛ لكنّ الأمر لم يعد كذلك لأنّ أطنانَ الملابس المستعملة تصلُ الآن من الولايات المتحدة وقاذورات البوليستر تصلُ من تايوان، بحيث أنّ الحياكة صارت من التاريخ.

قيل إنّ قناعتنا المتبصرة إرثُ مستعمرين إسبان منهكين كانوا يصلون نصف أمواتٍ من الجوع والعطش، مدفوعين بالقنوط أكثر مما بالجشع. أولئك القباطنة البواسل ـ الأخيرون في توزيع غنائم الاحتلال ـ كان عليهم أن يجتازوا جبال الأند عبر ممرات غدّارة، أو أن يعبروا صحراءَ أتاكاما تحت شمسِ حممٍ متلظية، أو أن يتحدّوا الأمواج والرياح العاتية في كابو دِ هورنوس(*). والمردود لا يكاد يستحق المعاناة، لأنَّ تشيلي لم تكن تُقدِّم، مثل مناطق أخرى من القارّة، إمكانية الثراء المفرِط. فمناجم الذهب والفضّة كانت تُعَدُّ على أصابع اليدِ الواحدة وكان يجب اقتلاع صخورها بجهد خارق؛ كما أنّ الطقسَ لم يكن يسمح بزراعاتِ تبغٍ أو قهوةٍ أو قطنٍ مزدهرة. بلدنا كان دائماً نصف فقير، وأكثر ما يمكن أن يتطلع إليه المستوطن هو حياة هادئة مكرَّسة للزراعة.

كان التفاخر قبل ذلك غير مقبول، كما قلت، لكن هذا تبدّل

(*) رأس الأفران.

للأسف، على الأقل بين سكان سانتياغو، فقد أصبحوا من الادعاء بحيث أنّهم يذهبون الى سوق الخدمة الذاتية في أصباحِ أيام الآحاد، يملؤون عرباتِهم بأغلى المنتجات ـ كافيار، شامبانيا، وشرحات اللحم ـ يتنزهّون بها قليلاً كي يُعجَب الآخرون بمشترياتهم، ثم يتركونها في ممر ويخرجون بتعقّل فارغي الأيدي. كما سمعتُ أنّ نسبةً كبيرةً من الهواتف الخليوية المصنوعة من الخشب لا تفيد إلاّ للتباهي. لم يكن هذا ليخطر ببالٍ قبل سنواتٍ؛ الوحيدون الذين كانوا يعيشون في بيوتٍ كبيرة هم العرب، حديثو الثروة، وما من أحد كان سليم العقل يرتدي معطفاً من جلد حتى ولو كان البرد قطبياً.

كان الجانب الإيجابي لكلّ هذا التواضع ـ المزيّف أو الحقيقي ـ هو بالطبع البساطة. لا احتفالات بأعياد الميلاد الخامسة عشرة مع طيور التمّ المطلية باللون الوردي، لا أعراس إمبراطورية مع كعكة الحلوى من أربعة طوابق، ولا احتفالات مع أوركسترا لكلاب الحضن، كما في عواصم أخرى من قارتنا المبالِغة. كان الكبرياء الوطني ملمحاً بارزاً اختفى مع الرأسمالية المتطرّفة التي فُرِضت في العقدين الأخيرين، حين صار الغنى أو مظهر الغنى موضةً، لكنّني آمل أن نعود سريعاً إلى المعتاد. مزاج الشعوب عنيد. ريكاردو لاغوس، الرئيس الحالي للجمهورية (بداية العام 2002) يعيش مع أسرته في بيت مستأجَرٍ في حي دون فخفخة. حين يزوره ذوو الشأنِ من أممٍ أخرى يُذهلون من أبعاد البيت الصغيرة، ويزداد ذهولهم حين يرون أن صاحبَ الرفعة يُحضِّر كؤوس المشروب، وأن السيّدة الأولى تساعده في تحضير المائدة. ورغم أنّ اليمين لا يغفر لـِ «لاغوس» أنه ليس «مثلهم» إلاّ أنّه يُعجَبُ ببساطته. هذان الزوجان دليل تقليدي على الطبقة الوسطى القديمة الأصيلة، التي تربت في المدارس والجامعات الرسمية المجانية، العلمانية والإنسانية. إنّ آل لاغوس تشيليون تربوا على قيم المساواة والعدالة الاجتماعية، يبدو أنّ الهوس المادي لهذه الأيام لم يمسّهم. من المُفترض أن يُنهي هذا المَثَل دفعة واحدة وللأبد موضوع

العربات المتروكة في أسواق الخدمة الذاتية والهواتف النقالة الخشبية.

يخطر لي أنّ هذا الكبرياء المتجذّر في أسرتي، وكذلك النزعة لإخفاء الفرح والرغد، مصدرُهما الخجل الذي نشعر به حين نرى الفاقة التي تحيط بنا. أن نملك أكثر من الآخرين لم يكن يبدو لنا ظلماً إلهياً وحسب، بل ونوعاً من الخطيئة الشخصية؛ توجِب علينا أن نقوم بالتوبة وأعمال البرّ لنعوّض ذلك. وكانت التوبة تقوم على تناول الفاصولياء والعدس والحمص، وعلى الشعور بالبرد في الشتاء. وكانت أعمال البرّ نشاطاً عائلياً، ينطبق حصراً على النساء. كنّا نذهب، نحن الصغيرات، ممسكات بأيدي الأمهات أو الخالات والعمّات لنوزّع الثيابَ والطعام على الفقراء. انتهت هذه العادة منذ ما يقارب الخمسين عاماً، لكنّ مساعدة الجار ما زالت واجباً، يضطلع به التشيليون بسعادة، كما يجب أن يحدث في بلد لا يخلو من فرص لممارسته. في تشيلي يمضي الفقر يداً بيد مع التضامن.

لا شكّ أن هناك بوناً شاسعاً بين الأغنياء والفقراء، كما يحدث في كلّ أمريكا اللاتينية تقريباً. الشعب التشيلي، مهما بلغ فقره، حسن التربية إلى هذا الحدّ أو ذاك، يبقى حسن الاطلاع ويعرف الحقوق وإن لم يستطع دائماً أن يجعلها تأخذ قيمتها. ومع ذلك يطلّ الفقر برأسه القبيح في كلّ لحظة، خاصّة في أوقات الأزمات. ولتوضيح الكرم الوطني ليس هناك ما هو أفضل من بعض المقاطع من رسالة لأمي من تشيلي، بمناسبة فيضانات شتاء 2002، التي غمرت نصفَ البلد في محيط من الماء الوسخ والطين:

«أمطرت عدّةَ أيام متواصلة. فجأة تهدأ وما يستمر هو مطر ناعم يُبلِّلنا، وبالضبط حين يقول وزيرُ الداخلية أنّ طقساً أفضل سيحلّ، يهطل وابلٍ آخر مع عاصفة تذهب بقبعته. كان هذا امتحاناً قاسياً آخر للسكان. رأينا وجه الفاقة الحقيقيّ لتشيلي، الفقر المقنّع

للطبقة الوسطى الدنيا، التي هي أكثر من يُعاني؛ لأنّ لديها أمل. يعمل هؤلاء الناس طوالَ حياتهم كي يحصلوا على مسكن محتشم، فتنصب عليهم الشركات: يطلون البيوت بشكلٍ جميل من الخارج، لكنّهم لا يجهزونها بمصارف صحّية؛ وبذلك فهي لا تغرق مع المطر وحسب، بل وتبدأ تتضعضع مثل لبّ الخبز. الشيء الوحيد الذي يُلهي الناسَ عن المأساة هي بطولة كرة القدم العالمية. إيفان ثامورانو، معبود كرة قدمنا، تبرّع بطنٍّ من المواد الغذائية وأمضى أيّامه في القرى المغمورة يُسلّي الأطفال ويوزّع الكرات. لا يمكنك أن تتصوّري مشاهد الألم؛ إنّ الذين يُعانون من أسوأ المحن هم دائماً ذوو الإمكانيات الضعيفة. يبدو المستقبل أسود، لأنّ العاصفة غمرت حقول الخضروات بالماء، والرياح اقتلعت مزارع فواكه كاملة. تنفق الماشية في ماغايّانِس بالآلاف، محاصرة بالثلج تحت رحمة الذئاب. بالطبع يظهر تضامن التشيليين في كلّ مكان. نساء ورجال وشبان، المياه حتى ركبهم، يعتنون بالأطفال مغمورين بالطين، يوزّعون الملابِس، ويساعدون قرى بكاملها جرفتها المياه إلى الجروف. نُصِبت في ساحة إيطاليا خيمة هائلة، تمرّ السياراتُ وتقذفُ، دون أن تتوقّف، بصناديق البطانيات والأغذية إلى أذرع الطلبة الذين ينتظرون. محطّة مابّوتشو تحوّلت إلى مأوى هائل للمنكوبين، بمسرحها، حيث يسهر فنانو سانتياغو وفرق الروك، بل وحتى الأوركسترا السيمفونية، يجبرون الناس المصطكّين برداً على الرقص، فهكذا ينسون للحظات مأساتهم. هذا درس تواضُع كبير جدّاً. فالرئيس يطوف مع زوجته ووزرائه على الملاجئ مواسياً. والأفضل هو أنّ وزيرة الدفاع، وابنة أحد الذين اغتالتهم الديكتاتورية، «ميشيل باشِليت» أخرجت الجيشَ للعمل من أجل المنكوبين وتمضي راكبة عربة حربية وإلى جانبها رئيس الأركان، مقدِّمة المساعدة ليلاً ونهاراً. أخيراً كلّ واحد يفعل ما يستطيع. المسألة هي أن نرى ما ستفعله البنوك التي تشكّل فضيحة فساد في هذا البلد».

وكما ينزعج التشيليّ من نجاح الغريب كذلك يصبح رائعاً أمام الفواجع؛ عندها يضع بؤسَهُ جانباً، ويتحوّل فجأةً إلى أكثر الناس في العالم تضامناً وكرماً. هناك عدة سباقات عدّة سنوية في التلفزيون، مخصّصة للأعمال الخيرية فيتسابق الجميعُ، خاصّة الأكثر تواضعاً، في منافسة حقيقية ليروا من يعطي أكثر. ولا يخلو الأمر من مناسبات للرأفة العامة في أمّةٍ تهزّها النكبات التي تُزعزِعُ أسسَ الحياة، مثل طوفانات تجرف قرى بكاملها، وأمواج هائلة تحطُّ بالبواخر وسط الساحات. نحن مكوَّنون على فكرة أنّ الحياة مقلقلة، ودائماً ننتظر أن تسقط فوقنا بليّة أخرى. زوجي ـ الذي يبلغ طوله مئة وثمانين سنتيمتراً وركبتاه قليلتا المرونة ـ لم يستطيع أن يفهم لماذا أخبئ الأكوابَ والأطباقَ في أخفض الرفوف السفلية من المطبخ، والتي لا يُدركها إلا مستلقياً على ظهره على الأرض، حتى دمّر زلزالُ 1988 أداوت مطابخ الجيران في سان فرانسيسكو وبقيت أدواتنا سليمة.

ليس كلّ شيء لطماً على الصدر بإحساسٍ بالذنب وقياماً بأعمال البرّ لتعويض الظلم الاقتصادي. لا شيء من هذا. فجدّيتنا تتوازن بشكل واسع مع شراهتنا. تجري الحياة في تشيلي حول المائدة. ومعظم رجالِ الأعمال، الذين أعرفهم، مصابون بمرض السكّري، لأنّ اجتماعات العمل تتمّ على مائدة الفطور والغداء والعشاء. ما من أحدٍ يُوقِّع ورقة دون أن يتناول على الأقل فنجان قهوة مع البسكويت أو جرعة خمر.

إذا كان صحيح أنّنا كنّا نأكلُ البقولَ يومياً، فصحيح أيضاً أنّ الوجبةَ كانت تتبدّل أيام الآحاد. إنّ غداءً معتاداً يوم الأحد في بيت جدّي كان يبدأ بفطائر ثقيلة، فبعض الورائق باللحم والبصل، قادرة على التسبب بالحموضة عند أسلم الناس؛ بعدها يُقدّم الكثوِلا، وهو حساء من لحم وذرة وبطاطا وخضراواتٍ، قادر على إنهاض

الموتى، يليه على الفور مصّ بحرياتٍ مبشمة، يملأ عبقُها اللذيذ البيت، وفي الختام مجموعة من الحلويات التي لا تُقاوَم، لا تخلو من كعكة مانخار بلانكو أو حلوى الحليب، وصفة الخالة كوبِّرتينا القديمة، وجميعها مرافقة بليترات من بيسكو الجنوب المريع وعدد من زجاجات النبيذ الأحمر الجيّد، المُعتّق لسنواتٍ في قبو البيت. وعند الخروج يُقدّمون لنا ملاعق من حليب المغنيز. ويتضاعف هذا خمس مرّاتٍ عند الاحتفال بعيد ميلاد أحد البالغين، الأطفال لم يكونوا يستحقون هذا التميّز. لم أسمعهم قط يلفظون كلمة كوليسترول. أبواي، اللذان يتجاوزان الآن الثمانين، يستهلكان تسعين بيضة، وليتر كريم ونصف كيلو زبدة وكيلوغرامين من الجبن في الأسبوع. ومع ذلك فهما سليمان وطريان مثل صبيين.

لم يكن ذلك الاجتماعُ العائلي فرصةً جيّدة للأكل والشرب بنهم، بل للشجار بحنق، فبعد الكأس الثانية من البيسكو الجنوبي كانت تُسمَع الصيحاتُ والشتائم بين الأقرباء في كلّ الحيّ. بعدها يمضي كلّ في اتجاه، مقسماً أنّه لن يعود للكلام، لكن لا أحد يجرؤ على التخلّف في الأحد التالي، فجدّي ما كان ليغفِر له ذلك. أفهم أنَّ هذه العادة المؤذية استمرّت في تشيلي، رغم أنّها تطوّرت كثيراً في جوانب أخرى. أرعبتني دائماً هذه الاجتماعات الإجبارية، لكن يحدث الآن في مرحلة النضج من حياتي أنّني أعدتُ إنتاجها في كاليفورنيا. نهاية الأسبوع المثالية عندي هي أن يكون البيت مليئاً بالناس، أن أطهو لفيلق وأنهي نهاري وأنا أناقش بأعلى صوتي.

المشاجرات بين الأقرباء كانت تتم على انفراد. والخصوصيةُ هي ترفُ الطبقات المقتدرة، لأنّ غالبية التشيليين لا يملكونها. الأسر من الطبقات الوسطى وما دونها تعيش مختلطة، ففي بيوت كثيرةٍ ينام عدّة أشخاص في سرير واحدٍ. وفي حال وجود أكثر من غرفة فإن الجدران الفاصلة من الرقّة بحيث تُسمع حتى التنهدات في الغرفة المجاورة. ولممارسة الحب يجب الاختباء في أماكن لا تخطر ببال،

الحمامات العامّة، تحت الجسور، حديقة الحيوان، إلخ. ونظراً لأنّ حلّ مشكلة الغرفة يمكن أن يستغرق عشرين عاماً، إذا حالفَ الحظ الناس، يخطر ببالي أن من واجب الحكومة تقديم فنادق استراحة مجانية للأزواج اليائسين، وبذلك يمكن تفادي الكثير من المشاكل العقلية.

في كلّ أسرة هناك شخص طائش، لكنّ الشعار هو دائماً إحكام الطوق حول النعجة السوداء وتفادي الفضيحة. نتعلّم نحن التشيليين من المهدِ أنَّ «الملابس الوسخةَ تُغسَل في البيت» ولا يتمّ الحديث عن الأقرباء الكحوليين، والغارقين في الديون، والذين يضربون نساءهم، أو الذين تعرّضوا للسجن. كلّ شيء يتمّ التستر عليه، بدءاً من الخالة المصابة بجنون السرقة، وحتى ابن الخال الذي يغوي العجائزَ كي ينتزع منهنّ توفيراتهنّ البائسة، وخاصّة ذاك الذي يُغنّي في كاباريه بلباس ليزا مينيللي، لأنَّ أيّة أصالة في مجال التفضيل الجنسي في تشيلي أمرٌ لا يُغتَفَر. وكان ثمنُ مناقشة صدمة الإيدز علنياً معركة، لأنّه ما من أحد يرغب بقبول الأسباب. كما لم يُشرَّع الإجهاض، وهي واحدة من مشاكل الصحة الأكثر جدّية في البلد، بأمل أن تختفي، كما لو بالسحر، في حال لم يتم التطرق إلى موضوعها.

عند أميّ شريط مسجّل بالنكات والفضائح العائلية اللذيذة، لكنّها لا تتركني أستمع إليه، لأنّها تخاف أن أنشر محتواه. وقد وعدتني أنّني سأرث هذا التسجيل، بعد موتها، حين تكون بمنأى تام عن انتقام الأقرباء الجنوني. ترعرعتُ محاطةً بالأسرار، والألغاز، واللمز والمحرمات، المسائل التي يجب ألاّ تُذكر أبداً. أنا مدينة بامتنان لتلك الهياكل العظمية المخفية في الخزانة، والتي لا تُحصى، لأنّها زرعت فيَّ بذور الأدب. ففي كلّ قصّة أكتبها أحاول أن أستخرج واحداً منها.

في أسرتنا لا ينتشر القال والقيل، فنحن في هذا نختلف عن

الإنسان التشيلي العام والعادي، لأنّ الرياضة الوطنية هي الكلامُ من وراء الظهر عن الشخص الذي يخرج للتو من الغرفة. ونختلف في هذا أيضاً عن معبودينا الإنكليز، الذين لديهم قاعدة ألاّ يقوموا بانتقادات شخصية. (أعرفُ جندياً سابقاً في الجيش البريطاني، متزوجاً ولديه أربعة أولاد، وجَدّاً لعدّة أحفاد، قرَّر أن يُبدِّل جنسه. وبين ليلة وضحاها ظهر مرتدياً لباس امرأة؛ ولم يُبدِ أيّ من أهالي بلدته في الريف الإنكليزي، حيث عاش أربعين عاماً، أدنى ملاحظة). بل إنَ للكلام عن الجار عندنا في تشيلي اسم: «نتف»، الذي لا شكّ أن اشتقاقه يأتي من نتف الفروج، أو نتف ريش الغائب. كلّ شيء هكذا، فلا أحد يريد أن يكون الأوّل في الذهاب، ولذلك يؤبِّد الوداع على الأبواب. في عائلتنا، بالمقابل، وصلت قاعدة عدم تناول الآخر بالسوء التي فرضها جدّي، إلى حدّ أنّه لم يقلْ لأمّي قط الأسبابَ التي لأجلها اعترض على زواجها من الرجل الذي صار أبي. رفضَ تكرار الشائعات التي كانت تدور حول سلوكه وطبيعته، لأنه لم تكن لديه براهين، وفضَّلَ، قبْل أن يُلَطِّخَ اسَمَ طالبِ يد ابنته، أن يجازفَ بمستقبلها. وانتهت بأن اقترنت، بجهلٍ تام، بخطيبٍ لم يكن يستحقّها. وبمرور السنين تحرّرتُ من هذا الجانب العائلي، إذ ليس عندي تردّد في تكرار التقوّلات، والكلامِ من وراءِ ظهر الآخرين ونشر الأسرار الغريبة في كتبي، ولذلك فنصف أقربائي لا يُكلِّمونني.

موضوع ألّا تُكَلِّم الأسرةُ فرداً منها شيء عاديّ. الروائي الكبير خوسِه دونوسو وجد نفسه مضطراً، بضغط من العائلة، أن يحذف من مذكّراته فصلاً عن أمّ جدٍّ له استثنائية، فتحت بعد ترمّلها بيتَ قمارٍ، تخدم فيه فتياتٌ جذّابات. الوصمة التي لحقت بالكنية منعت ابنها من الوصول إلى الرئاسة، كما يقولون، ومازال المتحدرون منه، بعد قرنٍ، يُحاولون أن يخفوها. يؤسفني أنّ أمَّ هذا الجدّ ليست من قبيلتي. لو كانت كذلك لأخذتُ على عاتقي أمرَ استثمار هذه القصّة باعتزاز مبرَّر. كم من الروايات اللذيذة يمكن أن تكتب حول مثل أمِّ الجدّ هذه.

عن الرذائل والفضائل

جميع الذكور في عائلتي تقريباً درسوا حقوقاً، رغم أنّه ما من أحدٍ منهم، كما أذكر، استُقبِل كمحام. التشيليّ يُحبّ الحقوق، وكلّما كانت أكثر تعقيداً كلّما كان أفضل. ما من شيء يفتننا مثل الأوراق والمعاملات. حين يكون أحد الإجراءات بسيطاً نشكّ على الفور بأنّه غير شرعي. (أنا مثلاً دائماً شككتُ بأن يكون زواجي من ويلي قانونياً، لأنّه تمّ في أقلّ من خمس دقائق وبتوقيعين على دفتر. كان هذا سيحتاج إلى عدّة أسابيع من البيروقراطية التشيلية). التشيليُّ يريدُ كلَّ شيء قانونياً، ليس هناك من تجارة في البلد أفضل من مكاتب التوثيق: نريد كلَّ شيء على ورق مختوم مع عددٍ من النسخ وكثير من الأختام. ونحن قانونيون، إلى حدّ أنّ الجنرال بينوتشيت لم يبغ أن يدخل التاريخَ كمغتصب للسلطة، بل كرئيسٍ شرعيّ، واضطرّ إلى تغيير الدستور من أجل ذلك. من بين هذه السخريات الكبيرة في التاريخ أنّه وجد نفسه محاصراً بالقوانين التي أبدعها بنفسه كي يؤبّد في منصبه. فهو، حسب دستوره، كان سيمارس مهامَّ منصبه لثماني سنوات أخرى ـ كان قد قضى منها عدّة سنوات في السلطة ـ حتى 1988، حين اضطرَّ أن يستفتي الشعب كي يُقرِّر ما إذا كان سيستمرُّ أو سيدعو إلى انتخابات. خسر الاستفتاء، وفي العام التالي خسر الانتخابات، فاضطرَّ أن يُسلِّم العلم الرئاسي إلى مُعارِضِه، المرشّح الديمقراطي. من الصعب أن نوضّح في الخارج الطريقةَ التي انتهت بها الديكتاتورية، التي كانت تلقى دعمَ القوّات

المسلحة غير المشروط، ودعم اليمين وقطّاعٍ من السكان. كانت الأحزاب السياسية مُعلّقة، ولا يوجد برلمانٌ والصحافة مراقبة. وكانت، كما أكّد الجنرال مراتٍ كثيرةً، «لا تُحرّك ورقة في البلد من دون موافقته». إذن كيف تمّت هزيمتُهُ في الانتخابات الديمقراطية. هذا ما لا يمكن أن يحدث إلاّ في بلد مثل تشيلي. بالطريقة ذاتها، ومن خلال ثغرة في القانون، يحاولون الآن أن يُحاكموه إلى جانب عسكريين آخرين متهمين بخرق حقوق الإنسان، رغم أنّ المجلس الأعلى عُينَ من قِبَلِه، وهناك عفو عام واسع يحميهم من تبعات الأعمال غير الشرعية التي مورِسَت خلال فترة حكمه. المسألة أنّه يوجد مئات الأشخاص الذين كانوا قد أوقفوا، وينفي العسكر أنّهم قتلوهم، لكن بما أنّهم لم يظهروا فهم يُعتبرون مخطوفين. الجريمة في هذه الحالة غير منصوص عليها، وبذلك يستطيع المرتكبون للجرم أن يتخفّوا وراء العفو.

حبّ الأنظمة، مهما كانت غيرِ فاعلة، يجد أفضل دليل له في البيروقراطية الهائلة في وطننا المعذَّب. هذه البيروقراطية هي جنّة «تشيليّ الكتلة» أو الإنسان الرمادي. فيها يستطيع التشيليّ أن يعيش على هواه، بمنجى تماماً عن حيل الخيال، في مأمن تامٌ في موقعه حتى يوم تقاعده، ما دام لا يرتكب حماقة محاولة تغيير الأشياء، كما يؤكّد عالم الاجتماع والكاتب بَابلو هونيوس (الذي، نقول هذا عرضاً، هو واحد من القلّة غريبة الأطوار، التي لا تربطها قرابة بأسرتي). على الموظّف العام أن يفهمَ، منذ أوّل يوم في مكتبه أنّ أدنى مبادرة سوف تُشكّل نهاية مسيرته، لأنّه ليس هناك كي يثبت جدارة، بل كي يدرك بجدارةٍ مستوى قصوره. الهدف من تحريك أوراق مختومة وطوابع من مكان إلى آخر ليس حلّ المشكلات بل مهاجمة الحلول. فلو حُلّت المشكلات لفقدت البيروقراطيةُ قوّتها ولبقي الكثيرُ من الناس النزيهين بلا عمل، بينما إذا ساءت زادت الدولةُ الميزانية وتعاقدت مع مزيد من الناسِ وهكذا ينخفض مؤشّر الفصل من الوظيفة ويرضى الجميع. الموظّف يتمادى بجزيء من

السلطة الممنوحة له، منطلقاً من قاعدة أنّ الجمهورَ عدّو له، الشعور المتبادل تماماً. فاجأني أنّه يكفي أن يملك المرءُ في الولايات المتحدة شهادة سواقة كي يتحرَّك في البلد، وأنَّ كلّ الإجراءات تتم عبر البريد. في تشيلي يطلب الموظّفُ المناوِب من صاحبِ الطلب أن يُثبتَ له أنّه وُلِدَ، وأنّه غير سجين، ودفع الضرائبَ وسجّل اسمَه من أجل التصويت، وما يزال حيّاً، لأنّه حتى ولو اضطرّ لأن يرفس كي يبرهن على أنّه لم يمت، عليه أن يُقدّم «وثيقة البقاء على قيد الحياة». كمْ هي مشكلة، حتى أنَّ الحكومةَ أنشأت مكتباً لمحاربة البيروقراطية. الآن يستطيعُ المواطنون أن يشتكوا من سوء المعاملة، ويتهموا الموظفين بعدم الأهلية... طبعاً على ورقٍ مختومٍ وعلى ثلاث نسخ. اضطُرِرنا كي نجتازَ الحدودَ مع الأرجنتين، في حافلة سياحيةٍ، لأن ننتظر ساعةً ونصفاً ريثما يتفحّصون وثائقنا. كان اجتيازُ جدار برلين القديم أسهل. لقد كان كافكا تشيلياً.

أظنُّ أنَّ هذا الهوسَ بالشرعية هو نوعٌ من الضمان ضد العدوان الذي نحمله في داخلنا، فلولا هراوة القانون لكنّا نضرب بعضناً بعضاً بالعصي. لقد علّمتنا التجربةُ أنّنا قادرون، حين تفقد الشكيمةَ، على القيام بأيّ عمل وحشي، لذلك نُحاول أن نكون حذرين، متمترسين خلف ربطة من الأوراق المختومة. نتفادى المواجهة قدرَ المُستَطَاع، نبحث عن إجماع، وفي أوّل فرصةٍ نُخضِعُ القرار للتصويت. يسحرنا التصويت. إذا ما اجتمع عددٌ ممن يسيل مخاطهم في باحة المدرسة ليلعبوا بكرة القدم، فإنّ أوّل ما يفعلونه هو كتابةُ نظام داخلي وتصويتٌ على رئيس وعضو وأمين صندوق. هذا لا يعني أنّنا متسامحون، على الإطلاق، فنحن نتمسّك بأفكارنا كمهووسين (أنا حالة نموذجية). يظهر اللاتسامح في كلّ مكان، في الدين، في السياسة وفي الثقافة. إنّ أيّ شخص يتجرّأ على أن يعارض يُسَكّت بالشتائم أو بالسخرية، هذا في حال أنّه لا يمكن إسكاته بطرقٍ أكثر عنفاً.

نحن محافِظون وتقليديون في عاداتنا، نفضل السيّئ المعروف

على الجيّد المجهول، لكنّنا نمضي، في كلّ ما عدا ذلك، متصيّدين الجديد. نعتبر أنّ كلّ ما يصدر عن الأجنبي أفضلُ بالطبع مما عندنا، وعلينا أن نجرّبه، بدءاً من آخر محقنة إلكترونية، وحتى النظم الاقتصادية أو السياسية. قضينا قسماً كبيراً من القرن العشرين نجرّب أشكالاً مختلفة من الثورة، وتذبذبنا بين الماركسية والرأسمالية الوحشية، مروراً بكلّ واحدة من الدرجات المتوسطة. وإنّ الأمل بأن نستطيع تغيير الحكومة، وأن نُحسّن من مصيرنا يشبه الأمل بربح اليانصيب، ليس له أساس عقلاني. نعرف في أعماقنا أنّ الحياة ليست سهلة. بلدنا بلدُ زلازل، فكيف لن نكون جبريين. ونظراً للظروف لا يبقى أمامنا إلاّ أن نكون رواقيين قليلاً، لكن لا حاجة لأن نكون كذلك بكرامة، نستطيع أن نشكو على هوانا.

في حالة عائلتي، أظنّ أنّنا كنّا اسبارطيين بقدر ما كنّا رواقيين. الحياة السهلة، حسب ما كان يُعلن جدّي، تنتج السرطان بينما عدم الراحة صحي؛ كان ينصح بالحمّام البارد، والطعام صعب المضغ، والفرش المكبّبة، ومقاعد الدرجة الثالثة في القطار والأحذية الثقيلة. وقد عَزّزت نظريتَه القائلة بصحيّة عدم الراحة بعضُ المدارس البريطانية، حيث وضعني القدرُ خلال القسم الأكبر من طفولتي. فإذا ما استطاع المرءُ أن يتخطّى هذا النوعَ من التربية فإنّه يمتنُّ فيما بعد لأتفه الملذات، وأنا من الأشخاص الذين يتمتمون بدعاءٍ صامتٍ حين يخرج ماءٌ ساخن من الصنبور. آمل أن تكون الحياة إشكالية وحين لا يوجد ضيق أو ألم لعدّة أيام ينشغل بالي، لأنّ هذا يعني بالتأكيد أن السماء تُدبِّر فاجعة أكبر. ومع ذلك فأنا لستُ عصابية تماماً، على العكس، الوجودُ معي ممتِع. لا أحتاج إلى أشياء كثيرة كي أُسعَد، يكفيني بشكل عام خيط من ماء ساخن في الصنبور.

قيل كثيراً إنّنا حسودون، ويزعجنا انتصار الآخر. صحيح، لكنّ التفسير ليس حسداً بل هو شعور عام: النجاح غير طبيعي. الكائن

البشري مبنيّ بيولوجياً على الفشل، البرهان على ذلك هو أنّ له رجلين وليس دولابين، مرفقين وليس جناحين وأيضاً(*) ليس مُدّخرة. فلماذا نحلم بالنجاح إذا كان باستطاعتنا أن نعيش بهدوء في فشلنا؟ لماذا نعمل اليوم ما يمكن أن نعمله غداً؟ أو أن نعمله جيّداً إذا كان باستطاعتنا أن نعمله وسطاً. نكره أن يبرز ابن بلدٍ لنا فوق الآخرين، إلا إذا برز في بلد آخر، وعندها يتحوّل المحظوظ إلى نوع من البطل الوطني، ومع ذلك فالمنتصرُ المحلي يقع موقعاً في غايةً السوء وسرعان ما يقوم اتفاق (ضمني) عنيد على إحباطه. هذه الرياضة الأخرى نسميها شدّ من السترة، يؤخَذُ الآخر من سترته ويُشدُّ إلى الأسفل. ورغم الشدّ بالسترة ومن وضاعة الجوّ فهناك من يتمكنّ من أن يُطلَّ برأسه فوق الماء. فقد أعطى شعبنا رجالاً استثنائيين: جائزتا نوبل، بابلو نيرودا وغابرييلا ميسترال، والمغنيان فيكتور جارا وفيولِتا بّارّا، وعازف البيانو كلاوديو أرّاو، والرسام روبِرتو متّى، والروائي خوسِهْ دونوسو، وأنا أذكر هنا فقط بعضَ من أتذكرهم.

تسرّنا، نحن التشيليين، الجنازات، لأنّ الميت ليس باستطاعته أن ينافِسنا، ولا أن «ينتف ريشنا» من وراء ظهرنا. نحن لا نذهب في مجموعاتٍ إلى الجنازات، حيث يتوجّب علينا أن نبقى واقفين ساعاتٍ نستمع إلى خمس عشرة خطبة على الأقل وحسب، بل ونحتفل بمرور عام على وفاته. إحدى تسلياتنا الأخرى هي أن نحكي ونسمع الحكايات وكلّما كانت مروّعة ومحزنة كلّما كانت أفضل، ونحنُ في هذا وفي حب الجرعة نُشبِه الأيرلنديين. نحن مولعون بالمسلسلات التلفزيونية، لأنّ مآسي أبطالها تقدِّم لنا مُبرِّراً كي نبكي أحزاننا. تربيت على سماع مسلسلات إذاعية درامية من المطبخ، رغم أنّ جدّي حرَّمَ المذياع، لأنّه كان يعتبره أداة شيطانية تنشر القيل والقال والأمور الدهمائية. وكنّا، نحن الأطفال والمستخدمات،

(*) بمعنى Metabolismo أي ما معناه وظائف التغذية، وليس بمعنى تكراراً.

نعاني مع مسلسل «حق الولادة» الأبديّ الذي دام عرضه عدّة سنوات، حسب ما أتذكّر.

حياة أبطال الرواية المتلفزة أهم بكثير من حياة الأسرة، رغم أنّ الموضوع ليس سهل المتابعة دائماً. مثلاً: الغندور يغوي امرأة ويتركها في وضع مبهم؛ ثمّ يتزوّج انتقاماً من فتاة عرجاء، ويتركها أيضا: «تنتظر طفلاً» كما نقول في تشيلي، لكنّه سرعان ما يخرج إلى إيطاليا ليجتمع بزوجته الأولى. أعتقد أن هذا يسمى ثلاثي الزوجات. في هذه الأثناء تُجري العرجاءُ عملية لساقها، تذهب إلى المزيّنة، ترث ثروةً، تُصبح مديرةً في شركة كبيرة وتجذب إليها طالبي ودٍّ جداً. حين يعود الوسيم من إيطاليا ويرى تلك الأنثى الثريةَ بساقين متساويتي الطول يندم على خيانته لها. وعندئذٍ تبدأ مشاكل كاتب السيناريو كي يفكّ كبّة غزل العجوز التي صارت إليها القصّة. عليه أن يُجهض المغوية الأولى، كيلا يبقى هناك أولاد حرام يطوفون في قناة التلفزيون، ويقتل الإيطالية سيّئة الحظ، كي يصبح الوسيمُ - الذي يُفترض أنه الطبيب في المسلسل التلفزيوني - أرملاً بشكل مناسب. وهذا ما يسمح للعرجاء السابقة أن تتزوّج من الأبيض، رغم أنّها تُظهر كرشاً هائلاً، بالطبع تُنجبُ، بعد وقتٍ قصير جدّاً، نكراً. لا أحد يعمل، يعيشون على عواطفهم، والنساء يمضين بأهداب اصطناعية وهن يرتدين ملابس حفلة كوكتيل منذ الصباح. على امتداد هذه المأساة ينتهي الجميع تقريباً بالدخول إلى المشفى؛ هناك عملياتُ إجهاض، حوادِث، عمليات اغتصاب، مدمنو مخدرات، شباب يهربون من البيت أو السجن، عميان، مجانين، أغنياء يصبحون فقراء وفقراء يصبحون أثرياء. يعانون كثيراً. وفي اليوم التالي لعرض فصلٍ مأساوي تنشغل جميعُ خطوط البلدِ الهاتفية بالتفاصيل الصغيرة. تفتح لي صديقاتي هواتف يدفعها المتلقي إلى كاليفورنيا ليعلّقوا على ذلك. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنافِس الفصلَ الأخير من رواية متلفزة هي زيارة البابا، لكنّ هذا حدث مرّة واحدة فقط في تاريخنا، ومن المحتمل ألاّ يتكرّر.

بالإضافة إلى الجنازات والحكايات المرعبة والروايات المتلفزة، عندنا أيضاً الجرائم، التي هي دائماً موضوع حديث مهم. يسحرنا المرضى النفسيون والقتلة، وإذا كانوا من الطبقة العليا فهذا أفضل بكثير. علّق صحافي شهير «ذاكرتنا سيّئة بالنسبة إلى جرائم الدولة، لكنّنا لا ننسى أبداً خطايا الآخرين الصغيرة». إحدى أكثر الجرائم شهرة في التاريخ ارتكبها شخص يُدعى بارثِلو، قتل زوجته بعد أن أساء معاملتها جدّاً خلال سنوات من حياتهما المشتركة، وسرعان ما ادعى أنّه حادِث. كنتُ أعانقها، قال، وأفلتت مني طلقة اخترقت رأسها. لم يستطع أن يوضّح لماذا كان يحمل مسدساً ملقّماً في يده مصوّباً إلى نقرتها، وأمام هذه الحالة بدأت حماته حرباً صليبيةً للانتقام لابنتها سيّئة الحظ؛ وأنا لا أدينها، لأنّني كنتُ سأفعلُ الشيء ذاته. كانت هذه السيّدة تنتمي إلى أرفعِ طبقاتِ مجتمعِ سانتياغو ومعتادة على أن تُحقِّق مآربها؛ نشرت كتاباً تُدين فيه صهرها، ثمّ وبعد أن حُكم عليه بالإعدام مثلت في مكتب رئيس الجمهورية كي يعفو عنه. أعدموه رمياً بالرصاص. كان أوّل وأحد أبناء الطبقة العليا القليلين الذين أعدموا، لأنّ هذه العقوبة كانت تُحجز لمن ليس عندهم علاقات ومحامون جيّدون. اليوم أُلغِيت عقوبةُ الإعدام كما في كلّ بلدٍ محترم.

كذلك تربيتُ على النوادر العائلية يحكيها الجدان والأخوال وأمّي، والمفيدة جدّاً في كتابة الروايات. كم من الحقائق فيها؟ لا همّ. فعند التذكّر لا أحد يريد التحقق من الأحداث، تكفي الأسطورة، مثل القصّة الحزينة لذلك الشبح في إحدى جلسات تحضير الأرواح الذي دلّ جدّتي على كنز مخبّأٍ تحت الدرج. ونظراً لخطأ في مخططات البناء وليس لسوء الروح لم يُعثَر قط على الكنز رغم أنّهم هدموا نصف الدار. جهدتُ كي أعرف كيف ومتى وقعت هذه الأحداث المؤسفة، لكنّ أحداً في عائلتي لا يهتمّ بالوثائق وإذا ما سألتُ أسئلة كثيرة يشعر أقربائي بالإهانة.

لا أريد أن أعطي انطباعاً بأنّه ليس عندنا غير العيوب، إذ أنّ

عندنا أيضاً بعض الفضائل. لنرَ، دعني أفكّر في واحدة... مثلاً نحن شعبٌ له روحُ شاعر. ليس ذنبنا بل ذنب الطبيعة. ما من أحد يُولَدُ ويعيش في طبيعة مثل طبيعتنا يستطيع أن يمتنع عن كتابة الشعر. في تشيلي ترفع حجراً وبدل أن تجد ضبّاً يخرج شاعر أو مغنٍ شعبيّ يكتب أغانيه. نُعجب بهم، نحترمهم ونتحمّل نزواتهم. في الماضي وفي التجمعات السياسية كان الشعب ينشد بأعلى صوته أشعار بّابلو نيرودا، التي كنّا جميعاً نعرفها عن ظهر قلب. وكنّا نفضّل أشعار الحب، لأنّ لدينا نقطة ضعف أمام الشعر الرومانسي. أيضاً تُثيرنا المأساة، والضغينة، والحنين، وخيبة الأمل، والمبارزة، فمساءاتنا طويلة، وأعتقد أنَّ هذا هو سبب تفضيل الموضوعات الحزينة. فإذا ما فات الشعرُ شخصاً فهناك دائماً أشكال أخرى للفن. وجميع النساء اللواتي أعرفهنّ يكتبنَ، يرسمن، ينحتن أو يعملن عدداً من الفنون اليدوية في لحظات فراغهن، القليلة جدّاً. لقد حلّ الفنُّ محل الحياكة. أهدوني من اللوحات والخزفِ حتى لم يعد يتسعُ المرآبُ للسيارة.

وعن مزاجنا أستطيع أن أضيف أنّنا لطيفون، نمضي موزِّعين القبلَ يمنةً ويسرةً. نستقبل، نحن الكبار، بعضنا بعضاً بقبلاتٍ صريحة على الخدّ الأيمن؛ الصغار يقبّلون الكبارَ عند الوصول والوداع، ثمَّ إنّهم ينادون معلّمي المدارس بالعمِّ أو العمّة كما في الصين. الكبار يُقبّلون دون رأفة، بل وضدّ إرادتهم. والنساء يفعلن ذلك فيما بينهنّ، وإن كنّ يمقتن بعضهنّ بعضاً، ويُقبِّلن كلّ من يقع في متناول أيديهنّ من الرجال، دون أن يتمكّن العمرُ أو الطبقة الاجتماعية، أو الصحّةُ من إقناعهنّ بالعدول عن ذلك. وحدهم الذكور في مرحلة الخصب، لنقل بين الرابعة عشرة والسبعين من العمر، لا يُقبِّل بعضهم بعضاً، باستثناء الآباء والأبناء، لكنّهم يتبادلون الربت والعناق على هواهم. للمودّة مظاهر أخرى كثيرة، بدءاً من فتح أبواب البيت لاستقبال من يحضر بغتةً وحتى المشاركة بما يملك المرء. لا يخطر ببالك أن تمدح شيئاً يرتديه شخص آخر،

لأنّه بالتأكيد سيخلعه ليهديه إليك. وإذا زاد طعام على الطاولة، فمن الرقّة تقديمه للضيوف، كي يحملوه معهم تماماً كما أنّه لا أحد يذهب إلى زيارةٍ خالي اليدين.

أوّل ما يُقال عنّا، نحن التشيليين، إنّنا حسنو الضيافة، نفتح أذرعنا وأبواب بيوتنا أمام أوّل تلميحة. وكثيراً ما سمعتُ الزوّارَ الأجانبَ يحكون أنّه إذا ما طلبوا مساعدة لتحديد عنوان رافقهم المطلوب منه شخصياً، وإذا رآهم ضائعين تماماً فهو قادر على أن يدعوهم إلى بيته، ويُقدِّم لهم الطعامَ، بل وحتى السرير في حالة الضيق. ومع ذلك أعترف أنّ عائلتي لم تكن ودّية على وجه الخصوص. هناك خال لي لم يكن يسمح بأن يتنفَّس أحدٌ بجانبه، وجدّي كان ينهال بالعصا على الهاتف، لأنّه كان يعتبر من قلّة الاحترام أن يهتفوا له دون موافقته. كان يعيش غاضباً من ساعي البريد لأنّه كان يأتيه ببريد لم يطلبه، ولم يكن يفتح رسائلَ لا تحمل عنوانَ المرسِل واضحاً. كان أقربائي يشعرون بأنّهم أعلى من بقية البشر، رغم أنّ أسبابهم تبدو لي ضبابية. وحسب مدرسة تفكير جدّي، لا يمكننا أن نثق إلاّ بأقربائنا القريبين، أما بقية البشرية فمشكوك بهم. كان الرجل كاثوليكياً متحمّساً، لكنّه عدوّ الاعتراف لأنّه كان يشكّ بالرهبان ويقول إنّه يستطيع أن يتفاهم مع الله مباشرة ليغفر له ذنوبه. والشيء ذاته كان يُطبِّقه على زوجته وأولاده. ورغم عقدة التفوّق غير المفسّرة فقد استُقبِل الزوار في بيتنا بشكل جيّد، مهما كانوا أوغاداً. بهذا المعنى نُشبه، نحن التشيليين، عربَ الصحراء: الضيف مقدَّس والصداقة ما إن تُعلن حتى تتحوَّل إلى رابطة لا يمكن فكّها.

لا يمكن الدخول إلى مسكن، غنيّاً كان أو فقيراً، دون قبول شيء يؤكل أو يُشرب، حتى ولو كانت فقط كأس شاي صغيرة. هذا تقليد وطني آخر. وبما أنّ القهوة كانت دائماً نادرة وغالية ـ حتى النسكافهِ كان ترفاً ـ كنّا نشرب شاياً أكثر من سكّان آسيا كلّها. لكنّني تبينتُ في زيارتي الأخيرة باندهاشٍ أنّ ثقافة القهوة قد دخلت

أخيراً، والآن أيّ شخص مستعد لدفع ثمنه يجدُ الاكسبرس والكابوتشينو كما في إيطاليا. عرضاً عليَّ أن أُضيف، لطمأنة السياح المحتملين أنّ لدينا أيضاً حمّامات عامّة لا عيب فيها، ومياهاً معبّأة في كلٍّ مكان. وما عاد حتميّ الوقوع بالتهاب الكولون من أوّل جرعة ماء، كما كان يحدث سابقاً. يؤسفني هذا بطريقة ما، لأنّنا نحن الذين تربينا على المياه التشيلية محصّنون ضد كلّ البكتيريات المعروفة والتي في طريقها لأن تُعرف. أستطيع أن أشربَ من مياه الغانج دون تأثيرات ظاهرة على صحّتي، بينما زوجي يغسل أسنانه خارج الولايات المتحدة، ويُصاب بالتيفوئيد. في تشيلي لسنا رقيقين بالنسبة للشاي، فأيّ مغليّ مع قليل من السكر يبدو لنا لذيذاً. ثمّ إنّ هناك أنواعاً لا نهاية لها من الأعشاب المحلية، تُعزى إليها خصائص علاجية، وفي حال الفاقة الحقيقية عندنا «أغويتا بِرّا»، وهي مجرّد ماء ساخن في فنجان مثلوم. أوّل ما نقدِّمه للزائر هو فنجان شاي صغير، كُوَيس من ماء أو كُوَيس من نبيذ، ففي تشيلي نتكلّم بالتصغير، كما يليق بدأبنا على أن نمرُّ دون أن نُلحظ وبرعبنا من التبجح، حتى ولو بالكلام. بعدها نُقدّم ما هو موجود من الطعام، «على مزاج القِدْر»، وهو ما يعني أنّ صاحبة المنزل ستنتزع الخبز من فم أبنائها لتقدّمه للزائر، الذي عليه أن يقبل به. إذا تعلَّق الأمر بدعوة رسمية يمكن توقّع مائدة عامرة، والهدف هو ترك المدعوّين في عسر هضم لعدّة أيّام. بالطبع، النساء يقمن دائماً بالعمل الشاق. الآن توجد عادة أنّ الرجال يطهون وهي مأساة حقيقية، لأنّه بينما هم يحصدون المجد تحصد النساء غسلَ كومةِ القدور والأطباق الوسخة التي يتركونها مكدّسة. المطبخ المعتاد بسيط لأنّ البرّ والبحر كريمان، إذ لا توجد فواكه ولا بحريات ألذّ من فواكهنا وبحرياتنا، هذا ما أستطيع أن أُقسِم عليه. وكلّما صَعب الحصول على المكونات كلّما كان الطعام أكثر تصنيعاً وحرّاً كما يحدث في الهند والمكسيك، حيث توجد ثلاثمئة طريقة لتحضير الأرز. نحن عندنا طريقة واحدة فقط، وتبدو لنا أكثر من

كافية. الإبداع الذي لا نحتاجه لاختراع أطباق أصيلة نستخدمه في أسماء الأطباق التي يمكن أن تدفع بالأجنبي لأن يظنّ أسوأ الظنون: مجانين مخبوزون، جبن الرأس، رصيص الدم، نخاع مقلي، أصابع السيِّدة، ذراع الملكة، زفرة الراهبة، أطفال ملفوفين، سراويل ممزّقة، ذيل القرد، إلخ.

نحن أناس نملك روح دعابة ونحبّ أن نضحك، رغم أنّنا نفضّل في أعماقنا الجدّية. عن الرئيس خورخِهْ ألِسّاندري (1958 - 1964)، العازب العصابي، الذي كان لا يشرب غير الماء ولا يسمح بالتدخين في حضوره، ويمضي صيفاً وشتاءً بالمعطف واللفاع، كان يقول الناس عنه بإعجاب: «كم هو حزين السيّد خورخِهْ!» وكان هذا يُطمئننا، فهذه علامة تدل على أنّنا في أيدٍ أمينة: يدا رجلٍ جَدّي، أو ما هو أفضل من ذلك، يدا عجوز مكتئب، لا يُضيع وقتَهُ في سعادة غير مُجدية. هذا لا يعني أنّ المأساة لا تبدو لنا مسلية، لأنّنا نهذّب روح الدعابة، حين لا تكون الأمور على ما يرام؛ وبما أنّه يبدو لنا أنّها دائماً ليست على ما يرام، فإنّنا نضحك كثيراً. وهكذا نُوازن قليلاً ميلنا للشكوى من كلّ شيء. إنّ شعبية شخصية ما تُقاس بالنكاتِ التي يُثيرها؛ يقولون إنّ الرئيس سالفادور ألليندي كان يخترع نكات عن نفسه - بعضها عالي الوتيرة - ويطلقها لتدور. حافظتُ لسنوات كثيرة على عمود في مجلّة وعلى برنامجٍ تلفزيوني بهدف فكاهي، وقد تم تحمّلهما، لأنه لم يكن هناك منافسة كبيرة، ذلك لأنّه حتى البهلوانات في تشيلي كئيبون. بعد سنوات، حين بدأتُ أنشر عموداً مشابهاً لصحيفة في فنزويلا، وقع وقعاً بائساً، وقد ألقيت على نفسي كومةً من الأعداء لأنّ الفكاهة في فنزويلا أكثر مباشرة وأقل قسوة.

تتميَّز عائلتي بالمزاح الثقيل لكنّها تخلو من الرِّقّة في مسألة الفكاهة، والنكات الوحيدة التي أفهمها هي قصص السيّد أوتّو

الألمانية. لِنَرَ واحدة منها: آنسة أنيقة جدّاً تضرط ولكي تموّه ذلك تُصدر ضجة بحذائها، وعندئذ يقول لها السيّد أوتّو (بنبرة ألمانية): «ستكسرين حذاءً وستكسرين آخر، لكنك لن تُصدري صوتاً كالذي أصدرته من دبركِ». وبينما أنا أكتب هذا أبكي من الضحك. حاولتُ أن أحكيها لزوجي لكنّ السجع لا يمكن ترجمته، ثمّ أنّه ليس للنكتة العنصرية في كاليفورنيا أيّة فكاهة. تربيت على نكات جليقية ويهودية وتركية. مزاجنا أسود، لا نترك مناسبة نسخر فيها من الآخر، كائن من يكون، تفوتنا: صمّ بكم، متخلّفون عقلياً، مصابون بداء الصرع، ملونون، لوطيون، رهبان «بؤساء» ألخ. عندنا نكات عن كلّ الأديان والأعراق. سمعتُ لأوّل مرّة تعبير «صحيح سياسيّاً»(*)، وأنا في الخامسة والأربعين من عمري ولم أتمكن من أن أشرح لأصدقائي أو أقربائي في تشيلي ما تعنيه. أردتُ ذات مرّة أن أحصل في كاليفورنيا على كلب من النوع الذي يدربونه للعميان، لكنّها كانت مستبعدة لأنّ الكلاب لا تمرّ بتجارب التدريب القاسية. فحدث أن خطرت لي فكرة أن أذكر في طلبي واحداً من الكلاب «المرفوضة»، وعند عودة البريد تلقيت ملاحظة جافّة، يُعلمونني فيها أنّ كلمة «مرفوض» لا تستخدم، بل يُقال: «لقد بدّل الحيوان مسيرته». ليشرح أحدنا هذا في تشيلي إن استطاع!

زواجي المختلط من غرينغو أمريكي لم يكن سيئاً تماماً، فنحن نتفق، رغم أنّه ما من أحد منا يملك، في معظم الوقت، فكرة عما يتكلّم الآخر. لأنّنا دائماً مستعدان لأن نتبادل منفعة الشك. أكبر عثرة هو أنّنا لا نتشاطر روح الدعابة، فويلي لا يستطيع أن يُصدِّق أنّني عادة ما أكون ظريفةً ومن ناحيتي ولا أعرف أبداً من أيّة شياطين يضحك هو. الشيء الوحيد الذي يسلينا معاً هي خطب الرئيس جورج دبل يو بوش المرتجلة.

(*) العبارة باللغة الإنكليزية politically correct.

حيث يولد الحنين

كثيراً ما قلتُ إنّ حنيني يبدأ مع الانقلاب العسكري عام 1973، حين تبدّل بلدي إلى حدٍّ أنّني لا أستطيع التعرف عليه. إلاّ أنّ هذا يجب أن يكون قد بدأ في الحقيقة قبل ذلك بكثير. لقد وُسِمَت طفولتي وشبابي بالأسفار والوداع. ولا أكاد أنشرُ جذوري في مكان، حتى أُضطَرّ لأن أحزم حقائبي وأمضي إلى مكانٍ آخر.

كنتُ في التاسعة من عمري حين غادرتُ بيت طفولتي، وودّعتُ بكثير من الحزن جدّي الذي لا يُنسى. ولكي أتسلّى خلال رحلتي إلى بوليفيا أهداني العمُّ رامون خريطةً للعالم وأعمال شكسبير الكاملة المترجمة إلى الإسبانية، التي تجرّعتها على عجلٍ وأعدتُ قراءتها أحياناً وما زلتُ أحتفظ بها. كانت تسحرني قصصُ الأزواجِ الغيورين الذين يقتلون زوجاتهم من أجل منديل، والملوكِ الذين يدسّ لهم أعداؤهم السمَّ في آذانهم، والعشّاقِ الذين ينتحرون بسبب وصال غير مناسب. (كم سيكون روميو وجولييت مُخْتَلِفَين لو كان لديهما هاتف!) شكسبير هو الذي أطلعني على قصص الدم والعاطفة، الطريق الخطيرة بالنسبة إلينا، نحن المؤلفين، الذين علينا أن نعيش في عصر الحدِّ الأدنى. اليوم الذي أبحرنا فيه من ميناء بالبارايسو، في طريقنا إلى مقاطعة أنتوفاغاستا، حيث أخذنا القطار إلى لا بّاز أعطتني أُمّي دفتراً وتعليماتٍ للبدء بكتابة يوميات سفر. منذ ذلك الوقت كتبتُ يومياً تقريباً؛ إنّها العادة المتجذّرة فيَّ. ومع تقدّم

القطار، كان المنظرُ يتبدّلُ وشيءٌ في داخلي يتمزّق. فمن جانبٍ كنتُ أشعر بالفضول أمامَ الجديد الذي يمرّ أمام عينيَّ، ومن جانبٍ آخر أشعرُ بحزن لا يُحتمَل، راح يتبلور في داخلي. كنّا نشتري في القرى البوليفية الصغيرة التي يتوقّف فيها القطارُ عرانيسَ ذرة، خبزاً مرقوقاً، بطاطا سوداءَ تبدو متعفّنة، وحلوى لذيذة تُقدّمها إلينا الهنديات البوليفيات بتنوراتهن الصوفية، متعدّدةِ الألوان، وقبعاتٍ فطرية الشكل سوداء، مثل المصرفيين البريطانيين. كنتُ أكتبُ في دفتري بعنادِ كاتبٍ بالعدل، كأنّني شعرتُ منذ ذلك الوقت بأنّ الكتابة وحدها تستطيع أن ترسو بي في الواقع. كان العالم يظهر من النافذة مُشوّشاً بالغبارِ العالق على البلور ومشوهاً بسرعة الرحلة.

هزّت تلك الأيّامُ مخيّلتي. سمعتُ قصصَ أرواحٍ وشياطينَ تطوفُ في القرى المهجورة، ومومياءات مستخرجة من قبور مدنسة، قصصَ تلالِ جماجم بشرية، بعضها عمره أكثر من خمسين ألف سنة، معروضة في المتاحف. كنتُ قد تعلّمتُ في درسِ التاريخ في المدرسة أنّ الإسبان الأوائلَ، الذين وصلوا من البيرو إلى تشيلي في القرن السادس عشر ساروا شهوراً في القِفار؛ وأتخيّل تلك الحفنة من الجنودِ بدروعهم المحمرّة وخيولهم المنهكة، وعيونهم الهاذية، يتبعهم آلافُ الهنود الأسرى يحملون المؤنَ والأسلحة، كانت مأثرة ذات بسالةٍ لا حدود لها، وطموحٍ مجنون. قرأت لنا أمّي بعضَ الصفحاتِ عن الهنود الأتاكاميين وآخرين، خاصّة الكِتشويين والأيماريين(*) المختفين، الذين تعايشنا معهم في بوليفيا، ورغم أنّني لم أكن أستطيعُ التكهّنَ إلاّ أنّ مصيري كصعلوكة بدأ في تلك الرحلة. اليومياتُ ما زالت موجودة حتى الآن، يحتفظ بها ابني

(*) الأتاكاميون هم سكّان منطقة أتاكاما في تشيلي، والكِتشويون هم السكان الأصليون الذين كانوا يسكنون المنطقة الممتدة من شمال كوثكو إلى غربيّها في البيرو، والأيماريون هم السكان الأصليون لأعالي البيرو، ويعتقد أنّ سلالة الأنكيين تنحدر منهم.

مخبّأةً، ويرفض أن يريها لي، لأنّه يعلم أنّني سأمزقها. ندمتُ على أشياء كثيرة كتبتُها في شبابي: قصائد مرعبة، قصص مأساوية، ملاحظات انتحار، رسائل حبّ مرسلة إلى عشاق غير محظوظين، وخاصّة تلك اليوميات المتكلّفة (حذارِ، أيّها المتطلعون لأن تصبحوا كتّاباً، فليس كلّ ما يُكْتَبُ يستحقّ أن يُحتفظ به لصالح الأجيال المستقبلية). حين أعطتني أمّي ذلك الدفتر حدسْتُ بأنَّ جذوري التشيلية ستضيع، ونظراً لعدم وجود تربةٍ أزرعُها فيها كان عليّ أن أفعل ذلك على الورق. وبدءاً من تلك اللحظة، كتبتُ دائماً. حافظتُ على مراسلة جدّي، وخالي بابلو وآباءِ بعض صديقاتي، السادة الصبورين، الذين كنتُ أروي لهم انطباعاتي عن لا بّاز، ومساكنها البنفسجية، وهنودها الكتومين وهوائها العليل، الذي يجعل الرئتين توشكان دائماً على أن تمتلئا زبداً والعقلَ هلوسةً. لم أكتبُ لأطفالٍ من عمري بل للكبار فقط لأنّهم كانوا يجيبونني.

عشتُ في طفولتي في بوليفيا ولبنان، متبعةً المصيرَ الدبلوماسيَّ لـ «الرجلِ الأسمر ذي الشارب»، الذي طالما بشّرتني به الغجريات. تعلّمتُ شيئاً من الإنكليزية والفرنسية، كما تعلّمتُ هضمَ طعامٍ مريبِ الشكلِ، دون أن أَسأل. كانت تربيتي فوضوية كي أذكر الأشيَاء الصغرى، لكنّني عوّضت فجوات المعلومات الرهيبة بقراءة كلّ ما كان يقع بين يديَّ بنهم سمكة الضاري. سافرتُ في سفنٍ وطائراتٍ وقطاراتٍ وسياراتٍ، وأَنا أكتب دائماً رسائلَ أُقارِن فيها ما أراه بمرجعي الوحيد والخالد: تشيلي. لم أكن أنفصل عن مصباحي الكهربائي الذي استخدمتُه للقراءة حتى في أحلك الظروف، ولا عن دفتر تسجيل الحياة.

انطلقنا، بعد قضاء سنتين في لا بّاز، كأنّنا أسرّةٌ وحقائب في طريقنا إلى لبنان. كانت سنواتُ بيروت سنواتِ عزلة بالنسبة إليَّ،

وكنتُ سجينة البيت والمدرسة. كم اشتقتُ لتشيلي! في العمر الذي كانت ترقصُ فيه الفتياتُ الروك أند رول كنتُ أقرأُ الرسائل وأكتبُها. علمتُ بوجودِ إلفيس برسلي حين أصبح بديناً. كنتُ أرتدي فستاناً رمادياً صارماً، كي أزعجَ أمّي الغندورة والأنيقة دائماً، بينما أحلم مستيقظةً بأمراء يهبطون من النجوم، يُخلّصونني من حياة دهمائية. كنتُ في استراحات المدرسة أتحصّن خلفَ الكتاب في آخر زاويةٍ من الباحة كي أُخفي خجلي.

انتهت مغامرةُ لبنان فجأة في العام 1958، حين نزل مارينز الأسطولِ السادس الأمريكي للتدخّل في أحداث العنف السياسي، التي مزّقت ذلك البلد بعد قليل. كانت الحرب الأهلية قد بدأت قبل أشهر، ويُسمع صوت الرصاص والصياح، وتظهر الفوضى في الشارع والخوف في الجوّ. كانت المدينة مقسّمة إلى قطّاعاتٍ دينية، تتواجه بحقدٍ متراكم خلال قرون، بينما الجيش يُحاول فرض الأمن. أغلقت المدارس أبوابها الواحدة بعد الأخرى، باستثناء مدرستي لأنّ مديرتنا الباردة قرَّرت أنّ الحرب ليست من اختصاصها لأنّ بريطانيا لا تُشارك فيها. للأسف لم يستمر الوضع طويلاً: فالعمّ رامون، الخائف من المظهر الذي راح يأخذه التمرّد، أرسلَ أُمّي مع الكلبِ إلى إسبانيا، وأعادنا، نحن الأطفال، إلى تشيلي. بعدها عُيِّن هو وأمي في تركيا، وبقينا نحن في سانتياغو، أخوتي في مدرسة داخلية وأنا مع جدّي.

وصلتُ إلى سانتياغو وأنا في الخامسة عشرة من عمري، مشوّشةً لأنّه مضى عليّ عدّة سنوات في الخارج وقد قطعتُ اتصالاتي بأصدقائي وأبناء أخوالي، ثمَّ إنّ لهجتي صارت غريبة، وهذه مشكلة في تشيلي، حيث يأخذ الناس موقعهم في طبقاتهم الاجتماعية حسب طريقتهم في الكلام. بدت لي سانتياغو الستينات ريفيةً إلى حدّ كافٍ، مقارنةً، مثلاً، بفخامة بيروت، التي كانت تتفاخر بأنّها باريس

الشرق الأوسط. لكنّ هذا لا يعني أنّ الإيقاعَ كان هادئاً، فالسانتياغيون كانوا يسيرون مستنفري الأعصاب؛ والحياة صعبة وغير مريحة، والبيروقراطية خانقة، والدوام طويل، لكنّني وصلت مُصَمِّمَةً على أن أتبنى تلك المدينة في قلبي. فقد تعبت من وداع الأماكنِ والأشخاص، ورغبتُ بغرس جذوري وألاّ أُغادر بعدها. أظنُّ أنّني عشقتُ البلدَ بسبب الحكايات التي كان يحكيها لي جدّي، والطريقةِ التي كنّا نجوب بها الجنوب معاً. علّمني التاريخَ والجغرافيا، أراني خرائط، وأجبرني على قراءة مؤلِفين وطنيين، وصَحَّح لي النحو والإملاء. كان يفتقِرُ للصبر كمعلّم، وتفيض عنه الصرامة؛ وأخطائي تجعله يشتاطُ غضباً، لكنّه إذا ما رضي عن واجباتي كافأني بقطعةٍ من جبن كامِبِرتْ، الذي يتركه ينضج في خزانته؛ والتي ما إن يفتح بابها حتى تغزو الحيَّ رائحةُ حذاءِ جنديٍ متعفّن.

كنّا أنا وجدّي ننسجِم تماماً لأنّ كلينا يحبّ الصمت؛ وقد نقضي ساعاتٍ الواحد بجانب الآخر نقرأ أو نتأمّل سقوطَ المطر من النافذة دون أن نشعر بالحاجة للكلام لمجرَّدِ الكلام. أعتقد أنّنا كنّا نستلطف ونحترم بعضنا بعضاً. أكتب هذه الكلمة ـ نحترم ـ ببعض التردّد، لأنّ جدّي كان متسلطاً وفحولياً ومعتاداً على معاملة النساء كأزهار حساسة، لكنّ فكرة احترامهنّ فكريّاً لم تكن تخطر بذهنه. وكنتُ في الخامسة عشرة من عمري قويّةَ العين، مشاكسةً ومتمردة، أناقشه ندّاً لندّ. وهذا ما كان يثير فضوله؛ فيبتسم مرحاً حين أتعلّل دفاعاً عن حقّي بأن تكون لي حرّيّة أخوتي وتربيتهم، وكان على الأقل؛ يُصغي إليَّ. ومما يجدرُ ذكره أن المرّة الأولى التي سمع فيها كلمة «فحولي» كانت من فمي. لم يكن يعرف معناها، وحين وضّحتُها له كاد يموت من الضحك؛ ففكرة أنّ يكون للسلطة الذكورية، الطبيعيةِ كالهواء الذي نستنشق، اسمٌ، بدت له نكتة ذكيّة جدّاً. حين بدأت أناقش تلك السلطة ما عاد يستلطفها، لكنّني أعتقدُ

أنّه فهم، بل وربّما أُعجِب برغبتي بأن أكون مثله، قويةً ومستقلة، لا ضحيةً للظروف مثل أمّي.

استطعتُ أن أصبح مثل جدّي تقريباً، لكنّ الطبيعة خانتني: ظهر لي ثديان ـ مثل حبّتي خوخ فوق ضلوعي تقريباً ـ وذهبَ مشروعي إلى الشيطان. شكّلَ الانفجارُ الهرموني بالنسبة إليّ كارثةً. أصبحت خلال أسابيع صبيّةً معقّدة، حاميةَ الرأسِ بالأحلام الرومانسية، همّي الأساسي جذب الجنس الآخر، المهمّة غير السهلة لأنّني كنتُ أخلو من أدنى حدود السحر، وأمضي حانقة بشكلٍ دائم تقريباً. لم أكن أستطيع أن أخفي ازدرائي لغالبية الفتيةِ الذين عرفتُهم، لأنّه بدا لي واضحاً أنّني أكثر فهماً منهم. (احتجتُ عدّة سنوات كي أتظاهر بالغباء لأُشعِرَ الرجال بأنّهم متفوقون. يجب أن يرى المرء كم من العمل يتطلّب هذا!). قضيتُ تلك السنوات مشتّتة بين الأفكار المناصرة للمرأة التي كانت تغلي في ذهني، دون أن أتمكّن من التعبير عنها بطريقة مفصّلة، لأنّه لم يكن هناك من سمع بشيء من هذا في وسطي، وبين الرغبة بأن أكون مثل بقية أترابي، أي أن أكون مقبولةً، مشتهاةً، مُستمَالة ومحمية.

كان من نصيب جدّي المسكين أن يُصارع المراهقةَ الأكثر شقاءً في تاريخ البشرية. لا شيء مما كان يقوله العجوزُ المسكين واساني. لا يعني هذا أنّه قال أشياء كثيرة. فقد كان أحياناً يهمهم بأنّني مقبولة كي أكون امرأة، لكنّ هذا لم يُغيّر رأيه بأنّه يُفضّل لو أنّني رجل، لأنّه كان في هذه الحالة سيعلّمني استخدامَ أدواته. على الأقل استطاع أن يتخلّص من فستاني الرمادي بالطريقة البسيطة بأن أحرقه في فناء الدار. أثرتُ فضيحة، لكنّني شعرتُ في أعماقي بالامتنان له، رغم ثقتي بأنّه ما من رجلٍ بذلك اللباس الرمادي المضحك أو بدونه سينظر إليَّ. ومع ذلك حدثت معجزة بعد أيّام قليلة: فقد كاشفني أوّلُ فتى، ميغِل فريّاس، بحبِّهِ. كنتُ من القنوط

بحيثُ تمسّكت به مثل سرطان، ولم أفلته قط. تزوّجنا بعد خمس سنوات، وأنجبنا ولدين وبقينا معاً خمساً وعشرين سنة. لكنّ عليّ ألا أستبق...

في تلك الأثناء كان جدّي قد تخلّى عن الحِداد وعاد ليتزوج من سيّدة لها مظهر إمبراطوري، يجري في عروقها دم أولئك المستوطنين الألمان، الذين وصلوا، في القرن التاسع عشر من شوارزوولد(*) ليقطنوا الجنوب. كنّا نبدو ونتصرّف، بالمقارنة معها، كمتوحشين. كانت زوجة جدّي الثانية فالكيرية(**) متسلطة، طويلة، بيضاء، وشقراء، تتمتع بمقدّمة منتفخة ومؤخّرة لا تُنسى. ولا بدّ أنّها تحمّلت أن جدّي كان يتمتم في نومه باسم زوجته الأولى، ويُصارع أسرةَ حميه التي لم تقبل بها قط قبولاً تامّاً؛ وجعلت حياتها في كثيرٍ من الأحيان مستحيلةً. يؤسفني أن يكون الأمر كذلك لأنّ شيخوخة البطريرك كانت ستصبح موحشة جدّاً بدونها. كانت ربَّة منزلٍ وطاهية رائعة، لكنّها أيضاً أمّارة واقتصادية، وغير قادرة على تفهُّم مزاج عائلتنا الأعوج. أبعدت خلال حكمِها الفاصولياء والعدس والحمّص، الأكلات الأبدية من المطبخ، وكانت تحضّر أطباقاً ناعمة تغمرها بناتُ زوجها بالصلصة الحارّة قبل أن يتذوقنها. كما كانت تُطرِّز مناشفَ متقنة يستخدمونها لنزع الطينِ عن الأحذية. أتصوّرُ أن غداءات أيام الآحاد مع أولئك البرابرة شكّلت معاناةً لا تحتمل بالنسبة إليها، لكنّها حافظت عليها عقوداً، كي تبرهن لنا أنّنا لن نستطيع هزيمتها مهما فعلنا. هي التي انتصرت في صراع الإرادات ذاك دون مواجهة.

(*) في الإسباني Selva Negra، وهي منطقة Schwarzwald الألمانية التي تغطيها غابات التنوب والصنوبر ومعناها الغابة السوداء كما يدلّ على ذلك في الترجمة الإسبانية لها: سِلبا نِغرا.

(**) نسبة إلى ساقية الأبطال في جنّة الجرمان القدماء.

لم تُشارك هذه السيّدة الكريمة في التواطؤ بيني وبين الجدّ، لكنّها كانت تُرافِقنا ليلاً حين كنّا نستمع إلى رواية رعبٍ إذاعيةٍ والنور مُطفأ، هي تحيك غيباً، غير مبالية، وأنا وهو ميتان من الخوف والضحك. كان العجوز قد تصالح مع وسائل الاتصال، ولديه مذياع ضدّ الطوفان، يبدو أنّه ركّبه بنفسه أثناء النهار. وبمساعدة «معلّم» وضع هوائياً وبعض الكابلات الموصولة إلى مُدَّخِرة معدنية، بهدف التقاط اتصالات من خارج الكوكب، نظراً لأنّ جدّي لم يعد قادراً على استحضارهم في جلساته.

في تشيلي توجدُ مؤسّسة «المُعلّم» كما نسمّي أيَّ شخص (لا يكون امرأة أبداً) يملك تحت سيطرته زرديّة وسلكاً. إذا كان الأمر يتعلّق بشخصٍ بدائي تماماً، نادبناه بودٍّ «معلم كبّة الغزل» أو «معلم» فقط، وهو اللقب المشرّف الذي يُعادل «المجاز». فبزردية وسلك، يستطيع الرجل الصغير أن يركّب بدءاً من مغسلة اليدين البسيطة وحتى توربين الطائرة؛ فإبداعه وذكاؤه غير محدودين. لم يحتج جدّي في معظم حياته المديدة للجوء إلى أحدٍ من هؤلاء الاختصاصيين، لأنّه لم يكن قادراً على إصلاح أيّ عطب وحسب، بل وكان يصنع معدّاته ذاتها أيضاً، لكنّه في شيخوخته حين لم يعد باستطاعته أن يقرفص أو يرفع ثقلاً، صار عنده «معلّم»، يزوره عادة ليعمل بين جرعة جنٍّ وأخرى. في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث اليد العاملة غالية جدّاً، نصف السكان الذكور يملكون مرآباً مليئاً بالمعدات، ويتعلّمون منذ سن الشباب قراءةَ دفاتر التعليمات. زوجي، المحامي مهنةً، عنده مسدس يُطلق مسامير، وآلة تقطع الحجر وأخرى تتقيّأ من خرطوم إسمنتاً. كان جدّي استثناءً بين التشيليين، لأنّه ما من أحدٍ من الطبقة الوسطى وما فوقٍ يعرف فكّ شيفرة دفترِ تعليمات، كما أنّه لا يوسّخ يديه بشحم المحرّك: لهذا وُجِدَ «المُعلّمون»، الذين يستطيعون أن يرتجلوا أكثر الأدوات تواضعاً بأدنى حركة منهم. أعرفُ واحداً سقط من الطابق التاسع وهو يُحاول أن يركّب نافذةً، وخرج بمعجزة سليماً. صعد في

المصعد متلمساً كدماته ليعتذر لأنّ الجاكوش انكسر. لم تخطر بباله قط فكرة استخدام حزام الأمان أو أخذ تعويض.

كان يوجدُ في عمق حديقة جدّي بيت صغير، بنوه دون شكّ للخادمة، حيث وضعوني. ولأوّل مرّة في حياتي ملكت خصوصيتي وصمتي، الترف الذي أدمنته. كنتُ أدرس نهاراً وأقرأ ليلاً رواياتِ الخيال العلمي الصغيرة في طبعاتِ جيب، أستأجرها ببعض السنتيمات من كشك الزاوية. كنتُ مثل كلّ المراهقين التشيليين آنذاك أمضي حاملةً تحت ذراعي الجبل السحري وذئب البوادي، كي أُدهِش الآخرين؛ ولا أتذكّر أنّني قرأتهما. (ربّما كانت تشيلي البلد الوحيد الذي طبِعت فيه أعمال توماس مان وهِرمان هيسّه طبعات جيب أبدية، رغم أنّني لا أستطيع أن أتصوّر أنّنا نشترك معهما بنرسيس وغولدموند، مثلاً). وقعتُ في مكتبة جدّي على مجموعة من الروايات الروسية والأعمال الكاملة لِـ هنري توريات الذي كتبَ مآثر عائلية طويلة عن الحياة في روسيا قبل الثورة وخلالها. قرأتُ هذه الأعمال مرّاتٍ كثيرةً وبعد سنواتٍ سمّيتُ ابني نيكولاس تيمناً بشخصية من شخصيات توريات، وهو شابٌ ريفي، مثل شمس صباح، يعشق زوجةَ سيّده، ويُضحّي بحياته لأجلها. إنّها قصّة رومانسية إلى حدّ أنّ رغبةً بالبكاء تنتابني حتى الآن كلّما تذكرتُها. هكذا كانت وما زالت كتبي المفضّلة: شخصياتٌ شغوفة، قضايا نبيلة، أماكن نائية بائسة الطقس، مثل سيبيريا أو إحدى الصحارى الأفريقية، أي الأماكن التي لا أفكّر بزيارتها أبداً. الجزر الاستوائية ممتعة في الإجازات، لكنها كارثة للأدب.

كما كنتُ أكتب يومياً لأمّي في تركيا. كانت الرسائل تتأخّر شهرين في الوصول، لكنّ هذا لم يكن قط مشكلة بالنسبة إلينا، نحن المهووستين بجنس الرسائل، لقد تكاتبنا يومياً تقريباً خلال خمسة وأربعين سنة مع التعهد المتبادل بأنّ تمزّق أيّ منا عند موتها جبل رسائل الأخرى المكدّسة، ولولا هذه الضمانة ما استطعنا أن نكتب

بحرّية، ولا أريد أن أُفكِّر بالمأساة التي ستحدثُ، إذا ما وقعت هذه الرسائل، التي نتكلّم فيها بشكل سيّئ عن الأقارب وبقية العالم، في أيدٍ طائشة.

أتذكَّر شتاءات المراهقة تلك، حين كان المطر يُغرِق الفناء ويدخل من تحت أبواب بيتي الصغير، وتُهدِّد الريح بسرقة السقف وتهزّ الرعود والبروق العالم. لو استطعت أن أبقى سجينةً هناك، أقرأ طوال الشتاء، لأصبحت حياتي تامّة. لكن كان عليَّ أن أذهبَ إلى الدروس. كنتُ أكره انتظار الحافلة، وأنا منهكة وقلقة، لا أدري هل أحسب نفسي بين المحظوظين الذين يتمكنون من أخذها، أم بين المغلوبين على أمرهم، الذين يبقون في الأسفل وعليهم انتظار الحافلة التالية. كانت المدينة قد توسَّعت ومن الصعب الانتقال من نقطة إلى أخرى، والصعودُ إلى حافلةٍ (ميكرو باص) يوازي عملية انتحارية. ثمّ وبعد انتظار ساعاتٍ، إلى جانب قرابة العشرين مواطناً يائساً الواحد قرب الآخر، تحت المطر أحياناً وأقدامنا في غمرٍ من الوحل، علينا أن نقفز مثل أرنب حين تقترب السيارة، ساعلة ونافثةً الدخان من المدخنة، كي نتعلق بالقبضة أو ثيابِ الركاب الآخرين الذين تمكّنوا من وضع أقدامهم في الباب. منطقياً تغيَّر هذا. انقضى أربعون عاماً وسانتياغو الآن مختلفة تماماً عن تلك. الحافلات (الميكروات) اليوم سريعة وحديثة وكثيرة. المشكلة الوحيدة هي أنّ السائقين يتنافسون في الوصول أوّلاً إلى الموقف واقتناص أكبر عددٍ من الركابِ، بحيثُ أنّ الحافلات تطير في الشوارع ساحقةً ما يقف أمامها. يكرهون طلابَ المدارس لأنّهم يدفعون أقل، والشيوخَ لأنّهم يتأخرون كثيراً في الصعود والهبوط، وهكذا يفعلون المستحيل كي يمنعوهم من الاقتراب من آلياتهم. من يرغب بمعرفة مزاج التشيلي عليه أن يستعمل النقل العام في سانتياغو، ويسافرَ بالحافلة في البلد، فالتجربة تُعلّم كثيراً. يصعد إلى الحافلات مغنون عميان، وباعة إبرٍ وتقويماتٍ وصورِ قديسينَ

وأزهار، وكذلك سحرة وبهلوانات ولصوص ومجانين ومتسوّلون. يمضي التشيليون بشكل عام بمزاج سيِّئ، ولا يتبادلون النظرات في الشارع، لكن في الحافلة ينشأ تضامن إنساني، كالذي كان يحدث في الملاجئ المضادة للقصف الجوّي في لندن أثناء الحرب العالمية الثانية.

كلمة أخرى حول المرور: التشيليون، الجبناء واللطيفون على المستوى الشخصيّ، يتحوّلون إلى وحوش حين يملكون مقودَ سيارة بين أيديهم: يسرعون ليروا من يصل أوّلاً إلى الإشارة الحمراء التالية، يتسلّلون منتقلين من مسربٍ إلى آخر دون أن يعطوا إشارة، ويتشاتمون صارخين، أو مومئين. معظم شتائمنا تنتهي بعلامة التكبير، بطريقة يأتي وقعها كالفرنسية(*)، وبيدٍ في وضعية من يطلب صدقة إشارة إلى حجم أعضاء الخصم الجنسية. يُستَحقّ أن يُعرف هذا، كي لا يرتكبَ المرءُ حماقةً وضع قطعةً نقدية فيها.

قمت مع جدّي ببعض الرحلات التي لا تُنسى إلى الشاطئ والجبل والصحراء. أخذني مرّتين إلى زرائبِ الأغنام في بّاتاغونيا الأرجنتينية، وحدثت ملاحمَ أوديسية حقيقية في القطار، وسياراتِ الجيب، وعرباتِ الثيران وعلى متن الجواد. كنّا نسافر نحو الجنوب، نجوب غاباتِ الأشجار المحلية، حيث المطر الدائم، ونبحرُ في مياه البحيرات العذراء التي تعكس البراكين الثلجية كأنّها مرايا، نخترقُ جبال الأند شديدةَ الانحدار عبر دروب خفيّة يستخدمها المهربون. وعلى الطرف الآخر كان يأخذنا بغّالون أرجنتينيون، رجال خشنون وصموتون، ماهرو الأيدي ومدبوغو الوجوه كجِلدِ جزماتهم. كنّا نُخيّم تحت النجوم، نلتحف بطانيات قشتالية ثقيلة، ونستخدمُ

(*) علامة التكبير المقصودة هي اللاحقة ón التي تلحق بالاسم أو الصفة، مثل Cabezón التي تعني كبير الرأس وعنيد.

الأسرجة وسادات. كان البغالون يذبحون خروفاً صغيراً ويشوونه بقضيب، ونأكله مسقّى بالمتة، ونشربُ شاياً أخضرَ، مرّاً يُقدَّم إلينا في قرعة تنتقل من يدٍ إلى أخرى، والجميع يمصون بالمصاصة المعدنية ذاتها المشبعة باللعاب والتبغ الممضوغ. لم يكن جدّي يؤمن بالجراثيم للسبب ذاته الذي جعله لا يؤمن بالأشباح: فهو لم يرها قط. وعند الفجر كنّا نغتسل بالماء المتجمد وقطعة صابون صفراء ضخمة، مصنوعة من شحم الغنم والصودا الكاوية. لقد خلّفت هذه الرحلات عندي ذكرى لا تُمحى، فاستطعتُ بعد خمس وثلاثين سنة أن أصف التجربة والمشهد دون تردّد، حين رويتُ قصة هرب أبطالي في روايتي الثانية، «عن الحبّ والظلال».

سنوات شباب مشوّشة

في طفولتي وشبابي كنتُ أرى أمّي ضحيةً، وقرّرت، في وقتٍ مبكرٍ جدّاً، أنّني لا أريد أن أسير على خطواتها. كان يبدو لي أنّ كوني وُلِدت امرأةً سوء حظّ جليّ؛ وأن يكون الإنسان رجلاً يبدو أسهل بكثير. هذا ما جعلني أصبح من أنصار المرأة قبل أن أكون قد سمعتُ بهذه الكلمة. رغبتي بأن أكون مستقلّةً، وأن لا يتأمّر عليّ أحدٌ هي من القدم بحيث أنّني لا أتذكّر لحظةً واحدةً لم أوّجه فيها قراراتي. حين أنظرُ إلى الماضي أُدرك أنّ قدراً سهلاً صادف أمّي، والحقيقة أنّها تصدّت له بشجاعة كبيرة، لكنّني حكمتُ عليها وقتذاك، بالضعفِ، لأنّها كانت تتبع الرجال من حولها مثل أبي وأخيها بّابلو، اللذين كانا يتحكّمان بالمال ويصدران الأوامر. المرّات الوحيدة التي كانا يعتنيان بها هي حين كانت مريضة، لذلك مرضت كثيراً. بعدها اقترنت بالعمّ رامون، وهو رجل ذو صفات رائعة، لكنّه فحولي مثل جدّي وأخوالي وبقيّة التشيليين بشكل عام.

كنتُ أشعرُ بالاختناق، وبأنّني أسيرةُ نظامهم الصارم، كما كنّا جميعنا، خاصّة النساء اللواتي أحَطْنَ بي. لم يكن من الممكن القيام بخطوة واحدة خارج الأعراف، وكان عليَّ أن أتصرّف مثل البقيّة، وأن أنصهر في الغفالة أو أن أواجهَ السخرية. كان يفترض أن أتخرّج من الثانوية، وأبقي على رسن خطيبي قصيراً وأتزوّج قبل الخامسة والعشرين ـ بعدها ما من أمل ـ وأنجبَ أطفالاً بسرعةٍ كيلا يُفكّر أحدٌ بأنّني أتناول مانع حمل. بالمناسبة، عليّ أن أوضّح أنّه

كانت قد اخترعت للتو الحبّة الشهيرة، المسؤولة عن الثورة الجنسية، لكنّهم في تشيلي كانوا يتكلّمون عنها همساً؛ فالكنيسة سبقَ وحرّمتها ولا يمكن الحصول عليها إلاّ بوساطة طبيبٍ صديق وليبرالي الفكر، ما دام ممكناً تقديم وثيقة زواج. العازبات كنَّ يتقلّين لأنّ الرجالَ التشيليين المستعدين لاستعمال الواقي قليلون. وفي الدليل السياحي كان عليهم أن ينصحوا الزائرات بأن يحملن واقياً في حقيبتهن، لأنّهنّ لن يعدمن فرصَ استخدامه. إنّ إغواء أيّة امرأة في مرحلة الإخصاب بالنسبة إلى التشيلي أمر يَتَعَلّق بالضمير. رغم أنّ أبناء بلدي يرقصون بشكل عام بشكل بائس، ويتكلمون بشكل جميل جدّاً، فهم من أوائل من اكتشف أنّ نقطةَ الإثارة موجودة في أذنِ النساء، وأنَّ البحث عنها إلى الأسفل إضاعةٌ للوقت، وإحدى أكثر التجارب العلاجية بالنسبة لأيّة امرأةٍ مكتئبة هو أن تمرّ أمام بناء وتتأكّد كيف سيتوقّف العملُ ويهبط عن السقالات عدد من العمال ليتملقوها. وقد بلغ هذا النشاط مستوى هو من الفنّية بحيث صار هناك مسابقة سنوية لمكافأة أفضل المغازلات حسب نوعها: كلاسيكية، إبداعية، جنسية، فكاهية وشعرية.

علّموني منذ طفولتي أن أكون مُحتشِمة، وأتظاهرَ بالفضيلة. أقول أتظاهر لأنّه لا يهمُّ ما يقوم به المرء بصمت ما دام لا يُعرَف ذلك. ونحن نُعاني في تشيلي بطريقة خاصّة من النفاق: نستنكر أيّةَ غلطة من الغريب، بينما نرتكب آثاماً وحشية في السر. تصدمنا الصراحةُ قليلاً، نُفَضِّلُ الكلامَ المُلطَّف (فـ أرضع: «أعطي البطاطا للطّفل»؛ والتعذيب هو «مضايقات غير مشروعة»). نتباهى بأنّنا مُتَحرِّرون جدّاً، لكنّنا نتحمّل بصبرٍ السكوت على الموضوعات التي تُعتبَرُ محرّمة ولا تُناقَش، بدءاً من الفساد (الذي نُسميه «ثراء غير مشروع») وحتى رقابة السينما، كيلا نذكر إلاّ مثلين. لم يكن من الممكن سابقاً عرض فيلم «عازف الكمان على السطح» والآن لا يعرضون «الإغواء الأخير للمسيح»، لأنّ القساوسة يعترضون ويمكن للأصوليين الكاثوليك أن يضعوا قنبلةً في السينما. قدّموا

«التانغو الأخير في باريس» بعد ان أصبح مارلون براندو عجوزاً بديناً، وذهبت موضةُ زبدةِ المرغرين. المحرّم الأقوى، وخاصّة بالنسبة إلى النساء، ما زال المحرَّم الجنسي.

كانت بعضُ العائلات المتحرِّرة تُرسل بناتها إلى الجامعة، لكن لم تكن هذه هي حالة عائلتي. كانت أسرتي تعتبر نفسها عائلة مثقفة، بينما كنّا في الحقيقة برابرة قروسطيّين. كان يُنتظر من أخوتي أن يُصبحوا مهنيين ـ محامين أو أطباء ما أمكن، أو مهندسين، فبقية الأعمال كانت من الدرجة الثانية ـ بينما عليَّ أن أقبل بعمل أقرب إلى الديكور، إلى أن يمتصّني الزواجُ والأمومة تماماً. كانت النساء المهنيات في تلك الأيام يأتين في غالبيتهنّ من الطبقة الوسطى، التي تُعتبر العمودَ الفقري الثابت للبلد. لقد تبدّل هذا، فمستوى التعليم عند النساء صار أعلى حتى من مستواه عند الرجال. لم أكن طالبة سيّئة، لكن بما أنّه أصبح لي خطيب لم يخطر ببال أحدٍ ولا ببالي أنّ باستطاعتي أن أحصل على مهنة. أنهيت الثانويةَ في السادسة عشرة، وأنا من التشوّش وعدم النضوج بحيث لم أعرف ما هي الخطوة التالية، رغم أنّه دائماً كان واضحاً بالنسبة إليّ أنّ عليّ أن أعمل، إذ لا توجد حركة نسائية ذات قيمة دون استقلال اقتصادي. كما كان يقول جدّي: من يدفع الحساب هو من يأمر. عملتُ كسكرتيرة في منظمة للأمم المتحدة، حيث كنتُ أنسخ إحصاءاتٍ مختصّة بالغابات على أوراق بمربعات متصلة. ولم أكن في ساعاتِ الفراغ أطرّزُ جهازَ عرسي، بل أقرأ روايات لمؤلفين أمريكيين لاتينيين، وأقاتل بحماسة كلَّ ذكرٍ أصادفه في طريقي، بدءاً بجدّي والعم رامون الطيّب. ازداد تمرّدي على النظام البطريركي حين خرجتُ إلى سوق العمل، وتأكّدت من عيوب أن يكون الإنسان امرأة.

وماذا عن الكاتبة؟ أعتقدُ أنّني كنتُ أرغبُ سرّاً أن أكرِّسَ نفسي للأدب، لكنّني لم أجرؤ قط على أن أصوغ بالكلمات مشروعاً بهذا

الطموح، لأنّه كان سيطلق حولي العنان لوابل من القهقهات، ولأنّه ما من أحد كان سيهتمُّ بما يمكن أن أقوله، وأقل منه بكثير بما يمكن أن أكتبه. لم أكن أعرف كاتبات بارزات، باستثناء مؤلفتين أو ثلاث مؤلفاتٍ إنكليزيات عوانس من القرن التاسع عشر، والشاعرة الوطنية، غابرييلا ميسترال، لكنّها كانت تبدو رجلاً. كان الكتّاب فرساناً ناضجين، وقورين، بعيدين وميتين في غالبيتهم. شخصياً لم أكن أعرف أحداً منهم، باستثناء ذلك الخال الذي كان يجوب الحيّ عازفاً على الأرغن، ونشر كتاباً عن تجربته الصوفية في الهند. في القبو كانت تتكدّس مئات النسخ من تلك الرواية السميكة، التي لا بدّ أنّ جدّي اشتراها كي يرفعها من التداول، واستخدمناها أنا وأخوتي في طفولتنا لإقامة تحصينات أثناء اللعب. لا، لم يكن الأدب أبداً طريقاً معقولاً في بلد مثل تشيلي، حيث كان الازدراء الفكري للنساء ما يزال مطلقاً. واستطعنا، نحن النساء، عبر حربٍ لا هوادة فيها أن نكسب احترامَ سكّانِ كهوفنا في بعض المجالات، لكن ما إن نَغفل قليلاً حتى ترفع الفحولية رأسها الأشعر.

كسبتُ عيشي فترةً من الزمن كسكرتيرة، تزوَّجتُ من ميغِل، خطيبي الأزلي وحبلتُ على الفور بابنتي الأولى، باولا. ورغم نظرياتي النسائية فقد كنتُ زوجةً تشيلية نموذجية، متفانية وخدومة مثل فتاة جيشا، من تلك اللواتي يصغرن الزوج عن عمد ومكر. يكفي أن أورد مثلاً: كان عندي ثلاثة أعمال وأدير البيتَ وآخذ الأطفالَ على عاتقي وأَجري مثل رياضيةٍ طوال اليوم، كي أُنجِز المسؤوليات المتراكمة التي تنهالُ عليّ، بما في ذلك زيارة الجدّ اليومية، لكنّني كنتُ في الليل أنتظرُ زوجي بحبّة زيتونٍ بين أسناني وكأسِ مارتيني له، وأُحضّر له الثياب التي سيرتديها في صباح اليوم التالي. ألُمع له حذاءه في لحظات الفراغ، وأقصّ له شعره وأظافرَه، كأيّ إلفيرا(*).

(*) إلفيرا هي فتاة المسلسل التلفزيوني التي يسخرون منها، والتي تحدثت عنها في فصل سابق.

سرعان ما تمكّنتُ من الانتقال ضمن المكتب، وبدأت أعملُ في قسم الإعلام، حيث كان عليّ أنِ أُحرِّر تقارير وأبقى على اتصال مع الصحافة، العمل الذي كان مسلّياً أكثر من إحصاء الأشجار. عليّ أن أعترف أنّني لم أختر الصحافة، فقد كنتُ أمضي ساهيةً، فأوقعتني بين براثنها بضربة واحدة؛ كان هذا هو الحبّ من أوّل نظرة، وعاطفة مفاجئة وَسَمَتْ جزءاً كبيراً من حياتي. في تلك المرحلة دُشّنَ التلفزيون في تشيلي، بقناتين بالأبيض والأسود، تابعتين للجامعات. كان تلفزيون عصرٍ حجري، ومن المحال أن يكون أكثر بدائية، وللسبب ذاته استطعتُ أن أضع قدماً فيه، رغم أنّ الشاشات الوحيدة التي كنتُ قد شاهدتها هي شاشات السينما. رأيتُ نفسي منطلقة في سباق مع الصحافة، مع أنّني لم أكن قد درستها نظامياً في الجامعة. كانت في تلك المرحلة ما تزال مهنة يتم تعلّمها في الشارع، وهناك تساهل مع التلقائيين من أمثالي. هذه هي المناسبة لأنّ أقول إنّ النساء في تشيلي يشكلن الأغلبية بين الصحافيين، وهنّ أكثر إعداداً وبروزاً وشجاعةً من زملائهن الذكور، رغم أنّ عليهنّ أن يعملنَ دائماً تقريباً تحت أمرة رجل. تلقى جدّي الخبر بانزعاج؛ لأنّه كان يعتبره من عمل الأوغاد، ما من أحد في رأسه عقل يتحدّث إلى الصحافة، وما من شخصٍ محتشم يختار عملاً مادّته الأولية القيل والقال. ومع ذلك أعتقدُ أنّه كان يرى برامجي التلفزيونية سرّاً حيث كان يُفلت منه أحياناً تعليقٌ موحٍ.

قامت في تلك السنوات بطريقة مُقْلِقَة أحزمةُ الفقر، بجدرانها الكرتونية، وسقوف صفيحها، وسكان أسمالها، حول العاصمة. كانت تُشاهَد بوضوحٍ على طريق المطار، معطيةً انطباعاً سيّئاً جدّاً للزوار؛ وبقي الحلّ لسنواتٍ طويلة بإقامة أسوار لإخفائها. كما كان يقولُ أحدُ السياسيّين آنذاك: «إذا كان هناك فاقة، فيجب ألاّ تُلْحَظ». ما زال في الوقت الحالي هناك تجمعات سكانية مهمّشة، رغم الجهد الذي تبذله الحكومات لنقلهم إلى أحياء أكثر حشمة، لكن لا شيء

يشبه ما كان في السابق. مهاجرون يصلون من الريف، أو المحافظات المهملة، يأتون جماعاتٍ بحثاً عن عمل، وحين يجدون أنفسهم بلا حماية يبنون بيوتَ كربهم. ورغم مضايقات الشرطة فإنّ هذه التجمعات السكانية الفطرية، كانت تنمو وتنتظم، فما أن يستولي الناس على أرضٍ حتى يصبح من المحال انتزاعها منهم أو منع استمرار تدفقهم إليها. كانت البيوت تصطف على امتداد الشوارع الصغيرة غير المعبّدة، تنبعث منها في الصيف زوبعة غبار، وتتحوّل في الشتاء إلى موحلة. مئات الأطفال الحفاة يتراكضون بين البيوت، بينما يمضي الآباء يومياً إلى المدينة بحثاً عن العمل في النهار «لنصب القِدر» العبارة الغامضة التي تعني أيّ شيء، بدءاً من الحصول على أوراق نقدية متواضعة، وحتى العظام لصنع الحساء. زرتُ أحياناً هذه التجمعات، في البداية برفقة قساوسة أصدقاء، محاوِلة أن أحمل إليهم بعض المساعدة، وبعدها بقليل حين أجبرتني الحركة النسائية والهموم السياسية على الخروج من القشرة، تردّدت عليها كي أتعلّم. استطعتُ أن أقومَ، كصحافيةٍ، بتحقيقاتٍ ومقابلات أفادتني في فهم عقليتنا التشيلية.

من بين أكثر المشاكل حدّةً، والمرتبطة بفقدان الأمل، هناك الكحولية والعنف المنزلي. كثيراً ما صادف أن رأيتُ نساءً بوجوهٍ مضروبة. كان تعاطفي يسقط في الفراغ، لأنّهنّ دائماً يملكن عذراً للمعتدي: «كان سكران»، «غضب»، «غار»، «يضربني لأنّه يُحبّني»، «ماذا تراني فعلت حتى أثرته...؟» ويؤكّدون لي الآنَ أنّ هذا لم يتغيّر كثيراً رغم حملات التوعية. في كلمات أغنية تانغو شعبية جدّاً ينتظر الذكرُ أن تُحضّر له الحبيبةُ المتّةَ ثمّ «طعنها خمساً وثلاثين طعنة». رجال الشرطة الآن مُدرّبون على اقتحام البيوت، دون أن ينتظروا أن يفتحوا لهم البابَ بلطفٍ، أو أن تظهر جثّة بخمس وثلاثين طعنة معلّقة إلى النافذة، ومع ذلك ما زال هناك الكثير مما يجب عمله. ولا نقول شيئاً عن الطريقة التي يضربون بها الأطفال! ففي كلّ لحظة تظهر حالة مرعبة عن أطفالٍ معذّبين، أو مقتولين ضرباً من آبائهم.

أمريكا اللاتينية، حسب بنك التنمية الدولي، هي إحدى أكثر مناطق العالم عنفاً، وهي الثانية بعد أفريقيا. العنف في المجتمع يبدأ في المنزل، ولا يمكن القضاء على الجريمة في الشارع، ما لم يتمّ الانقضاض على المعاملة السيّئة في المنزل، ذلك أنّ الأطفال المضروبين كثيراً ما يتحوّلون إلى كبار عنيفين. اليوم يتمّ الكلام عن هذا، يُبلغ عنه في الصحافة، وهناك ملاجئ، وبرامج تربية، وحماية بوليسية للضحايا، لكنّها كانت في تلك الأيّام موضوعاً محرّماً.

كان في التجمعات السكانية وعيٌ طبقيّ، اعتزازٌ بالانتماء إلى الطبقة العاملة، وهو ما فاجأني في مجتمعٍ وصوليٍّ كالمجتمع التشيلي. اكتشفتُ بعدها أنّ الوصوليةَ كانتْ من ميزّات الطبقة الوسطى، فالفقراء لم يكونوا حتى ليطرحوها، فهم مشغولون أكثر من اللازم في محاولة العيش. وقد حقّقت هذه التجمعات السكانية في السنوات التالية تربيةً سياسية، تنظّموا وتحوّلوا إلى تربةٍ خصبة لأحزاب اليسار. بعد عشر سنوات، في العام 1970 كانوا حازمين في انتخاب سالفادور ألليندي، وللسبب ذاته كان عليهم أن يعانوا من أكبر عملية قمع شهدتها مرحلة الديكتاتورية العسكرية.

أخذتُ الصحافةَ بجدِّية كبيرة، رغم أنّ زملائي في تلك المرحلة اعتقدوا أنّني كنت أخترع التحقيقات. لم أكن أخترعها بل أبالغ فيها قليلاً. وبقي عندي بعض النزوات، فما زلت حتى الآن أمضي باحثةً عن أخبار وقصص، حاملة دائماً قلماً ودفتراً في الحقيبة كي أُسجّل ما يلفت انتباهي. ما تعلّمته آنذاك يفيدني في الأدب: العمل تحت الضغط، توجيه مقابلة، القيام بتحقيق، استخدام اللغة بطريقة فعّالة. لا أنسى أنّ الكتابَ ليس هدفاً بحدٍّ ذاته، فهو مثل الصحيفة أو المجلة مجرّد وسيلة اتصال، لذلك أحاولُ أن أُمسِكَ بالقارئ من عنقه، فلا أفلته حتى النهاية. طبعاً لا أنجح دائماً بذلك. فالقارئ عادة ما يكون مراوغاً. من هو هذا القارئ؟ حين أوقَفَ الأمريكيون الشماليون، في بنما، الجنرال نورييغا، الذي وقع في كارثة، وجدوا

في حوزته كتابين، «الكتاب المقدَّس» و«بيت الأرواح». لا أحد من الكتّاب يعرف لمن يكتب. كلّ كتابٍ رسالة مقذوفة في زجاجة إلى البحر، بأمل أن تصل إلى ضفَّة أُخرى. أشعر بامتنان شديد حين يعثر عليه أحدٌ ويقرؤه، خاصة إذا كان شخصاً مثل نوريبيغا.

في هذه الأثناء كان العمّ رامون قد عُيِّنَ ممثلاً لتشيلي أمام الأمم المتحدة في جنيف؛ والرسائل بيني وبين أمّي تتأخّر أقل من تركيا، ومن الممكن أن نتحدّث من حينٍ إلى آخر بالهاتف. عندما كان عمر ابنتنا باولا سنةً ونصفاً، استطاع زوجي الحصول على منحة لدراسة الهندسة في بلجيكا. كانت بروكسل تظهر على الخريطة قريبة جدّاً من جنيف، ولم أبغِ إضاعةَ فرصةِ زيارة أبويَّ. حزمنا حقائبنا وانطلقنا إلى أوروبا، ناسيةً الوعد الذي قطعته على نفسي بمدّ جذوري وعدم السفر إلى الخارج مهما كان السبب. كان قراراً رائعاً لأنّني استطعتُ، بين أسباب أخرى، أن أدرس الإذاعة والتلفزيون وأُشذّب فرنسيتي التي لم أستخدمها منذ أيام لبنان. اكتشفتُ في ذلك العام حركةَ تحرّر المرأة، وأدركتُ أنّني لم أكن الساحرة الوحيدة في هذا العالم؛ فقد كنّا كثيرات.

قليلون هم الناس الذين كانوا قد سمعوا بتشيلي في أوروبا، ومع انتخاب سالفادور ألليندي بعد أربع سنوات صار البلدُ موضة، وعاد ليكون كذلك بعد الانقلابِ العسكري، ونتائجِ خرق حقوق الإنسان، وأخيراً بعد توقيفِ الديكتاتور السابق في لندن عام 1998. في كلّ مرّة يصبح فيه بلدُنا خبراً، يكون السببُ أحداثاً سياسية كبيرة، إلا حين يظهرُ في الصحافة باختصار في مناسبات الزلازل. وكانوا إذا سألوني عن جنسيتي عليّ أن أقدّم شرحاً طويلاً، وأرسمَ خارطة كي أبرهن لهم أنّ تشيلي ليست في وسط آسيا، بل في جنوب أمريكا. كثيراً ما كانوا يخلطون بينها وبين الصين(*)، لأنّ وقع الصوت متشابه. البلجيكيون، المعتادون على فكرة المستعمرات في

(*) تشيلي والصين في الإسبانية تشيلي وتشينا Chile وChina.

أفريقيا، عادة ما كانوا يُفاجَؤون بأنّ زوجي يبدو إنكليزياً، وبأنّني لست زنجية، وقد سألوني ذات مرّة لماذا لا أستخدم الملابس التقليدية، التي ربّما ظنوا أنّها مثل ملابس كارمن ميراندا في أفلام هوليوود: تنورة مبرقعة وسلّة أناناس على رأسي. طفنا عبر أوروبا، بدءاً من البلدان الاسكندينافية وحتى جنوب إسبانيا، في سيّارة فولكسفاكن مهلهلة، ننام في الخيام، ونتغذّى على النقانق، ولحم الحصان والبطاطا المقلية. كان عام سياحة مسعوراً.

عدنا في العام 1966 إلى تشيلي مع ابنتنا باولا، التي كانت في الثالثة من عمرها، وتتكلّم بدّقة أكاديميّ، وأصبحتْ خبيرة بالكاتدرائيات؛ ونيكولاس في بطني. وعلى العكس من أوروبا، حيث كان يُشاهَد الهيبيون بشعرهم الطويل في كلّ مكان، وتقوم ثوراتٌ طلابية ويُحتَفَل بالتحرر الجنسي، كانت تشيلي مملّة جدّاً. ومرّة أخرى شعرتُ بنفسي أجنبية، لكنّني جدّدت وعدي بأن أنشرَ جذوري وألا أعود لأتحرّك من هناك.

ما إن وُلِد نيكولاس حتى عدتُ للعمل، هذه المرّة في مجلة نسائية اسمها «باولا»، خَرَجَت إلى السوق توّاً. كانت الوحيدة التي تحرّك قضيّةَ المرأة وتعرض موضوعاتٍ لم تُطرح حتى تلك اللحظة قط مثل: الطلاق، مانع الحمل، العنف المنزلي، الزنا، الإجهاض، المخدرات، الدعارة. وعلى اعتبار أنّه لم يكن من الممكن لفظ كلمة صبغيات دون أن يحمرّ المرء، فقد كنّا نشكل جرأة انتحارية.

تشيلي بلد مراءٍ، وخجول، ومليء بالشكوك تجاه الحسية، بل وعندنا تعبير أوروبي محلّي لتعريف هذا الموقف: نحن «فشكة». هناك أخلاق مزدوجة. يتم التساهل في الاختلاط بين الرجال، لكن على النساء أن يتظاهرن بأنّ ما يهمهنّ ليس الجنس، بل الحب والرومانسية فقط، رغم أنّهن يتمتّعن في الواقع بالحرية ذاتها التي يتمتع بها الرجال، وإلا فمع من يمارسه أولئك؟ وعلى الصبايا ألا يظهرن أبداً متعاونات بشكلٍ مكشوف مع الفحل في عملية الإغواء، عليهنّ أن يفعلن ذلك بمداراة. يُفتَرض على طالب الودّ أن يبقى مهتمّاً

بهنّ ويحترمهنّ إذا كنَّ «صعبات»، وإلاّ فهناك نعوت ليست أنيقة أبداً لوصفهنّ. هذا مظهر آخر من مظاهر نفاقنا. طقس آخر من طقوس إنقاذ المظاهر، فهناك في الواقع من الزنا وحمل المراهقات، والأولاد خارج نطاق الزوجية، ومن الإجهاض، كما في أيّ بلدٍ آخر. لي صديقة، طبيبة توليد، تخصّصت بالعناية بالحوامل من المراهقات العوازب، تؤكّد أنّ هذا لا يحدث إلاّ نادراً بين الجامعيات. يحدث في العائلات الأقل دخلاً، حيث يُركّزُ الآباءُ على تربية الأولاد الذكور، ومنحهم فرصاً أكثر من البنات. ليس لدى هؤلاء البنات خطط، مستقبلهن رمادي، تنقصهنّ التربية وتقدير الذات. ينتهي بعضُهن إلى الحمل نتيجة الجهل الخالص. يفاجأن حين يكتشفن وضعهنّ، لأنّهنّ نفَّذن حرفياً تحذير «ألاّ ينمن» مع أحد. فما يحدثُ خلفَ الباب وقوفاً لا يُحسَب. مضى أكثر من ثلاثين عاماً على اقتحام مجلّة «باولا» للمجتمع التشيلي الحييّ. ولا أحد يُنكِر أنّه كان لها مفعول الإعصار. كلّ تحقيقٍ من تحقيقات المجلة المثيرة للجدل كان يضعُ جدّي على حافّة الإصابة بجلطة قلبية. كنّا نتناقشُ بصوتٍ عال، لكنّني أعودُ في اليوم التالي لزيارته ويستقبلني كما لو لم يحدث شيء. كانت الحركة النسائية التي نعتبرها اليوم راسخة حالةً شاذّة في البداية، وكان معظم التشيليين يسألون لماذا يردنها إذا كنّ في جميع الأحوال ملكاتٍ في بيوتهنّ، ويبدو لهنّ أنّ من الطبيعي أن يكون الرجال هم من يأمرون، كما أمرَ الله والطبيعة. وكان إقناعهم بأنّهنّ لسن ملكات في أيّ مكان يُكلّف معركة. لم يكن هناك نصيرات كثيرات للحركة النسائية ظاهرات للعيان، على الأكثر نصف دزينة. ومن الأفضل ألاّ أتذكّر كم تحمّلنا من الاعتداءات! انتبهت إلى أنّ انتظار أن يحترموكِ لأنّك نصيرة حركة المرأة، يشبه انتظار ألاّ ينطحك الثور لأنّك نباتية. أيضاً عدتُ إلى التلفزيون، وهذه المرّة ببرنامج فكاهي، حقّقتُ من خلاله، كما يحدث لأيّ شخص يظهر عادة على الشاشة، بعضَ الشهرة، وسرعان ما فُتحت أمامي كلُّ الأبواب. صار الناسُ يُحيّونني في الشارع، وشعرتُ لأوّل مرّة أنّني مرتاحة في مكان.

سحرُ البرجوازية الحصيف

كثيراً ما أتساءل فيمَ يقوم الحنين؟ في حالتي ليس هو الرغبة بالعيش في تشيلي، بقدر ما هو رغبة باستعادة الأمان الذي أتحرَّك فيه هناك. ذلك هو مجالي. لكلِّ شعب عاداته، نزواته وتعقيداته. أعرفُ جبلّة شعبي، كما أعرفُ راحةَ كفِّي، لا شيء يُفاجئني، أستطيع أن أستبِق ردودَ فعل البقيّة، أفهم ما تعنيه الحركاتُ، الصمتُ، عباراتُ المجاملة، وردودُ الفعل الغامضة. هناك أشعرُ بالراحة اجتماعياً، وإن كان نادراً ما أفعل ما يُنتظر منّي، لأنّني أعرف كيف أتصرَّف ونادراً ما تنقصني الآداب الحسنة.

عندما هاجرتُ إلى الولايات المتحدة في الخامسة والأربعين من عمري، وأنا حديثة الطلاق، مستجيبة لنداء القلبِ المتهوِّر، كان أوّل ما فاجأني هو موقفُ الأمريكيين الشماليين المتفائل والصائب، المختلف جدّاً عن موقف أهل جنوب القارّة، الذين ينتظرون أن يحدث الأسوأ دائماً. ويحدث فعلاً. الدستور في الولايات المتحدة تَضَمَّن حقّ أن يتسلى المرء دائماً، وإذا ما خانه أيّ من هذه الحقوق شعر بالخيبة. بالمقابل يعتبرُ بقية العالم أنّ الحياة، على العموم، قاسية ومملّة حتى أنّها تحتفل جدّاً بومضاتِ الفرح والمرح مهما كانت متواضعة، حين تَحضر.

في تشيلي يكاد يكون من قلّة الأدب أن يُعلن المرء أنّه راضٍ أكثر من اللازم، لأنّه يمكن أن يُغيظ من هم أقلّ حظّاً منه، لذلك

فالجواب الصحيح عندنا على «كيف حالك؟» هو «ماشي الحال»، وهذا ما يؤسّس للتعاطف مع حالة الآخر. فعلى سبيل المثال، إذا كان قد شُخِّص عند المحاوِر مرض مشؤوم، سيكون من قلّة الذوق الكبيرة أن يجلده الآخر بحسن الحظ الذي هو فيه، أليس صحيحاً؟ لكن إذا كان الآخر قد تزوّج من وارثة غنية، فله الحرّية بأن يعترف بسعادته الخاصّة، دون خوف من أن يجرح أحداً؛ هذه هي فكرة الـ «ماشي الحال»، التي عادة ما تُربك الزائرينَ الأجانب قليلاً: تسمح بالوقت كي يتحسّس المرء الأرضَ فلا يحشر نفسه فيما لا يعنيه. يقول علماءُ الاجتماع إنّ أربعين بالمئة من التشيليين يُعانون من الاكتئاب، خاصّة النساء اللواتي عليهنَّ أن يتحمّلن الرجال. يجب أن يؤخذ بالاعتبار أيضاً أنّ كوارث هائلة ـ كما قلتُ سابقاً ـ تحدث في بلدنا، ويوجد فقراء كثيرون، وبالتالي فمن غير اللائق أن نذكر حسن الحظ الشخصي. عندي قريبٌ ربح الجائزة الكبرى مرّتين، وبقي دائماً يقول «ماشي الحال» كيلا يهين الآخرين. عرضياً يستحق أن نحكي كيف حدثت هذه الأعجوبة. كان رجلاً كاثوليكياً جدّاً، وككاثوليكي لم يبغِ قط أن يسمع بمانع الحمل. وعندما وُلد ابنُهُ السابع ذهب إلى الكَنيسة، ركع أمام المذبح وتكلّم يائساً وجهاً لوجه مع خالقه، ووضّح له: «يا ربّ، إذا كنتَ قد أرسلت لي سبعة أطفال تستطيع تماماً أن تساعدني على إطعامهم...»، وعلى الفور أخرج من جيبه لائحة طويلة بالنفقات، جهّزها بعناية. استمع الربُّ بصبرٍ إلى حجج خادمه الوفي، وعلى الفور أوحى إليه في حلمِهِ برقم اليانصيب الفائز. خدمته الملايين عدّة سنوات، لكنّ التضخّم، الذي صار في تلك الأيّام مرضاً مستوطناً في تشيلي، قلّص رأس المال بالإيقاع نفسه الذي راحت تكبر فيه الأسرة. وعندما وُلِد ابنه الأخير، رقم 11، عاد الرجلُ إلى الكنيسة ليشكو حالته، ومن جديد رقَّ له الربُّ وأرسل إليه حلماً آخر موحياً. المرّة الثالثة خيّبته.

ليس للسعادة في أسرتي معنى. كان جدّاي، مثلهما مثل غالبية

التشيليين، سيصابان بالذهول لو علما أنّ هناك أناساً مستعدون لإنفاق المال على العلاج من أجل أن يتجاوزوا الشقاء. كانت الحياة بالنسبة إليهما صعبة وما عدا ذلك ترّهات. الرضى في العمل الحسن والقوّة الشخصية. كان الفرحُ موجوداً بطرق كثيرة في حياتنا ولا أعتقد أنّ الحبّ كان أقلها أهمية. لكنّنا أيضاً لم نكن نتكلّم عنه، وكنا سنموت خجلاً قبلَ أن ننطق بهذه الكلمة. كانت العواطف تنسابُ بصمت. كنّا، على عكس غالبية التشيليين، نملك الحدَّ الأدنى من الاحتكاك المادي، ولا أحد كان يُدلّل الأطفال. العادة الحديثة بالثناء على كلٍّ ما يفعله الصغار، كما لو أنّه ملاحة هائلة لم تكن قائمة آنذاك، لم يكن هناك لهفة لتربيتهم دون رضوض. وهذا من حسن حظّي، لأنّني لو كبرت محميّةً وسعيدةً فعن أيّة شياطين سأكتبُ الآن؟ لذلك حاولتُ أن أجعل طفولة أحفادي صعبةً قدر استطاعتي كي يتمكنوا من أن يُصبِحوا كباراً مبدعين. آباؤهم لا يُقدِّرون أبداً جهودي.

المظهر الجسدي كان مجهولاً في الأسرة، فأمّي تؤكّد أنّها لم تعرف ما هو الجميل إلى أن أتمّت الأربعين، لأنّه لم يُذكر قط. يمكن القول أنّنا كنّا في هذا أصليين، لأنّ المظاهر في تشيلي أساسية. أوّل ما تتبادله امرأتان حين تلتقيان، هو التعليق على الثياب والتسريحة أو الوجبة. الشيء الوحيد الذي يُعلق عليه الرجال عند المرأة ـ من وراء ظهورهنّ طبعاً ـ هو كيف يظهرن، وغالباً ما يفعلون ذلك بكلمات تحقير، دون أن يدروا أنّهنّ يدفعن لهم بالعملة ذاتها. الأشياء التي سمعتُ صديقاتي يقُلْنَها عن الرجال تجعل الحجر يحمرّ خجلاً. في أسرتي كان الكلام عن الدين، وعن المال بخاصّة، قلّة ذوق، بينما الأمراضُ هي الشيء الوحيد تقريباً الذي يتكلّمون عنه؛ إنّها الموضوع الأكثر تطرّقاً بين التشيليين. إننا مُتَخَصِّصون

في تبادل العلاج والنصائح الطبية. هناك يصفون كلّ شيء. لا يثقون بالأطباء لأنّ صحّة الآخرين لا تناسِبهم، لذلك لا نلجأ إليهم إلاّ حين يُخْفِق كلّ شيء، بعد أن نُجَرّب كلّ العلاجات التي ينصحنا بها الأصدقاء والمعارف. لِنَقُل إنك أصبت بالدوار في باب سوق الخدمة الذاتية. في أيّ بلدٍ يستدعون سيّارة الإسعاف إلاّ في تشيلي، حيث يرفعونك بين عددٍ من المتطوّعين، ويأخذونك باضطراب إلى خلف المحل، ويرشون الماء البارد على وجهك والأغواردييتنتِ(*) في بلعومك كي تنتعش؛ ثمّ يُجبرونك على ابتلاع حبات تُخرجها سيّدة ما من محفظتها، لأن «عندها صديقة تُصابُ بنوباتٍ، وهذا العلاجِ رائع». سيكون هناك جوقة من الخبراء، الذين سيُشخِّصون حالتكَ بلغة سريرية، لأنّ كلّ مواطن فيه نزعة من عقل يعرف كثيراً بالطب. سيقولُ أحد الخبراء مثلاً، إنّك أُصبت بانسدادِ صمّامٍ في الدماغ، وسيكون هناك آخر يشكّ بوجودِ انخماص مُضاعفٍ في الرئتين، وسيقول ثالثٌ إن البنكرياس قد انفجر. وبعد دقائق قليلة يقوم صراخ حولك، بينما يصل أحدٌ منهم إلى الصيدلية ليشتري بنسلين ليحقنك به قطعاً لدابر الشك. انظر، إذا كنتَ أجنبياً، فإنّني أنصحك ألاّ تصاب بالدوار في سوق الخدمة الذاتية في تشيلي فقد تكون تجربة قاتلة.

وصف الدواء عندنا من السهولة بحيث أنّهم أعطونا، خلال عبورنا الجنوب في باخرةٍ تجارية كانت متجهة لزيارة بحيرة سان رافائيل الرائعة، حبوباً منوِّمة مع التحلية. وعند العشاء نبّهنا القبطانُ، نحن المسافرين، إلى أنّنا سنمرّ في منطقة مضطربة بشكل استثنائي، ثم راحت زوجته تمرّ بين الطاولات موزِّعة حبوباً مفروطةً، لم يجرؤ أحدٌ على السؤال عن اسمها. تناولناها مُذعنين ورحنا، بعد عشرين دقيقة جميعنا نحن المسافرين، نشخر، لا من

(*) مشروب روحي يُشبِه العرق.

فمنا ولا من كمّنا، كما في حكاية الجميلة النائمة. قال زوجي إنّهم لو كانوا في الولايات المتحدة لأقاموا دعوى ضدّ القبطان وزوجته بتهمة تخدير المسافرين. بينما في تشيلي نحن ممتنون جداً لذلك.

قديماً كان الموضوع السائد ما إن يجتمع شخصان أو ثلاثة إلا وكانت السياسة؛ وإذا وُجد تشيليان في غرفة لا بدّ أن يوجد ثلاثة أحزاب سياسية. أتفهّم أنّه كان عندنا، في مرحلة من المراحل بضع عشرة حزباً سياسياً مصغّراً؛ فحتى اليمين، الأحادي السياسة في بقية العالم كان منقسماً بيننا. ومع ذلك، فالسياسة الآن لا تُثير حماسنا؛ ولا نشير إليها إلاّ للشكوى من الحكومة، وهي أحد النشاطات الوطنية المُفضّلة. ما عدنا نصوِّتُ دينياً، كما في الأزمنة التي كان يذهب فيها مواطنون مُحتَضَرون في النقالة، كي يقوموا بواجبهم الحضاري؛ كما لا تقعُ، كما في السابق، حالات نساء يلدن لحظةَ التصويت. الشبان لا يُسجلون أسماءهم في سجلات الانتخابات، فـ 84,3 بالمئة يُفكّرون أنّ الأحزاب السياسية لا تُمثِّل مصالحهم، وعدد كبير يُعبّر عن رضاه لعدم مشاركته بأيّة طريقة في قيادة البلد. هذه ظاهرة العالم الغربي، كما يبدو. فالشباب ليس لهم مصلحة في نماذج سياسية محنطة، تجرجر نفسها منذ القرن التاسع عشر، فهم مشغولون بالتمتع وبإطالة مراهقتهم أكثر ما يستطيعون، لنقل حتى الأربعين أو الخمسين. علينا ألا نكون ظالمين، فهناك أيضاً نسبة فاعلة في البيئة، العلم والتكنولوجيا؛ بل ويُعرَف عن آخرين يقومون بأعمال اجتماعية من خلال الكنيسة.

الموضوعات التي حلّت محلّ السياسة عند الجمهور التشيلي هي المال الذي ينقص دائماً، وكرة القدم، التي تفيد كعزاء. حتى آخر أمّيٍّ يعرف أسماءَ جميع اللاعبين الذين مرّوا في تاريخنا، وله رأيه الخاص بكلّ واحدٍ منهم. وهذه الرياضة هي من الأهمية بحيث أن النفوس تتعذّب في الشوارع حين يكون هناك مباراة، لأنّ السكان

كلّهم في حالة ذهول أمام التلفزيون. كرة القدم هي أحدى النشاطات الإنسانية القليلة، التي يختبر فيها الإنسان نسبية الزمن. يمكن تجميدُ الرامي في الهواء نصف دقيقة، إعادةُ المشهد ذاته عدّةَ مرات بالكاميرا البطيئة، أو من الخلف إلى الأمام، وبفضل اختلاف الساعة بين القارات يمكن رؤية مباراة في سانتياغو بين الهنغاريين والألمان قبل أن يلعبوها.

في بيتنا، كما في بقية البلد، الناس لا يتحاورون؛ كانت الاجتماعات تتكوّن من سلسلة من المنولوجات المتزامنة، دون أن يصغي أحد لأحد؛ ضوضاء خالصة وجامدة مثل بثّ إذاعي على موجة قصيرة. لا شيء يهمّ، لأنّه أيضاً لم يكن هناك اهتمام للتأكد مما يفكّر فيه البقية، فقط اهتمام بتكرار القصّة ذاتها. رفض جدّي في شيخوخته أن يضع جهاز سمع، لأنّه كان يعتبر أنّ الشيء الوحيد الحسن في عمره الطويل، هو ألاّ يكون عليه أن يسمع ترهات يقولها الناس. تماماً كما عبّر الجنرال ثِسَر مِندوثا في العام 1983: «نحن نتمادى في استخدام تعبير حوار. هناك حالاتٌ يكون الحوارُ فيها ليس ضرورياً. الأكثر ضرورة منه هو المونولوج لأنّ الحوارَ هو مجرَّد حديث بين شخصين». لا بدّ أنّ عائلتي كانت ستتفق تماماً معه.

عندنا، نحن التشيليين، نزعة للكلام بشكل مصطنع. ماري غراهام، الإنكليزية التي زارت البلد في العام 1822، علّقت في كتابها: «يوميات إقامتي في تشيلي»، قائلة إنّ الناس ساحرون، لكنّ نبرة صوتهم مزعجة وخاصّة النساء. فنحن نبلع نصف الكلمات، نحول السين إلى هاء ونبدّل نطق أحرف العلة، فـ «Cómo estás, pues?» تُصبح «Com tai puh» وكلمة «Señor» يمكن أن تصبح «iñol» . هناك ثلاث لغاتٍ رسمية على الأقل: الثقافية، التي تُستَخدم في وسائل الاتصال، والمسائل الرسمية ويتحدّث بها بعض أعضاء الطبقة العليا حين لا يكونون في جوٍ حميم؛ والدارجة، التي يستخدمها الشعب، ولهجة الشباب العصيّة على الفهم والمتبدلة دائماً. على الزائر

الأجنبي ألاّ يقنط لأنّه حتى ولو لم يفهم كلمة واحدة سيرى أنّ الناس تتفانى في مساعدته. ثمّ إنّنا نتكلّم بصوت خافت ونتنهّد كثيراً. حين عشت في فنزويلا، حيث الرجال والنساء واثقون جدّاً من أنفسهم ومن الأرض التي يطؤونها، كان من السهل تمييز أبناء بلدي من طريقتهم في المشي، فهم يسيرون كما لو أنّهم جواسيس مُتنكّرون، ومن نبرتهم التي لا تتبدّل في الاعتذار. كنتُ أمرّ يومياً على دكان بيع خبز يملكه بعض البرتغاليين لأتناول فنجانَ قهوة الصباح الأوّل، حيث كان هناك دائماً حشد من الزبائن المستعجلين، يصارعون للاقتراب من المحل. كان الفنزويليون يصيحون من الباب «أسمر صغير، ماشي!» وبسرعة أكثر مما ببطء تصلهم كأس ورقيّة بالقهوة والحليب، مارّة من يدٍ إلى يد. أما التشيليون، وكنّا كثراً في ذلك الوقت، لأنّ فنزويلا كانت واحداً من البلدان الأمريكية اللاتينية القليلة التي تستقبل لاجئين ومهاجرين، فكنّا نرفع سبابةً مرتجفة، ونتوسّل بصوت ناحل كخيط: «من فُضَيْلك، هل تُعطيني فُنَيْجِن قهوة، يا سيّد». وكان من الممكن أن ننتظر الصباح كلّه دون جدوى. كان الفنزويليون يسخرون من آدابنا الباهتة، بالمقابل كانت ترعبنا خشونتهم. تبدّلت طبيعتنا، نحن الذين عشنا عدّة سنوات في ذلك البلد، وتعلّمنا بين أشياء أخرى أن نطلب القهوة بصوت عالٍ.

وبتوضيحي لبعض النقاط حول طبيعة وعادات التشيليين، تُفهَم شكوك أمّي: في الحالة التي كنتُ فيها لم يكن أمامي مكان أخرج منه. ليس عندي شيء من لباقة أقربائي أو تواضعهم أو تشاؤمهم، لا شيء من خوفهم مما سيقوله الآخرون، من الإسراف ومن الله؛ لا أتكلّم ولا أكتب بالتصغير، وأنا أقرب إلى المتأنقة بالكلام، وأحب لفت الانتباه. أي أنّني هكذا الآن، بعد أن عشتُ طويلاً. في طفولتي كنتُ حشرةً غريبة، وفي المراهقة قارضاً وَجِلاً - كان لقبي لسنوات طويلة «لاوتشا» كما نسمّي الفئران المنزلية التافهة - وفي شبابي كنتُ من كلّ شيء، بدءاً من نصيرة حركة تحرّر المرأة الغضوب

وحتى الهيبية المتوّجة بالأزهار. وأخطر ما في الأمر أنّنيَ أروي أسراراً خاصّة وغريبة. بالإجمال، أنا كارثة. لو أنّني أعيشُ في تشيلي ما كان ليكلّمني أحد. لكنّني فعلاً مضيافة. على الأقل تمكّنوا من تلقيني هذه الفضيلة في طفولتي. اقْرَعْ بابي في أيّة ساعةٍ من النهار أو الليل وسأخرجُ، حتى ولو كان قد كُسِرَ عظم فخذي للتو، راكضةً لأفتحَ وأقدّم لك أوّل «فُنَيْجن» شاي. فيما عدا ذلك أنا نقيض السيّدة، التي حاول أبواي بتضحيات كبيرة أن يزرعاها فيّ. وليس ذلك ذنبهما، فقط نقصتني المادة الأوّلية، ثم إنّ مصيري انحرف.

لو أنّني بقيتُ في وطني، كما أردتُ دائماً، متزوِّجة من أحد أبناء عمومتي أو خؤولتي من الدرجة الثانية، هذا في حال أنّ أحدهم اقترحه عليّ، وهو أمر مُستبعَد، ربّما كنتُ حملت بكرامة دمَ أسلافي، وربّما كان ترسُ الكلاب المقمّلة، الذي حصل عليه أبي، معلقاً الآن في مكان الشرف من بيتي. يجب أن أُضيف، أنّني مهما كنتُ متمرّدة في حياتي إلاّ إنّني أحافظ على آداب التعامل الصارمة التي أرضعوها لي بالدمِ والنار، كما ينطبق على شخص «محتشم». فأن يكون المرء محتشماً كان شيئاً أساسياً في أسرتي. وكانت هذه الكلمة تشمل أكثر مما يمكن توضيحه في هذه الصفحات، لكنّني أستطيع أن أقول إن الآداب الحسنة كانت تُشكّل نسبة عالية من الحشمة المفترَضة.

لقد شططتُ عن الموضوع، وعليّ أن أمسك بالخيط من جديد، هذا إذا كان هناك خيط في هذا التيه. هكذا هو الحنين: رقصة بطيئة دائرية. الذكريات لا تنتظم متسلسلةً، إنّها مثل الدخان، شديدة التغيّر وسريعة الاختفاء، وإذا لم تُكتَب اختفت في النسيان. أحاول أن أُنظِّم هذه الصفحات حسب الموضوعات أو المراحل، لكن يبدو لي ذلك تكلّفاً، ذلك أنّ الذاكرة تروح وتغدو مثل شريطِ موئبيوس اللامتناهي.

نفحة تاريخ

وبما أنّنا نتكلّم عن الحنين، أرجو منكَ قليلاً من الصبر، لأنّني لا أستطيع أن أفصل موضوع تشيلي عن حياتي الخاصّة. قدري مُرَكّب من عواطف، ومفاجآت، ونجاحات، وخسائر، ليس من السهل روايته بجملتين أو ثلاث. أفترض أنّ في كلّ حياة بشرية لحظاتٌ يتبدّل فيها الحظّ أو ينحرف الطريق ويجب الانطلاق في اتجاه جديد. حدث هذا في حياتي عدّة مرّات، لكن ربّما كان الحدث الحاسم أكثر من غيره هو انقلاب 1973 العسكري. لو لم يحدث هذا الحدث، بالتأكيد ما كنتُ هاجرت من تشيلي، ولما أصبحت كاتبة ولما تزوّجت من أمريكي شماليّ وعشتُ في كاليفورنيا؛ كما لم يكن ليُرافقني هذا الحنين الطويل، ولأكتب اليومَ هذه الصفحات. وهذا ما يقودني حتماً إلى موضوع السياسة. كي نفهم كيف وقع الانقلاب العسكري، عليّ أن أُشير باختصار إلى تاريخنا السياسيّ، من البدايات وحتى الجنرال أوغوستو بنوتشيت، الذي هو اليوم جدّ هرم تحت الإقامة الجبرية، ومع ذلك لا يمكن إنكار أهميته. لا يخلو الأمر من وجود مؤرخين يعتبرونه الشخصية السياسية الأكثر تميّزاً في القرن، وإن كان هذا ليس بالضرورة حكماً لصالحه.

الرقاص السياسي في تشيلي تذبذب من طرف إلى آخر، جرّبنا كلّ ما وُجِدَ من نظم سياسية وعانينا النتائج؛ وبالتالي ليس غريباً أن يكون عندنا من كتاب المقالات والمؤرخين في المتر المربع الواحد

أكثر من أيّة أمّة أخرى في العالم. ندرس أنفسنا أبدياً؛ ومصابون بلوثة تحليل واقعنا، كما لو أنّه مشكلة دائمة تحتاج إلى حلول سريعة. العنيدون الذين يحرقون أهدابهم في دراستنا مُستَغلقون ثقلاء لا يُفهَم كلمة واحدة مما يقولونه، وهكذا فلا أحد يُقيم لهم كبيرَ اعتبار، لكنّ هذا لا يُثبط من همَّتهم، بل على العكس، فكلّ عام ينشرون مئات المؤلَّفات الأكاديمية، وجميعهم متشائمون. للتشاؤم عندنا وقع حسن، يفترض أنّ الأغبياء وحدهم يمضون سعداء. نحن أمّة في أطوار التطوّر، والأمّة الأكثر استقراراً وأمناً وازدهاراً في أمريكا اللاتينية، وواحدة من أكثرها تنظيماً، لكن يُزعجنا كثيراً أن يرى أحد أنّ «البلد على أحسن حال»، ومن يجرؤ على قول هذا يوصم بالجهل ولا يقرأ الصحف اليومية.

تحكَّمت الطبقةُ الاجتماعية ذات السطوة الاقتصادية بتشيلي منذ استقلالها في العام 1810. كانوا في السابق ملاّك أراضٍ، واليوم هم أصحاب شركات وصناعيون ومصرفيون. في السابق كانوا ينتمون إلى أقلّية متحدرة من أوروبيين، مؤلفة من حفنة من الأسر؛ واليوم الطبقة الحاكمة أوسع، عدة آلاف يُمسكون بمقبض المقلاة. خلال المئة سنة الأولى من عمر الجمهورية خرج الرؤساء والسياسيون من الطبقة العليا، لكنّ بعد ذلك شاركت الطبقة الوسطى أيضاً في الحكومة. ومع ذلك فقليلون هم الذين خرجوا من الطبقة العاملة. الرؤساء الذين كانوا يملكون ضميراً اجتماعياً رجالٌ حرّكتهم اللامساواة والظلمُ وفاقة الشعب، وإن لم يُعانوا ذلك شخصياً. وفي الوقت الراهن الرئيس وغالبية السياسيين، باستثناء عدد من اليمينيين، لا يُشكّلون جزءاً من المجموعة الاقتصادية، التي تتحكّم واقعياً بالبلد. يقوم حالياً تناقض ظاهري بأن الذي يحكم هو ائتلافٌ من أحزاب الوسط واليسار (تجمّع) ورئيسٌ اشتراكي، لكنّ الاقتصاد اقتصادُ الرأسماليّة الجديدة.

لقد أدارت الأقلية المُحافِظة البلدَ بعقلية إقطاعية حتى العام 1920. كان الرئيس الليبرالي خوسِهْ بالماثِدا في العام 1891 استثناءً، فقد حدَسَ حاجاتِ الشعب، وحاولَ أن يقوم ببعض الإصلاحات التي تجرح مصالحَ أرباب العمل، رغم أنّه هو نفسه يتحدّر من عائلة قوّية، مالكة لإقطاعةٍ شاسعة. عارضه البرلمان المُحافِظ معارضة شرسة، حدثت أزمة اجتماعية وسياسية، وتمرّدت البحرية لتدعم البرلمان، وقامت حرب أهلية دامية، انتهت بانتصار البرلمان وانتحار بالماثِدا. ومع ذلك فقد زُرِعت بذورُ الأفكار الاجتماعية، وظهرت في السنوات اللاحقة الأحزابُ الراديكالية والشيوعية.

في العام 1920 انتُخِبَ لأوّل مرّة زعيمٌ يُبَشّر بالعدالة الاجتماعية، أرتورو ألِسّاندري بّالما، الملقّب بـ «الأسد»، المنتمي إلى الطبقة الوسطى، الجيل الثاني من المهاجرين الطليان. ورغم أنّ عائلته لم تكن ثرية إلاّ أن سلالته الأوروبية وثقافته وتربيته وضعته طبعاً في عداد الطبقة الحاكمة. أصدر قوانين اجتماعية وتنظّم أثناءَ حكمه العمّالُ، ووجدوا منفذاً لهم إلى الأحزاب السياسية. اقترح ألِسّاندري تعديلَ الدستور كي يقيم ديمقراطيةً حقيقية، لكنّ قوى المعارضة المُحافِظة منعته، رغم أنّ غالبية التشيليين، وخاصّة الطبقة الوسطى، أيّدته. لقد جعل البرلمان (مرّة أخرى البرلمان!) حكمه صعباً، فقد طلب منه أن يُغادر منصبه ويذهب منفياً إلى أوروبا. مجالس عسكرية متتالية حاولت أن تحكم؛ لكنَّ البلد أضاع طريقه والصوتَ الشعبي طالبَ بعودة «الأسد»، الذي أنهى دورته بإصدارِ دستورٍ جديد.

القوّات المسلحة التي أُبقي عليها مهمَّشة عن السلطة، وكانت تعتقد أنّ البلد مدين لها بالكثير، نظراً لانتصاراتها في حروب القرن التاسع عشر، نصّبت الجنرال كارلوس إيبانيث دِل كامْبّو بالقوّة في

الرئاسة. وسرعان ما اتخذ إيبانيث إجراءات ديكتاتورية، كان التشيليون حتى تلك اللحظة بعيدين عنها، وهذا ما أحدث معارضةً مدنية هائلة شلّت البلدَ فاضطُرّ الجنرال للتنحّي. وعندئذ بدأت مرحلة يمكننا أن نصفها بالديمقراطية السليمة. تشكّلت تحالفات حزبية وصعد اليسار إلى الحكم مع الرئيس بِدرو أغيرِّ ثِردا، من الجبهة الشعبية، التي شارك فيها الحزب الشيوعي والراديكالي. بعد بِدرو أغيرِّ ثِردا، انضمّ إيبانيِث المطاح به إلى قوى اليسار، وتتالى ثلاثة رؤساء راديكاليين. (رغم أنّني كنت وقتذاك صغيرة، إلاّ أنّني أتذكّر أنّه حين انتخب إيبانيِثْ مرّة ثانية للحكم أُقيم في أسرتنا عزاء. كنتُ أسمعُ، من زاويتي تحت البيانو، تكهّنات جدّي وأخوالي الكارثية، وقضيتُ ليالٍ دون نوم، مقتنعةً بأنّ جيوش العدوّ سوف تُدمّرُ بيتنا. لم يحدث شيء من هذا. لقد تعلّم الجنرالُ الدرسَ الماضي وبقي ضمن القانون). خلال عشرين سنة قامت حكومات وسط ـ يسار حتى العام 1958، حين انتصر اليمين مع خورخِهْ ألِسّاندري، ابن «الأسد» والمختلف عنه تماماً. كان الأسد شعبوياً، ذا أفكار متقدّمة بالنسبة لزمانه وشخصية رهيبة؛ وابنه محافِظاً يعكسُ شخصية أقرب إلى الجبن.

وبينما كانت تتوالى الثوراتُ، ويستولي الزعماءُ على الحكم بالرصاص في غالبية بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى كانت تتعزَّز في تشيلي ديمقراطيةٌ مثالية. في بداية القرن العشرين كان يتبلور تقدّم اجتماعي. سمحت التربية الرسمية، المجانية والإلزامية، والصحة العامة التي وضعت في متناول الجميع، ونظام الضمان الاجتماعي الأكثر تقدّماً في القارة، بتحصين طبقةٍ وسطى واسعة، مثقفة ومسيّسة، وأيضاً طبقة عاملة تتمتع بوعي طبقيّ. تشكّلت النقابات، واتحادات العمال، والمستخدمون، والطلاب. وحصلت النساء على حقّ التصويت، وبلغت العمليات الانتخابية تمامها. (إن العملية

الانتخابية في تشيلي متحضّرة، مثل ساعة الشاي في فندق سافوي في لندن. يقف المواطنون في «الصُفيِّف» ليصوّتوا، دون أن يحدث أبداً أدنى شجار، حتى ولو كانت النفوس السياسية حامية. رجال ونساء يصوّتون في أماكن منفصلة يحرسها جنود لتفادي الاضطرابات والرشوة. يتوقّف قبل يوم بيعُ المشروبات الكحولية، وتبقى المتاجر والمكاتب مغلقة؛ وفي هذا اليوم لا يعمل الناس).

طال القلقُ على العدالةِ الاجتماعية حتى الكنيسةَ الكاثوليكية، ذات التأثير الهائل في تشيلي، التي قامت، مرتكزةً على المنشورات البابوية الجديدة، بجهود كبيرة لدعم التغيرات التي حدثت في البلد. بينما كان يتعزّز في العالم نظامان سياسيان متعارضان: الرأسمالية والاشتراكية. ولمواجهة الماركسية نشأت في أوروبا الديمقراطيةُ المسيحية وحزبُ الوسط برسالة إنسانية واجتماعية. في تشيلي التي كانت تَعِدُ بـ «ثورة في الحرية» فازت الديمقراطية المسيحية في العام 1964، ملحقة الهزيمة باليمين المحافظ وبأحزاب اليسار. وكان انتصار إدواردو فرِيْ مونتالبا الساحق، المدعوم بغالبية ديمقراطية مسيحية في البرلمان قد شكّل مَعْلماً، لقد تغيَّر البلدُ وصار يُعتقد أنّ اليمين صار في التاريخ، وأن اليسار لن يملك بعد الآن فرصة أبداً، وأنّ الديموقراطية المسيحية ستحكم مدى الزمان، لكن الخطّة لم تعطِ أكلها وفقد الحزبُ خلال سنواتٍ قليلة الدعمَ الشعبي، واليمين لم يُسحق، كما تنبّؤوا، واليسار الذي استعاد نفسه من الهزيمة نظّم نفسه. كانت القوى مقسومة إلى ثلاثة أثلاث، يمين، ووسط، ويسار.

في نهاية مرحلة فرِيْ مونتالبا كان البلدُ هائجاً؛ وتوجد رغبة بالانتقام لدى اليمين، الذي كان يشعر بأنّ ملكيته انتُزِعت منه، ويخاف أن يخسر القوّةَ التي كان يتباهى بها نهائياً، وكان هناك حقدٌ كبير من جانب الطبقات العمالية، التي لم تشعر بأنّها ممثّلة

بالديمقراطية المسيحية. كلّ ثلثٍ قدّم مرشّحَه: خورخِهْ أَلِسّاندري عن اليمين، رادوميرو توميك عن الديمقراطية المسيحية، وسالفادور ألليندي عن اليسار.

اجتمعت أحزاب اليسار في الائتلاف المسمّى الوحدة الشعبية التي كانت تضمّ الحزب الشيوعي. استنفرت الولايات المتحدة، رغم أنّ استطلاعات الرأي كانت تؤكّد انتصارَ اليمين، وخصّصت عدّة ملايين من الدولارات لمحاربة ألليندي. كانت القوى السياسية موزّعة بحيث أنّ مشروع سالفادور ألليندي «الطريق التشيلي إلى الاشتراكية» فازَ بهامشٍ ضيق، ثمانية وثلاثون بالمئة من الأصوات. وبما أنّه لم يفُزْ بالأغلبية المطلقة، فعلى المجلس أن يصادق على الانتخاب. تقليدياً كان سيعينُ المرشّحَ الحاصل على أكثر الأصوات. وكان ألليندي أوّل ماركسيٍّ يصلُ إلى رئاسة بلد بالتصويت الديمقراطي. عيون العالم التفتت إلى تشيلي.

كان سالفادور ألليندي غوسِّنز طبيباً محبوباً، ووزيرَ صحّة في شبابه، وعضوَ مجلس شيوخ لسنواتٍ طويلة، ومرشحَ اليسار الأبدي للرئاسة. هو نفسه كان يمزح بأنه سيكتبُ علي قبره عندما يموت: «هنا يرقد رئيس تشيلي القادم». كان شجاعاً ومخلصاً لأصدقائه ومعاونيه، وشهماً مع خصومه. كانوا يصمونه بأنه مزهوّ بطريقته في اللباس، وحبّه للحياة الهانئة والنساء الجميلات، لكنّه كان جدّياً تماماً بالنسبة لقناعاته السياسية، وما من أحد يستطيع أن يتهمه من هذه الناحية بالتهوّر. كان أعداؤه يُفضِّلون عدم مواجهته شخصياً، لأنّه مشهور بأنّه يحوّل أيّة حالة لصالحه. كان يريد القيام بإصلاحات اقتصادية عميقة في إطار الدستور، وتوسيع الإصلاح الزراعيِ الذي بدأته الحكومة السابقة، وتأميم الشركات الخاصّة والبنوك ومناجم النحاس، التي كانت في أيدي الأمريكيين الشماليين؛ ويريد الوصول إلى الاشتراكية محترِماً كلَّ حقوق المواطنين وحرياتِهم، التجربة التي لم يحاولها أحدٌ قبله.

كان قد مضى على الثورة الكوبية عشر سنوات رغم جهود الولايات المتحدة لتدميرها؛ وفي بلدان أمريكية لاتينية كانت هناك حركات يسارية مقاتلة كثيرة. بطل الشباب بلا منازع كان تشي غيفارا، المغتال في بوليفيا، الذي تحوّلَ بوجهه الشبيه بقدّيس وقبعته إلى رمز للنضال من أجل العدالة. تلك هي أزمنة الحرب الباردة، حين قسّم جنونُ الأحاديةِ العالمَ إلى إيديولوجيتين وحدّدَ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة لعدّة عقود. كانت تشيلي أحد البيادق التي ضُحّي بها في صراع الجبّارين. قرّرت إدارة نيكسون التدخّلَ مباشرة في العملية الانتخابية التشيلية. هنري كيسنجر الذي كان على رأس السياسة الخارجيةِ، ويعترف أنّه لا يعرفُ شيئاً عن أمريكا اللاتينية، التي يعتبرها الحديقة الخلفية للولايات المتحدة، قال: «لم يكن هناك من سبب يجعلنا نتفرّج كيف يتحوّل بلد إلى شيوعي بسبب عدم مسؤولية أهله دون أن نفعل شيئاً في هذا الاتجاه». (كانت تدور في أمريكا اللاتينية هذه النكتة: هل تعلم لماذا لا يوجد في الولايات المتحدة انقلابات عسكرية؟ لأنّه لا توجد فيها سفارة أمريكية شمالية). بدا طريق سالفادور الليندي الديمقراطي إلى الاشتراكية بالنسبة إلى كيسنجر أخطر من الثورة المسلحة، لأنّه كالوباء يمكن أن يُصيب القارةَ بعدواه.

وضعت المخابرات المركزية الأمريكية خطّة لمنع ألليندي من تولّي الرئاسة. بداية حاولت أن ترشو بعض أعضاء المجلس كيلا يُعيّنوه، وليدعوا إلى تصويت ثانٍ يكون فيه مرشّحان فقط: ألليندي وديمقراطي مسيحي مدعوم من اليمين. وبما أن الرشوة لم تُثمِر، فقد خطّطت لخطف القائد العام للقوات المسلحة الجنرال رِينِهْ شنئِدِر، من قبل كوماندس يساري مزعوم، كان في الحقيقة مجموعة من الفاشيّين الجدد، لإثارة الفوضى والتدخّل العسكري. قتل

الجنرال في الاشتباك مدروزاً بالرصاص وأعطت الخطّة نتائج عكسية: موجة من الرعب هزَّت البلد وسلّم المجلس الرئاسةَ بالإجماع إلى سالفادور ألليندي. بدءاً من تلك اللحظة تآمر اليمينُ والمخابراتُ المركزية لقلب حكومة الوحدة الشعبية، حتى على حساب تدمير اقتصاد تشيلي، وطريقها الديمقراطي الطويل. نفّذوا المخطط المسمّى «زعزعة»، والذي قام على قطع القروض الدولية وحملة تخريبٍ للتسبب بالانهيار الاقتصادي والعنف الاجتماعي. راحوا في الوقت ذاته يغرون العسكرَ بصفارات الإنذار التي مثّلت في اللحظة الأخيرة أكثر الأوراق قيمة في اللعب.

نظّمَ اليمينُ الذي يتحكّم بالصحافة في تشيلي حملةَ إرهاب، تضمّنت أفيشات تمثل جنوداً سوفييتين يقتلعون أطفالاً من أذرع أمّهاتهم ليأخذوهم إلى الكولاك. يوم الانتخابات في 1970، حين كان انتصار ألليندي واضحاً، خرج الشعبُ ليحتفل بذلك، لم تُرَ قط مظاهرة بمثل ذلك الحجم. وانتهى اليمين إلى أن صدّق دعاية الخوف ذاتها التي أطلقها وتحصّن في بيوته مقتنعاً بأن «المكسورين» المتحمّسين سوف يرتكبون كلّ أنواع العنف. كان الشعور بالانتعاش عند الشعب رائعاً ـ شعارات، وأعلام وعناقات ـ لكن لم يحدث تجاوزات، وفي الفجر انسحب المتظاهرون إلى بيوتهم مبحوحي الأصوات من كثرة ما غنّوا. في اليوم التالي كان هناك صفوف طويلة أمام المصارف ووكالات السفر في الحي العالي: كثيرون راحوا يسحبون أموالهم ويشترون بطاقات للهرب إلى الخارج، مقتنعين بأنّ البلد يمضي في طريق كوبا ذاته.

ولكي يُقدِّم فيديل كاسترو سنداً للحكومة الاشتراكية وصل في زيارة للبلد، مما فاقم من رعب المعارضة، خاصّة حين رأت الاستقبال الذي لاقاه القائد «الفاسد». اجتمع الشعبُ على طول

الطريق من المطار وحتى وسط سانتياغو، مُنَظَّماً في نقابات، ومدارسٍ، واتحاداتٍ مهنية، وأحزاب سياسية، الخ، بالرايات والأعلام والفرق الموسيقية إضافة إلى الجماهير الهائلة المجهولة، التي راحت لتتفرّج بدافع الفضول، وبالحماس ذاته الذي استقبلت به البابا بعد سنوات. امتدّت زيارة القائد الملتحي أكثرَ من اللازم، ثمانيةً وعشرين يوماً طويلاً، جاب خلالها البلدَ من شماله إلى جنوبه يرافقه ألليندي. أظنّ أنّنا جميعاً تنفّسنا الصعداء حين غادر، فقد أنهكنا، لكن لا يمكن نكران أنّ موكبه خلّف في الجوّ موسيقى وضحكاً؛ فقد تبينّ أنّ الكوبيين ساحرين. بعد عشرين عاماً حالفني الحظّ بالتعرّف على كوبيين منفيين في ميامي، وتأكّدت من أنّهم بظرافة أهل الجزيرة. لقد صُدِمنا نحن التشيليين الجدّيين والوقورين دائماً، لم نكن نعلم أنّ الحياةَ والثورةَ يمكن أن يؤخذا بكلّ ذلك الفرح.

الوحدة الشعبية كانت شعبية. فأحزاب الائتلاف تتصارع مثل الكلابِ على كلّ لحمة مسمومة من السلطة، ولم يكن على ألليندي أن يواجِهَ معارضةَ اليمين وحسب، بل والنقاد بين صفوفه الذين راحوا يُطالبون بمزيدٍ من السرعة والراديكالية. راح العمال يستولون على المعامل والإقطاعيات بعد أن تعبوا من انتظار تأميم الشركات الخاصّةِ، وتوسيعِ الإصلاح الزراعي. أثار تخريب اليمين والتدخل الأمريكي الشمالي، وأخطاء حكومة ألليندي أزمةً اقتصاديةً وسياسيةً واجتماعيةً في غاية الخطورة. التضخّم وصل رسمياً إلى ثلاثمئة وستين بالمئة في العام، رغم أنّ المُعارضة كانت تؤكِّد أنّها أكثر من ألف بالمئة، أي أنّ ربَّةَ البيت كانت تستيقظ دون أن تدري كم سيكلّفها خبز اليوم. حدّدت الحكومةُ أسعار المنتجات الأساسية؛ وأفلس الصناعيون والمزارعون. وبلغت ندرة المواد حدَّ أن الناس راحوا يقضون ساعاتٍ من أجل الحصول على فروج هزيل، أو فنجان زيت، بينما الذين يستطيعون الدفع يشترون ما

يحلو لهم من السوق السوداء. كان التشيليون يتكلّمون بطريقتهم المتواضعة بالكلام والسلوك عن «الصُفَيِّف»، حتى ولو بلغ طوله ثلاث قصبات، وكانوا يقفون فيه بمحض العادة دون أن يدروا ما الذي يُباع. سرعان ما حدث ذُهانٌ من فقدان المواد التموينية، بحيثُ لا يكاد يجتمع ثلاثة أشخاص حتى يصطفوا آلياً. هكذا حصلتُ على السجائر رغم أنّني لم أدخِّن قط، وبهذه الطريقة حصلت على إحدى عشرة علبة شمع غير ملون، لتلميع الأحذية وغالون من خلاصة الصويا، لم أكن أعرف لماذا تُستخدم. كان هناك ممتهنو صفوف يكسبون بقشيشاً من خلال حفظ الدور؛ أعرف أنّ أولادي كانوا يحومون حول شهريتهم بهذه الطريقة.

كان الشعب، رغم المشاكل وجوّ المواجهة المستمرة، متحمّساً، لأنّه شعر لأوّل مرّة أنّه يملك مصيره بين يديه. فقد حدثت نهضة حقيقية في الفنون والفولكلور، والحركات الشعبية والطلابية. جماهير من المتطوّعين خرجوا لمحو الأمية في زوايا تشيلي؛ ونُشِرت كتبٌ بسعر الصحيفة، كي يملك كلّ بيت مكتبةً. من ناحيته كان اليمين الاقتصاديُّ، والطبقةُ العليا، وقطّاعٌ من الطبقة الوسطى، بخاصّة سيّدات البيوت اللواتي عانَين من ندرة المواد التموينية والفوضى، يكرهون ألليندي ويخافون أن يُخلَّد في الحكومة مثل كاسترو في كوبا.

كان سالفادور ألليندي ابن عمّ أبي، والشخص الوحيد من أسرة ألليندي الذي بقي على اتصال بأمّي بعد أن ذهب أبي. وكان صديقاً لعمّي زوج أمّي، مما أتاح لي عدّةَ فرص للقائه خلال رئاسته. ومع أنني أتعاون مع حكومته، لكن سنوات الوحدة الشعبية الثلاث كانت أكثر سنوات عمري أهميّة. لم أشعر قط بأنّني حيّة كما في تلك المرحلة، ولم أعد لأشارك بعدها في مجتمع أو في أحداث بلد.

يمكن القول من المنظور الراهن إنّ الماركسية ماتت كمشروعٍ اقتصادي، لكنّني أعتقد أنّ بعض مسلّمات سالفادور ألليندي ما زالت جذّابة، مثل البحث عن العدالة والمساواة. كانت المسألة هي إقامة نظام يُعطي الفرص ذاتها للجميع ويخلق «إنساناً جديداً»، دافعه ليس الربح الشخصي، بل الخير المشترك. كنّا نظنّ أنّ من الممكن تغيير الناس عن طريق التربية العقائدية؛ وكنّا نرفض أن نرى أنّ النتائج في أماكن أخرى، حيث حاولوا حتى فرض النظام بقبضةٍ حديدية، كانت مريبة. لم تكن تُلمح بعد كارثةُ الاتحاد السوفييتي. فالمقدّمة التي تقبلها الطبيعة البشرية لتَغيرٍ في غاية الجذرية، تبدو الآن ساذجة، لكنّها كانت أقصى ما يتطلع إليه كثيرون منّا. اشتعل هذا في تشيلي مثل النيران. الخصائص المميّزة للتشيليين التي سبق وذكرتها، مثل الكبرياء والرعب من التفاخر والبروز فوق البقية، أو لفت الانتباه، والكرم والميل للتنازل قبل المواجهة، والعقلية القانونية، واحترام السلطة، والإذعان للبيروقراطية، وحب النقاش السياسي، وخصائص أخرى كثيرة، وجدت مكانها التام في مشروع الوحدة الشعبية. حتى الموضة تأثّرت. فخلال هذه السنوات الثلاث ظهرت الموديلات في المجلات النسائية مرتدياتٍ أقمشة خشنة ويدوية وأحذية عمالية؛ وصارت تُستخدم أكياسُ الطحين المبيّضة لصناعة القمصان. كنتُ مسؤولة عن قسم الديكور في المجلة، التي عملت فيها، وكان تحدّيًّ هو تصوير الأجواء المريحة واللطيفة بأدنى التكاليف: ثريات مصنوعة من مرطبانات، سجاد من القنّب، أثاث من الصنوبر المطلي باللون الداكن، والمحروق بجهاز الحرق كي يبدو قديماً. وكنّا نسميّه: «أثاث رهباني» والفكرة هي أنّ أيَّ شخص يستطيع أن يصنع ذلك في بيته بأربعة ألواح ومنشار. في العصر الذهبي لما يسمى دي إف إل 2، الذي كان يسمح بالحصول على مساكن مساحتها مئة وأربعين متراً مربّعاً كحدٍّ أقصى، بسعر منخفض وميزات ضرائبية. معظم البيوت والشقق كانت بحجم مرآبٍ

لسيارتين، فقد كانت مساحة بيتنا تسعين متراً مربّعاً، وكان يبدو لنا قصراً. أمّي المسؤولة آنذاك عن قسم المطبخ في مجلة «باولا»، كان عليها أن تخترع وصفاتٍ رخيصةً لا تحتوي على منتجات نادرة، آخذة بالاعتبار أن هناك نقصاً في كلّ شيء. إبداعها كان محدوداً قليلاً. وقد سألتني فنّانة بيروية، جاءت زائرة في ذلك الوقت، مستغربةً لماذا تلبس التشيليات ملابس مجذومات، ويعشن في بيوت كلاب، ويأكلن مثل فقراء الهند.

رغم المشاكل المتعدّدة التي واجهها السكانُ آنذاك، بدءاً من ندرة المواد التموينية، وحتى العنف السياسي، فإنّ الوحدة الشعبية زادت بعد ثلاث سنواتٍ من أصواتها في الانتخابات البرلمانية في آذار 1973. الجهود التي بُذِلت للإطاحة بالحكومة من خلال التخريب والدعاية لم تُعطِ النتائج المتوقّعة، وعندئذٍ دخلت المعارضة في المرحلة الأخيرة من المؤامرة وحرّضت على انقلاب عسكريّ. لم يكن عندنا، نحن التشيليين، فكرة عمّا يعنيه هذا، لأنّنا تمتعنا بديمقراطية طويلة ومتماسكة، وكنّا نتباهى بأنّنا مختلفون عن بقيّة بلدان القارّة، بحيث كنّا نسميها باحتقار: «جمهوريات الموز»، حيث هناك، في كلّ لحظة زعيم يستولي على الحكومة بالرصاص. لا، لن يحدث هذا عندنا أبداً، كنّا نؤكّد، لأنّه حتى الجنود في تشيلي ديمقراطيون، وما من أحد يجرؤ على خرق دستورنا. كان هذا جهلاً خالصاً لأنّنا لو راجعنا تاريخنا لعرفنا العقلية العسكرية بشكلٍ أفضل.

عند قيامي بالبحث من أجل روايتي «صورة عتيقة»، المنشورة في العام 2000، عرفت أنّ قواتنا المسلحة قامت بعدّة حروب في القرن التاسع عشر، وأظهرت من الوحشية بقدر ما أظهرت من الشجاعة. إحدى أشهر لحظات تاريخنا كانت السيطرة على صخرة أريكا (حزيران 1880) خلال حرب الباسيفيك ضدّ البيرو وبوليفيا.

والصخرة أنف جبلي مرتفع ومنيع، عبارة عن مئتي متر من الانحدار العمودي باتجاه البحر، كانت توجد فيها عدّة قوات بيروية(*) مزوّدة بالمدفعية الثقيلة، محميّة بثلاثة كيلومترات من متاريس أكياس الرمل، ومحاطة بحقل ألغام. اندفع الجنود التشيليون هاجمينَ بالسكاكين المعقوفة بين أسنانهم والحراب مركبة إلى بنادقهم. كثيرون منهم سقطوا تحت الرصاص المعادي، أو تطايروا نتفاً حين داسوا على الألغام، لكن لا شيء استطاع أن يوقف الآخرين، الذين وصلوا إلى التحصينات وتسلّقوها فائري الدم، ونزعوا أحشاء البيرويين بالسكاكين والحراب. لقد استولوا على الصخرة بمأثرة غير معقولة، استمرّت فقط خمساً وخمسين دقيقة، بعدها قتلوا المهزومين، وأجهزوا على الجرحى، ونهبوا مدينة أريكا. رمى أحد المقدمين البيروين بنفسه إلى البحر، كي لا يقع في أيدي التشيليين. إنّ صورة الضابط الشجاع وهو يقذف بنفسه من فوق الجرف ممتطياً جواده الأسود، بنعاله الذهبية، تشكل جزءاً من أسطورةَ الحدث الوحشي، وقد حُسِمت الحربُ بعد ذلك في الانتصار التشيلي في معركة ليما، التي يتذكّرها البيرويون كمذبحة، رغم أنّ النصوص التشيلية التاريخية تؤكّد أنّ جيوشنا احتلّت المدينة بشكلٍ عاديّ.

التاريخ يكتبه المنتصرون على طريقتهم. كلُّ بلدٍ يُقدّم جنودَه تحت أكثر الأضواء ملاءمة. تُخفى الأخطاء، يُبرَز الشر، وبعد المعركة المظفّرة يصبح الجميعُ أبطالاً. وبما أنّنا كنّا نصدّق فكرة أنّ قواتنا المسلحة التشيلية مشكّلة من جنود مطيعين، بقيادة ضباط لا غبار عليهم، أخذتنا المفاجأة الرهيبة ثلاثاء الحادي عشر من أيلول من العام 1973، حين رأيناهم عملياً. لقد وصلت الوحشية إلى حدٍّ قيل فيه إنهم كانوا مخدّرين، كما يفترض أن يكون الرجال الذين

(*) نسبة إلى البيرو، والتي عادة ما تنقل إلى العربية بإضافة حرف ف: البيروفية، التي لا أرى مبرراً لها.

استولوا على صخرة أريكا، مسّممين بـ «دقيق الشيطان»، وهي خلطة متفجرة من الأغواردييينت والبارود. حاصروا قصرَ لا مونيدا، مقرّ الحكومة ورمز ديمقراطيتنا بالدبابات، ثمّ قصفوه من الجوّ. مات ألليندي داخل القصر، والرواية الرسمية تقول إنّه انتحر. ووقع مئات القتلى وآلاف أخرى من الأسرى، بحيث تحوّلت الملاعبِ الرياضيةّ، وحتى بعض المدارس إلى سجونٍ، ومراكزِ تعذيبٍ ومعسكراتِ اعتقال. وبحجّة تحرير البلد من الديكتاتورية الشيوعية المفترضة التي يمكن أن تحدث في المستقبل، استُبْدِلَت الديمقراطيةُ بنظام رعبٍ جاء ليدوم سبعة عشر عاماً ويترك آثاره لربع قرن.

أتذكّر الخوف كطعم معدني دائم في فمي.

بارود ودم

ولكي نعطي فكرة عما شكّله الانقلاب العسكري علينا أن نتصوّر ما يشعر به أمريكيّ شماليّ أو إنكليزي إذا ما هاجم جنوده بسلاح الحرب البيت الأبيض أو قصر باكينغهام، وأوقعوا الموت بآلاف المواطنين، بينهم رئيس الولايات المتحدة أو الملكة ورئيس الوزراء البريطانيان، ويُعلنون الكونغرس أو البرلمان في إجازة لا محدودة، مدمّرين المجلس الأعلى، ثم يُعلّقون الحريات الفردية والأحزاب السياسية، ويقيمون رقابة مطلقة على وسائل الاتصال، وينهمكون في عملية تطهيرٍ لكلّ صوت مخالف. تصوّر الآن أنّ هؤلاء الجنود أنفسهم، ممسكون بالتعصّب الخلاصي؛ ويتربعون على عرش السلطة زمناً طويلاً، وهم مستعدّون لأن يجتثّوا خصومهم الإيديولوجيين من جذورهم. هذا ما حدث في تشيلي.

انتهت المغامرة الاشتراكية بشكلٍ مأساوي. الطغمة العسكرية برئاسة الجنرال أوغوستو بنوتشيت طبّقت مبدأ الرأسمالية الوحشية، كما سُمِّيَت تجربة الليبرالية الجديدة، لكنّها كانت تجهل أنّ عملها المتوازن يتطلّب قوّة عمالية في استخدامٍ تامٍّ لحقوقها. ولتدمير آخر بذرةٍ للفكر اليساري وزرعِ الرأسمالية القاسية مارسوا قمعاً وحشياً. لم تكن تشيلي حالة معزولة، فليلُ الديكتاتورية الطويل غطّى قسماً كبيراً من القارّة، على مدى أكثر من عقد. ففي العام 1975 كان

أكثر من نصف الأمريكيين اللاتينيين يعيشون تحت أنواع من الحكومات القمعية، وكثير منها مدعومة من الولايات المتحدة التي تملك رقماً قياسياً مخزياً في الإطاحة بحكوماتٍ منتخبة من شعوب أخرى، وفي دعم استبدادٍ لن يُسمح به أبداً على أراضيها، مثل بّابا دوك في هاييتي، وتروخيليو في جمهورية الدومنيكان، وسوموزا في نيكاراغوا وبلاد أخرى كثيرة.

ألاحظ أنّني ذاتية النزعة عند الكتابة عن هذه الأحداث. عليّ أن أحكي لكم دون عاطفة، لكنّ هذا سيكون خيانة لقناعاتي ومشاعري. فهذا الكتاب لا يُحاول أن يكون كتاب أخبار سياسية تاريخية، بل سلسلة من الذكريات، التي هي دائماً مختارة ومصبوغة بصبغة التجربة الخاصّة وبالإيديولوجيا.

انتهى القسمُ الأوّلُ من حياتي في ذلك الحادي عشر من أيلول من العام 1973. لن أتوسّع كثيراً في هذا، فلقد رويته في آخر فصل من روايتي الأولى، وفي مذكراتي «باولا». إنّ عائلة ألليندي، أي أولئك الذين لم يُقتلوا، سُجِنوا أو انتقلوا إلى العمل السرّي، أو ذهبوا إلى المنفى. أخوتي الذين كانوا في الخارج، لم يعودوا، وأبواي اللذان كانا يعملان سفيرين في الأرجنتين، بقيا في بوينس أيرس إلى أن هُدِّدا بالقتل واضطرّا للهرب. أسرة أمّي على العكس كانت في غالبيتها عدوّاً لدوداً للجبهة الشعبية وكثيرون منهم احتفلوا بالانقلاب العسكري بالشامبانيا. كان جدّي يكره الاشتراكية، وينتظر بلهفة نهاية حكومة ألليندي، لكنّه لم يبغِ قط أن تكون على حساب الديمقراطية. ارتعب حين رأى العسكرَ الذين كان يحتقرهم، في السلطة، وأمرني بألاّ أدخل في مشاكل؛ لكنّه كان من المحال عليّ أن أبقى على هامش ما يجري. كان قد مضى على العجوز شهور وهو يراقبني ويسألني أسئلة مضلّلة، أعتقدُ أنّه كان يتوجّس بأنّ

حفيدته ستختفي في أيّة لحظة. كم كان يعرف عمّا يجري؟ كان يعيش معزولاً يكاد لا يخرج إلى الشارع، ويتواصل مع الواقع عبر الصحافة التي كانت تُخفي وتكذب. ربّما كنتُ الوحيدة التي حكت له عن الوجه الآخر للميدالية. حاولت في البداية أن أُبقيه في صورة الأمر خلال ذلك الوقت، لكنّني تخلّيتُ فيما بعد عن مدِّه بالمعلومات السيئة، كيلا أُحبطه وأخيفه. فقد راح يختفي أصدقاءٌ ومعارف، بعضهم يعود بعد أسابيع من الغياب بعيني مجنونٍ وآثارِ تعذيب. كثيرون بحثوا عن ملاذ في أماكن أخرى. في البداية استقبلتهم المكسيك وألمانيا وفرنسا وكندا وإسبانيا، وعدد من البلدان الأخرى، لكنّها تخلّت عن ذلك فيما بعد، لأنّ آلاف اللاجئين الأمريكيين اللاتينيين انضمّوا إلى موجة التشيليين.

في تشيلي حيث الصداقة والأسرة في غاية الأهمية حدثت ظاهرةٌ، لا يمكن تفسيرها إلاّ بالتأثير الذي ينطوي عليه الخوف في روح المجتمع. أتت الخيانةُ والوشايةُ على حياة كثير من الناس؛ كان يكفي صوتٌ مجهول بالهاتف كي تُنْشبَ، ما أسيءَ تسميته بالدوائر الأمنية، مخالبَها في المتهم، فلا يعود يُعرَفُ عن شخصه شيء. انقسم الناسُ بين مؤيّدين للحكومة العسكرية ومُعارضين لها؛ ودُمّرت الكراهيةُ وانعدامُ الثقة والخوفُ التعايش. منذ أكثر من عقد رُمّمت الديمقراطية، لكن هذا الانقسام يمكن أن يُحسّ، حتى في قلب الكثير من الأسر. تعلّم التشيليون أن يصمتوا، ألا يسمعوا ولا يروا، لأنّهم ما داموا يجهلون الأحداث لا يشعرون بالتواطؤ. أعرف أشخاصاً كانت حكومة ألليندي تُمثّل بالنسبة إليهم أخطرَ وأهشّ ما يمكن أن يحدث. كانت الحاجة إلى تدميرها بالنسبة إليهم، وهم الناس الذين يقدرون أن يوجّهوا حياتهم حسب أكثر التعاليم المسيحية صرامة، في غاية الإلحاح، حتى أنّهم لم يناقشوا الوسائل.

ولم يفعلوا ذلك حتى حين صبّ أبٌ يائس، سِباستيان أثِبدو، البنزين على نفسه وأشعلها، مضحياً بها مثل رجل دين بوذي في ساحة كونثِبّثيون احتجاجاً على تعذيب أولاده. وقد تدبّروا أمرهم كي يتجاهلوا خرق حقوق الإنسان ـ أو كي يتظاهروا بأنّهم لا يخترقونها ـ خلال سنوات كثيرة؛ ولدهشتي ما زلت أجدُ من ينكرون ما حدث رغم البيّنات. يمكنني أن أتفهّم هذا، لأنّهم متمسكون بمعتقداتهم كما أتمسّك أنا بمعتقداتي. الفكرة التي عندهم عن حكومة ألليندي تكاد تكون مطابقة للتي عندي عن ديكتاتورية بنوتشيت، مع الاختلاف بأن الغاية لا تُبرّر الوسيلة في حالتي. الجرائم المرتكبة في الظلمة، خلال تلك السنوات، راحت تبرز للعيان دون مناص. البحث عن الحقيقة هو بداية المصالحة، حتى ولو تأخرت الجراح في الاندمال، لأنّ المسؤولين عن القمع لم يعترفوا بخطئهم، وليسوا مستعدين لطلب الاعتذار. ستبقى أعمالُ النظام العسكري دون عقاب، لكن لم يعد من الممكن إخفاؤها ولا تجاهلها. كثيرون يفكّرون، خاصّة الشباب الذين تربّوا دون روح نقدية أو حوار سياسي، بأنّه يكفينا النبش في التاريخ، لكنّ الضحايا وأسرهم لا يستطيعون أن ينسوا. ربّما علينا أن ننتظر حتى يموت آخرُ شاهد على تلك الأيّام قبل أن نغلق هذا الفصل من تاريخنا.

لم يكن العسكرُ، الذين استولوا على السلطة قدوةً في الثقافة. فإذا ما نظرنا من المسافة التي تقدمها السنون الكثيرة التي مرّت منذ ذلك الوقت فإنّ الأشياء التي كانوا يقولونها مضحكة، لكنّها كانت مريعة في تلك اللحظات. فتمجيدُ الوطنِ و«القيمِ المسيحية الغربية» والعسكريتاريا وصلَ إلى مستوياتٍ مثيرة للسخرية. كان البلدُ يُدار مثلَ ثُكنة عسكرية. بقيتُ سنواتٍ أكتبُ عموداً فكاهياً في مجلة وأُديرُ

برنامجاً تلفزيونياً خفيفاً، لكنّني لم أكن أستطيع عملَ هذا في ذلك الجوّ، لأنّه لم يكن يوجد في الواقع ما نضحك منه، باستثناء الحكّام، وهو ما كان يُكلّف المرءَ حياتَه. ربّما كانت فسحةُ الفكاهة الوحيدة هي «أيّام الثلاثاء مع مِرينو». وهو أحد جنرالات الطغمة. الأميرال خوسِهْ توريبيو مِرينو الذي كان يجتمع أسبوعياً بصحافة الرأي لإبداء الرأيِ حول موضوعات مختلفة. كان الصحافيون ينتظرون بلهفةٍ تلك اللآلئ من الوضوح الذهني والمعرفة. مثلاً، بالنسبة إلى تغيير الدستور، الذي كانوا يريدون من خلاله أن يُضفوا شرعيةً على انقضاض العسكر على السلطة في العام 1980، كان يرى بأكبر قدر من الجدّية أنّ: «الأهمية الأولى التي أراها فيه هي أنّه مهم». وعلى الفور كان الأميرال يوضّح كي يفهم الجميع: «كان هناك معياران في وضع هذا الدستور، المعيار السياسي، ولنَقُلْ سياسي - أرسطوطاليسي ضمن ما هو كلاسيكي يوناني، وفي الجانب الآخر المعيار العسكري بشكلٍ مطلق، الذي يأتي من ديكارت، والذي سنسميه ديكارتياً. في الديكارتية الدستور يتضمن كل ذلك، وهذا النوع من التعريفات الإيجابية بشكل رائع، والتي تبحث عن الحقيقة، دون بدائل، حيث الواحد زائد اثنين لا يمكن أن يكون إلاّ ثلاثة، ولا يوجد بديل غير الثلاثة...». ولنفترض في حال أنّ الصحافة في ذلك المستوى أضاعتْ خيطَ خطابه، فإنّ مِرينو يوضّح: «والحقيقة تسقط بهذا الشكل أمام الحقيقة الأرسطوطاليسية، أو الحقيقة الكلاسيكية، لنقل، تُقَدِّم بعض المعطيات للبحث عنها؛ لها أهمية هائلة في بلدٍ مثلَ بلدنا، الذي يبحث عن طرق جديدة، يبحث عن أشكال جديدة للعيش...».

هذا الأميرال نفسه برّر قرارَ الحكومة بتعيينه وزيراً للاقتصاد، قائلاً إنّه درسَ الاقتصاد كهاوٍ في دوراتٍ للموسوعة البريطانية.

وبالسذاجة ذاتها كان يقول إنّ «الحرب هي أجملُ مهنةٍ موجودة. وما الحربُ؟ استمرارٌ للسلام، فيها يتمُّ كلُّ ما لا يسمحُ به السلام، لتقود الإنسان إلى الجدل التام الذي هو اجتثاثُ العدو».

لم أكن في تشيلي في العام 1980، حين كانت تظهرُ هذه الأعاجيبُ في الصحافة. بقيتُ فترة، لكنّني حين شعرتُ أنّ القمعَ مثل رباط منزلق حول عنقي غادرتُ. رأيتُ البلد والناس يتغيّرون. حاولتُ أن أتكيَّفَ، وألاّ ألفت الانتباه، كما كان يطلب منّي جدّي، لكنّه كان محالاً، لأنّني في وضعي كصحافية كنتُ أعلم أشياء كثيرة. كان الخوف في البداية شيئاً مبهماً، وصعبَ التعريف، مثل رائحةٍ كريهة. استبعدت الشائعاتِ الرهيبة التي كانت تدور، بذريعةِ أنّه لا توجد براهين، وحين كنتُ أواجِه البراهين أقول إنّها استثناءات. كنتُ أظنّ نفسي بمنأى لأنّني «لم أكن أشارِك في السياسة»، بينما أنا أحمي فارّين يائسين في بيتي، أو أساعدهم على القفز من فوق جدارِ سفارةٍ ما بحثاً من ملاذ. كنتُ أعتقدُ أنّهم إذا ما اعتقلوني أستطيع أن أوضّح أنّني أفعلُ ذلك لأسبابٍ إنسانية، طبعاً كنت حالمةً (في القمر)؛ مضطربةً من رأسي وحتى أخمص قدميّ، لم أكن أستطيع النوم، ويكفي ضجيجُ سيارةٍ في الشارعِ بعد منع التجوّل كي أبقى أرتعد لساعات. استغرقتُ سنة ونصف حتى انتبهتُ إلى الخطر الذي يحدق بي؛ وأخيراً ذهبتُ في العام 1975، بعد أسبوعٍ من الاضطراباتِ والخطرِ الماحقِ إلى فنزويلا، حاملةً معي حفنةً من ترابِ حديقتي التشيلي. بعد شهر اجتمعتُ بزوجي وأولادي في كاراكاس. أعتقد أنّني أعاني من المرض الذي يُعاني منه الكثيرون من التشيليين الذين غادروا في تلك المرحلة: أشعر بأنّني مُذنبة لأنّني هجرتُ بلدي. لقد سألتُ نفسي ألفَ مرّةٍ: ما الذي كان سيحدث لو أنّني بقيت مثل الكثيرين الذين أداروا المعركة ضدّ الديكتاتورية من الداخل، إلى أن

استطاعوا هزيمتها في العام 1989. لا أحد يستطيعُ الإجابةَ على هذا السؤال، لكنّني متأكّدة من شيء واحد: ما كنتُ كاتبة لو لم أمرّ بتجربة المنفى.

مَنذ اللحظة التي عبرتُ فيها جبالَ الأند، ذات صباحٍ شتويّ ماطرٍ، بدأتُ دون وعي عمليةَ اختراعِ بلد. عدتُ لأُحلّق فوقَ الجبال مرّاتٍ كثيرة، ودائماً أتأثّرُ، لأنّ ذكرى ذلك الصباح تهاجمني كما كانت حين رأيتُ مشهد الجبال الشامخ. فالعزلة المطلقةُ لتلك القمم البيضاء، لتلك الهوّات السحيقة، لتلك السماء العميقة الزرقة، ترمز إلى وداعي لتشيلي. لم أتصوّر قط أنّني سأغيب كلّ هذا الزمن. وككلٍّ التشيليين ـ باستثناء العسكر ـ كنتُ مقتنعة بأنّ الجنودَ سرعان ما سيعودون إلى ثكناتهم، نظراً لتراثنا، وبأنَّ الانتخابات ستُجرى، وستكون لنا، كما كانت دائماً، حكومة ديمقراطية. ومع ذلك لا بدّ أنّني حدست شيئاً حول المستقبل، لأنّني قضيتُ ليلتي الأولى في كاراكاس وأنا أبكي بلا عزاء في سرير مستعار. كنتُ في أعماقي أستشرف أنّ شيئاً انتهى إلى الأبد، وأنّ حياتي راحت تُغيّر مسارها بعنف. سيطر عليّ الحنينُ منذ تلك الليلة الأولى، ولم يفلتني لسنوات طويلة إلى أن سقطت الديكتاتورية وعدتُ لأطأ أرضَ بلدي. خلال ذلك بقيتُ أعيش ناظرةً إلى الجنوبِ، متعلّقة بالأخبار، منتظرةً لحظةَ العودة بينما أختار ذكرياتي، أُغيّر بعضَ الأحداث، أُبالغ أو أتجاهل أخرى، أشذّب عواطفي؛ وهكذا رحتُ أشيدُ شيئاً فشيئاً هذا البلدَ المُختَرَع، الذي زرعتُ فيه جذوري.

هناك منافٍ تعضّ وأخرى،

مثل النار، تستنفد.

هناك آلام وطنٍ ميتٍ

تمضي صاعدة من الأسفل،

من القدمين والجذورِ

وفجأة يغرق الإنسانُ،

لا يعودُ يعرفُ السنابل،

فالقيثارةُ انتهت،

ما عادَ هناك هواء لهذا الفم،

ما عاد يستطيعُ العيشَ دون تراب،

وعندئذٍ يهوي على وجهه،

ليس على الأرض، بل على الموت.

بابلو نيرودا، «منافٍ»،

من أناشيد احتفالية

من بين التغيرات الملحوظة، التي حدثت في النظام الاقتصادي والقيم التي فرضتها الديكتاتورية، درج التفاخر: إذا لم تكن غنياً، فعليك أن تستدين كي تبدو كذلك، حتى ولو سرت مثقوبِ الجوربين. الاستهلاك هو الإيديولوجيا اليوم في تشيلي، كما في غالبية أنحاء العالم. السياسة الاقتصادية، الكمبيالات والفساد الذي وصل إلى مستويات لم يُرَ لها مثيل في البلد، أوجِدت سلالة جديدة من المليونيريين. أحد الأشياء الإيجابية التي حدثت هو أنّ السور الذي كان يفصل بين الطبقات الاجتماعية قد تحطّم والكنى العريقة ما عادت جوازَ السفر الوحيد للقبول في المجتمع. الذين كانوا يُعْتَبَرون أرستقراطيين كنسهم عن الخارطة رجالُ أعمالٍ شبان، وتكنوقراطيون يركبون دراجاتهم النارية الملمعة وسياراتهم المرسيدس بنز، وبعض العسكريين الذين أثروا في مراكز أساسية في الحكومة والصناعة والمصارف. لأوّل مرّة صار يُشاهد رجالٌ

في لباس موحّد في كلّ مكان: الوزارات، الجامعات، الشركات، الصالونات، والنوادي، إلخ.

السؤال المطروح هو لماذا أيّدَ ثلثُ السكان على الأقل الديكتاتوريةَ، رغم أنّ الحياةَ بالنسبة للغالبية لم تكن سهلة؛ فحتى الملتصقون بالحكومة العسكرية كانوا يعيشون خائفين. كان القمع عامّاً، وإن عانى اليساريون والفقراءُ دون شكّ أكثر من غيرهم. فالجميع كانوا يشعرون بأنّهم مراقبون، ولا أحد يستطيع أن يقول أنّه كان بمنأى تماماً عن براثن الدولة. صحيحٌ أن الإعلام كان مراقباً وأنّ هناك آلة دعاية موجّهة لغسل الأدمغة، لكنّ الصحيح أيضاً هو أنّ تنظيم المعارضة لنفسها كلّفها كثيراً من السنين والدم. لكنّ هذا لا يفسّر شعبية الديكتاتور. فالنسبة المئوية من السكان الذين كانوا يُصفّقون للديكتاتور لم يفعلوا ذلك بسبب الخوف فقط. التشيليون يحبّون الشمولية. ظنّوا أن العسكر «سينظفون» البلدَ. قالت لي إحدى الصديقات: «انتهت الجريمة، وما عاد هناك جدرانٌ مزيّنة بالتوقيعات(*)، كلّ شيء نظيف وبفضل نظام منع التجوّل صار الأزواج يصلون باكراً إلى البيت». وبالنسبة إليها كان هذا يُعوّضها عن ضياع حقوق المواطَنَة، لأنّ هذا الضياع لا يمسُّها مباشرة؛ كانت محظوظة لأنّه ما من أحدٍ من أولادها فُصِل عن عمله دون تعويض أو اعتقل. أتفهّم أن تلقى الديكتاتوريةُ مساندةَ اليمين الذي لم يتميّز تاريخياً بالدفاع عن الديمقراطية، وأثرى خلال هذه السنوات كما لم يُثرِ من قبل، لكن والبقيّة؟ لم أعثر على جوابٍ مُرضٍ لهذا السؤال، إنّها مجرّد تخمينات.

لقد مثّل بنوتشيت الأبَ غير المتسامح، القادر على فرض

(*) GRAFFITI.

النظام. سنواتُ الجبهة الشعبية كانت سنوات تجريب، تغيير وفوضى: تعبَ البلد. لقد وضع القمعُ حدّاً للنقاش السياسي، وأجبرت الليبرالية الجديدة التشيليين على العمل بفمٍ مُغلق وعلى أن يكونوا منتجين، كي تستطيع الشركاتُ التنافسَ بشكل مناسب مع الأسواق الدولية. خُصخِصَ كلُّ شيء، حتى الصحة والتربية والضمان الاجتماعي. وتشيلي اليوم لا تصدّر سلمون أكثر من ألاسكا وحسب، بل وأردافَ ضفادع، وريشَ إوز وثوماً مدخّناً، بين مئات المواد الأخرى غير التقليدية. لقد احتفلت صحافة الولايات المتحدة بانتصار النظام الاقتصادي وعزت لبِنوتشيت فضيلة أنّه حوّل هذا البلد الفقيرَ إلى نجم أمريكا اللاتينية؛ لكن المؤشرات لم تكن تُظهِر توزيع الثروة، إذ لاشيء كان يُعرَف عن الفقر وانعدام الأمان اللذين كانت تعيش فيهما عدّة ملايين من الناس. لم تكن تُذكَر القدورُ العامة في التجمعات السكانية التي كانت تُغذّي آلاف العائلات - وصل عددُها في سانتياغو وحدها إلى أكثر من خمسمئة قدر - ولا أن العمل الخيري الخاص والكنسي كان يحاول أن يحلّ محلَّ العمل الاجتماعي الذي ينطبق على الدولة. لم يكن هناك أيّ منتدى مفتوح لمناقشة أعمالِ الحكومة، أو رجالِ الأعمال، وهكذا سُلِّمت الخدمات العامّة دون حساب إلى الشركات الخاصّة، وسلّمت الموارد الطبيعية، كالغابات والبحار، التي استثمرت بقليل من الضمير البيئي إلى المؤسسات الأجنبية. لقد نشأ مجتمعٌ غيرُ رحيم، الربحُ فيه مقدّس؛ فإذا كنتَ فقيراً، فهذا ذنبك وإذا شكوت فبالتأكيد أنت شيوعي. الحرية هي في أنّه توجد علامات كثيرة كي تختار ما يمكن أن تدفع ثمنه بالاقتراض.

أرقام النموّ الاقتصادي التي كانت تُطَبِّلُ لها صحيفةُ «وول ستريت جورنال»، لا تعني التطوّر، وذلك لأنّ عشرة بالمئة من

السكان يملكون نصفَ الثروة وكان هناك مئة شخص يربحون أكثر مما تنفقه الدولة على كلّ خدماتها الاجتماعية. وتشيلي، حسب البنك الدولي، هي أسوأ بلدٍ في توزيع الدخل، جنباً إلى جنب مع كينيا وزمبابوي. إن مديرَ مؤسسةٍ تشيليّاً يكسبُ ما يكسبُهُ، أو أكثر مما يكسبُهُ مثيلُهُ في الولايات المتحدة، بينما العامل التشيلي يكسبُ أقل بخمسة عشر مرّة من العامل الأمريكي الشمالي. وما زالت اللامساواة الاقتصادية، حتى اليوم وبعد أكثر من عقدٍ من الديموقراطية، مروِّعة، لأنّ النموذج الاقتصادي لم يتغيّر. الرؤساء الثلاثة الذين أعقبوا بِنوتشيت كانوا مكبّلي الأيدي، لأنّ اليمين يتحكّم بالاقتصاد، وبالمجلس والصحافة. ومع ذلك قرّرت تشيلي أن تُصبح بلداً متطوّراً في مدّة عقد من الزمان، الأمر الممكن جداً، هذا إذا ما وُزِّعَت الثروة بطريقة أكثر توازناً.

من هو بِنوتشيت في الواقع، ذلك الجندي الذي دمغ تشيلي بثورته الرأسمالية وبعقدين من القمع؟ (أصرِّف الأفعال بالماضي رغم أنّه ما يزال حيّاً محتجزاً والبلدُ يُحاول أن ينسى وجوده. إنّه ينتمي إلى الماضي، وإن كان شبحه ما يزال يُعَذِّب). لماذا كانوا يخشونه إلى ذلك الحدّ؟ لماذا كانوا يُعجبون به؟ لم أعرفه شخصياً، ولم أعش في تشيلي معظمَ مدّة حكمه، وبذلك فقط أستطيع أن أُبدي رأيي بأفعاله، وبما كَتَبَهُ عنه الآخرون. أعتقدُ أنَّ من المناسب، كي نفهمه، أن نقرأ رواياتٍ مثل «حفلة التيس» لماريو بارغاس ليوسا أو «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيّا ماركيز. لأنّ عنده أشياء كثيرة مشتركة مع شخصية الزعيم الأمريكي اللاتيني النموذجية الموصوفة بشكل رائع من قِبَل هذين المؤلفين. كان رجلاً خشناً، بارداً، زلقاً ومتسلّطاً، دون حياء أو شعور بالوفاء، إلاّ للجيش كمؤسّسة، وليس لرفاقه في السلاح الذين جعلهم يقتلون حسب

مصلحته، كالجنرال كارلوس براتز وآخرين. ويَظنّ أنّه مُختار من الله والتاريخ لإنقاذ الوطن. ويحبُّ النياشين والطقوس العسكرية. وكان مهووساً بذاته، حتى أنّه أنشأ مؤسسة باسمه مكرّسة لتعزيز صورته وحمايتها. وكان مكاراً وعديم ثقة، كريمَ الخلق وربّما ظريفاً؛ محبوباً من بعضهم، مكروهاً من آخرين، ومُهاباً من الجميع، ربّما كان الشخصية التي جمعت في يديها أكبر سلطة ولأطول زمن في تاريخنا.

تشيلي في القلب

في تشيلي يتفادى الناسُ الكلامَ عن الماضي. الأجيالُ الأكثرُ شباباً تعتقد أنّ العالم بدأ معها؛ ما حدث قبلها لا يهمّ. عند البقيّة يبدو لي أنّه يوجد نوع من الخجل الجماعي مما جرى أثناء الديكتاتورية، كما يجب أن تكون قد شعرت ألمانيا بعد هتلر. الشبان كما الشيوخ يُحاولون أن يتفادوا الصراع. لا أحد يرغبُ أنِ يتسرّع بالنقاشات التي تريدُ الفرقةَ بين الناس. من ناحية أخرى الغالبية مشغولة أكثر من اللازم في محاولة أن تُمضي الشهر براتبٍ لا يكفي، وتقومَ بعملها بصمتٍ، كيلا تُفصَل عن عملها، وبذلك لا تهتمّ بالسياسة. ويعتقدُ أن البحث الزائد في الماضي يمكن أن «يُزعزِعَ» الديمقراطية ويثيرَ العسكر، لكنَّ الخوف باطل لأنّ الديمقراطية تعزّزت في السنوات الأخيرة ـ منذ 1989 ـ والعسكر خسروا بعضاً من نفوذهم. كما ما عادت هذه أزمنةُ انقلابات عسكرية. فعلى الرغم من مشاكلها العديدة ـ الفقر، عدم المساواة، الجريمة، المخدرات، حرب العصابات ـ فقد اختارت أمريكا اللاتينية الديمقراطية ومن جهتها بدأت الولايات المتحدة تنتبه إلى أنّ سياستها الداعمة للاستبداد لا تَحلّ أيّة مشكلة، بل فقط تخلق مشاكل أخرى.

لم يأتِ الانقلابُ العسكريُّ من العدم؛ فالقوى التي دعمت الديكتاتورية كانت موجودة هناك، لكنّنا لم نلحظها. بعض عيوب التشيليين، التي كانت قبل ذلك تحت السطح، ظهرت بمجدها وجلالها

خلال تلك المرحلة. من غير الممكن أن يُنَظَّم القمعُ بين ليلة وضحاها بمثل تلك الحملة الواسعة، دون أن يكون هناك شمولية في قطّاع من المجتمع؛ يبدو أنّنا لم نكن ديمقراطيين إلى الحدّ الذي كنّا نعتقد. ومن ناحيتها لم تكن حكومة سالفادور ألليندي بريئة، كما يحلو لي أن أتصوّر، فقد كان هناك عدم كفاءة، وفساد وعجرفة. في الحياة الواقعية يختلط عادة الأبطالُ بالأوغاد، لكنّني أستطيعُ أن أؤكّد أنه لم تعرف الحكومات الديمقراطية، بما فيها حكومة الوحدة الشعبية، تلك الوحشيةَ التي عانت منها الأمّة كلّما تدخّل العسكر.

غادرنا، أنا وميغِل وولدانا، مثل آلاف العائلات التشيلية، لأنّنا لم نبغِ الاستمرار بالعيش في ظلٍّ الديكتاتورية. البلدُ الذي اخترناه للهجرة في العام 1975 هو فنزويلا، لأنّه كان أحد آخر بلدان الديمقراطيات المتبقية في أمريكا اللاتينية، التي زعزعتها الانقلابات العسكرية، وواحداً من البلدان القليلة التي استطعنا أن نحصل فيها على تأشيراتٍ وعمل. يقول نيرودا:

كيف يمكنني أن أعيش بعيداً كلَّ هذا البعدِ
عما أحببتُ، عمّا أحبّ؟
عن الفصول الملفعة
بالرعبِ والدخان البارد؟

(بالمصادفة إن أكثر ما اشتقت إليه في تلك السنوات من النفي الطوعي كانت فصول السنة في وطني. في الخضرة الأبدية للاستواء كنتُ غريبة جدّاً).

كانت فنزويلا تعيش في السبعينات أوجَ ثرائها النفطي، فالذهب الأسود ينبع من الأرض، مثل نهر لا ينضب. وكل شيء كان يبدو

سهلاً. كان الناس يعيشون، بأدنى حدود العمل وبعلاقات مناسبة، أفضلَ من أيّ مكان آخر. كان المال يجري دفقاً، ويُنْفَق في سهرات شرب لا نهاية لها: إنهم أكثر الشعوب استهلاكاً للشامبانيا في العالم. صعقتنا فنزويلا وأذهلتنا، نحن الذين مررنا بأزمة مرحلة الوحدة الشعبية، الاقتصادية، حيث كان الورق الصحي ترفاً ووصلنا هاربين من قمع رهيب. لم نستطع أن نتمثل كسلَ هذا البلد وتبذيره وحرّيته. لم نفهم، نحنُ التشيليين الجدّيين والشموخين والحكماء والمحبين للقوانين والشرعية، السعادةَ الطافحة وعدم التقيد بالنظام. كنّا معتادين على لطف العبارة وشعرنا بالإهانة من الصراحة. كنّا عدّة آلاف، وسرعان ما انضمّ إلينا أولئك الذين هربوا من «الحرب القذرة» في الأرجنتين والأورغواي. بعضهم كان يصل وعليه آثار الأسر الحديثة، وجميعهم تعلوهم مظاهر الهزيمة.

عثر ميغِل على عملٍ في محافظة من محافظات الداخل في البلد، وبقيتُ في كاراكاس مع الطفلين، اللذين كانا يتوسّلانني يومياً كي نعود إلى تشيلي، حيث خلّفا جديهما وأصدقاءهما والمدرسة، أي كلّ ما هو معروف بالنسبة إليهما. الانفصال عن زوجي كان مريعاً. أعتقد أنّه حدّد بداية نهايتنا كزوجين. لم نكن استثناءً، فغالبية الأزواج الذين خرجوا من تشيلي انتهوا إلى الطلاق. كان الزوجان البعيدان عن بلدهما وأسرتيهما يجدان نفسيهما وجهاً لوجه الواحدُ أمام الآخر، عاريين، وهشّين، بعيدين عن الضغط العائلي والعصا الاجتماعية والروتين، التي تُحافِظ على توازنهما. الظروف لا تُساعد: تعب، وخوف وعدم أمان، وفقر، وفوضى، وإذا كانا منفصلين جغرافياً، كما حدث لنا، فالمتوقَّع نحس. ما لم يحالفهما الحظ وتكون العلاقة بينهما قويّة جدّاً فإنّ الحبَّ يموت.

لم أستطع أن أعمل كصحافية. ما فعلته في تشيلي كان قليل الفائدة في جزء منه، لأنّ المنفيين عادة ما ينفخون أوراقَ

اعتمادهم، وفي النهاية لا يصدّقهم أحدٌ كثيراً. فقد كان هناك دكاترة مزيّفون، لم ينهوا الثانوية تقريباً، ودكاترة حقيقيون انتهوا بالعمل سائقي سيارات أجرة. لم أكن أعرف أحداً وهناك، كما في كلّ أمريكا اللاتينية، لا يمكن الحصول على شيء دون علاقات. كان عليّ أن أكسبَ عيشي من أعمال تافهة، ما من عملٍ منها يستحق الذكر. لم أكن أفهم مزاجَ الفنزويليين، فأخلط شعورَهم العميق بالمساواة بالأخلاق السيّئة، وكرمَهم بالحذلقة، وتأثّرهم بعدم النضج. كنتُ قادمة من بلد صار العنف فيه مؤسساتياً، ومع ذلك كانت تصدمني السرعة التي يفقد فيها الفنزويليون السيطرةَ على أنفسهم ويلجؤون فيها إلى استخدام الأيدي. (ذات مرّة في السينما أخرجت سيّدة مسدساً من حقيبتها لأنّني جلستُ مصادفةً في المقعد الذي حجزته هي لنفسها). لم أكن أعرف العادات، كنتُ أجهل مثلاً أنّهم نادراً ما يقولون لا، لأنّهم يعتبرونها فظاظة، يفضلون أن يقولوا «عُدْ غداً». كنتُ أخرج للبحث عن عمل فيقابلونني بكثيرٍ من اللطف، يُقدِّمون لي القهوةَ ويودّعونني بشدّة قويّة على يدي وبِـ «عودي غداً». وكنتُ أعود في اليوم التالي، ويتكرّر الشيء ذاته إلى أن اعتبرت نفسي مهزومة. شعرتُ بأنّ حياتي فاشلة؛ كنتُ في الخامسة والثلاثين من عمري واعتقدت أنّه لم يبق أمامي شيء، غير أن أشيخ وأموت ضجراً. الآن وأنا أتذكَّرُ تلك المرحلة أُدرك أنّه كان هناك فرص كثيرة، لكنّني لم أرها؛ كنتُ عاجزةً عن الرقص على إيقاع الآخرين، وأمضي معميّةً وخائفة. وبدل أن أبذلَ جهداً كي أعرف وأتعلّم محبّةَ الأرض التي استقبلتني بسخاء، استحوذ عليّ هوسُ العودة إلى تشيلي. وبمقارنة تلك التجربة من المنفى بوضعي الحالي كمهاجرة، أرى كم هي مختلفة الحالة المعنوية. في الحالة الأولى يخرج المرءُ مُكرها، هارباً أو مطروداً، يشعر بأنّه ضحيّة، سرقوا منه نصفَ حياته؛ وفي الثانية يخرج إلى المغامرة، بقرار ذاتي، شاعراً بأنّه

سيّدُ حياته. المنفيُّ ينظر إلى الماضي، لاعقاً جراحَهُ؛ والمهاجرُ ينظرُ إلى المستقبل مستعدّاً لاستغلالِ الفرص المتاحة.

كنّا نجتمع، نحن التشيليين، في كاراكاس كي نستمع إلى فيوليتا بارّا وفيكتور جارا، نتبادل ملصقات ألليندي وتشي غيفارا، ونكرّر ألفَ مرّة الشائعاتِ ذاتها عن الوطن البعيد. كنّا في كلِّ لقاء نأكل الفطائر(*)؛ كرهتها وحتى اليوم لم أستطع تذوّقها ثانيةً. في كلّ يوم كان يصل أبناءُ وطن جدد، يحكون قصصاً مريعةً، ويؤكّدون أن الديكتاتوريةَ على وشك السقوط، ومع ذلك تمضي الشهورُ وتبدو بعيدةً عن السقوط، وفي كلّ مرّة أقوى من قبل، رغم الاحتجاجات الداخلية وحركة التضامن العالمية الهائلة. ما عاد أحدٌ يخلط بين تشيلي والصين، أو يسأل لماذا لا يستعملون القبعات المخروطية، فصورة سالفادور ألليندي والأحداث السياسية وضعت البلدَ على الخريطة. وراحت تدور صورةٌ للطغمة العسكرية وبِنوتشيت مكتف الذراعين بنظارة سوداء وفكّي بولدوغ ناتئين في الوسط؛ صارت مشهورة، نسخة حقيقية عن الطاغية في أمريكا اللاتينية. ومنعت الرقابةُ الصارمة على الصحافة غالبيةَ التشيليين داخل البلد من الانتباه إلى أنّ حركة التضامن هذه موجودة. أنا شخصياً كنتُ قد أمضيت سنة ونصفاً تحت الرقابة ولم أعلم أنّ اسم ألليندي تحوّل في الخارج إلى رمز، لذلك فاجأني الاحترام الجليل الذي كانت تُحدثه كنيتي. للأسف أنّ هذا الاحترام لم يفدني في الحصول على عملٍ كنتُ بأمسّ الحاجة إليه.

كنتُ أكتبُ من كاراكاس إلى جدّي الذي لم أجرؤ على توديعه، لأنّني ما كنتُ لأستطيع أن أشرح له دوافع هربي، دون أن أعترفَ

(*) Empanada هي فطيرة من طبقين من العجين توضع بينهما مواد مختلفة حسب المنطقة، كالطن والخضراوات، وتخبز في صينية في الفرن.

بأنّني عصيتُ تعليماته بألاّ أحشر نفسي في المشاكل. كنتُ أصوّر له في رسائلي لوحة ذهبيّة عن حياتنا، لكنّ إدراك الضيق بين السطور لم يكن يحتاج لكثير من الذكاء، ويبدو أنّ جدّي تكهّن بوضعي الحقيقي. وسرعان ما تحوّلت هذه المراسلات إلى حنين خالص، إلى تمرينٍ صبورٍ على تذكّر الماضي والأرض التي غادرتها. عدتُ لأقرأ نيرودا وأنكره في رسائلي إلى جدّي، فيردّ عليّ بأشعارٍ لشعراء آخرين أقدم منه.

ليس هناك ما يستحق الكلام التفصيلي عن هذه السنوات، عن الأشياء الجيّدة والسيّئة التي حدثت، كالحب الخائب والجهود والألم، لأنّني رويتها من قبل. يكفي أن أقول إن شعوري بالتضامن وبأنّني دائماً غريبة منذ طفولتي ازداد حدّة. كنتُ منعزلة عن الواقع، غارقة في عالم خيالي، بينما ولداي يكبران بجانبي وزواجي يتداعى. كنتُ أحاول أن أكتبَ، لكنّ الشيء الوحيد الذي كنت أُحَقِّقه هو الدوران والدوران حول الأفكار ذاتها. كنتُ في الليالي حين تنسحب العائلة لترتاح أحبس نفسي في المطبخ، حيث أقضي ساعات بالضرب على مفاتيح آلة أندروود الكاتبة، أملأ صفحات وصفحات بالجمل ذاتها، أمزّقها بعد ذلك ألف مِزقة، مثل جاك نيكلسون في ذلك الفيلم المرعِب «التألق» الذي ترك لأشهرٍ نصفَ العالم في كابوس. لم يبق شيء من تلك الجهود، مجرّد ورق مخرّم. وهكذا انقضت سبع سنوات.

بدأت يوم الثامن من كانون الثاني من العام 1981 رسالة أخرى إلى جدّي، الذي قارب آنذاك المئة سنة وكان يُحتضر. منذ الجملة الأولى عرفت أنّها لم تكن رسالةً كبقية الرسائل الأخرى، وأنّها ربّما لن تقع في يدِ من هي موجّهة إليه. كتبتُ لأنّفس عن كربي، لأنّ ذلك العجوزَ، مستودعَ أَقْدَمِ ذكرياتي، كان جاهزاً للذهاب من هذا العالم. من دونه، وهو مرساتي في أرض الطفولة، كان المنفى يبدو نهائياً. طبعاً كتبتُ عن تشيلي وأسرتي البعيدة. كان عندي فائض من المواد، مئات النوادر التي سمعتها لسنوات من فمه: نماذج الفحول التي

أسست سلالتنا؛ جدّتي التي كانت تُحرّك السكرية بقوّة روحية محضة؛ الخالة روسا، المتوفاة في نهاية القرن التاسع عشر، والتي كان شبحها يظهر في الليالي ليعزف على البيانو؛ الخال الذي أراد أن يعبر الجبال في منطادٍ قابل للتوجيه وشخصيات أخرى كثيرة يجب ألا تضيع في النسيان. حين كنتُ أحكي هذه الحكايات لولديَّ، ينظران إليّ بتعابير الإشفاق ويدوّران عيونهما في السقف. أخيراً تكيّفت باولا ونيكولاس مع الجوّ في فنزويلا كثيراً، بعد أن بكيا من أجل العودة، وما عادا يريدان أن يسمعا كلاماً عن تشيلي. كما لم يكونا يشاركان في أحاديث حنين المنفيين، ولا في محاولات طهي أطباق تشيلية فاشلة بمكونات كاريبية، ولا في الاحتفالات المشجية بأعيادنا الوطنية المرتجلة في فنزويلا. كان ولداي يخجلان من ظرفهم كأجانب.

سرعان ما أضعت طريق تلك الرسالة الغريبة، لكنّني تابعت عاماً كاملاً دون توقّف تُوفّي جدّي في نهايته، وملكتُ على طاولة المطبخ روايتي الأولى «بيت الأرواح». لو طلبوا منّي في ذلك الوقت أن أُعرّفها، لقلتُ إنّها محاولة لاستعادة وطني الضائع، لجمع المُشتّتين، لبعثِ الموتى والحفاظ على الذكريات التي بدأت تتبخّرُ في إعصار المنفى. لم يكن ما أصبو إليه قليلاً. الآن أُقدِّم تفسيراً أبسط: كنتُ أموتُ شوقاً لرواية القصّة.

عندي صورة رومانسية مجمَّدة عن تشيلي في بدايةِ عقد السبعينات. اعتقدتُ لسنواتٍ أنّه عندما تعود الديمقراطية سيعود كلُّ شيءٍ كما في السابق، لكن حتى هذه الصورة المجمّدة كانت وهّمية. ربّما حتى المكان الذي أتوق إليه لم يوجَد قط. حين أذهب في زيارة عليَّ أن أواجه تشيليَ الواقعيةَ بالصورة العاطفية التي حملتها معي خمساً وعشرين سنة. وبما أنّني عشتُ في الخارج زمناً طويلاً أميل

للمبالغة في الفضائل ولنسيان الملامح المزعجة في الطبيعة الوطنية. أنسى طبقيَّةَ ونفاقَ الطبقة العليا؛ أنسى كم هي مُحافِظة وفحولية غالبية المجتمع؛ أنسى سلطةَ الكنيسة الكاثوليكية المُخزية. تُرعبني الضغينةُ والعنف اللذان يتغذيان على اللامساواة؛ لكن أيضاً تُثيرُ الأشياءُ الحسنةُ عاطفتي، التي رِغم كلِّ شيءٍ لم تختفِ، مثل الألفة التلقائية التي نتواصل بها، طريقة السلام الودّية بالقبل، المزاج المعوج الذي يُضحِكني دائماً، الصداقة، الأمل، البساطة والتضامن في الفجائع، اللطف، الشجاعة الجامحة عند الأمهات، وصبر الفقراء.

لقد ركَّبتُ فكرة بلدي مثل أحجية، مختارةً تلك القطع التي تنطبق على تصميمي ومتجاهلة ما عداها. بلدي تشيلي شاعريٌّ ومسكين، لذلك أستبعد معطيات هذا المجتمع الحديث والمادّي، حيث تُقاسُ قيمةُ الأشخاصِ بالثروة التي أُحرزت بطريقة ما، حسنة كانت أو سيّئة، وأصرُّ على أن أرى في كلِّ مكان علاماتِ بلدي السابق. كما أسّستُ رواية عن نفسي بلا جنسية، أو بالأحرى بجنسياتٍ متعدِّدة. لا أنتمي إلى أرضٍ بل إلى أراضٍ، أو ربّما إلى المجال الخيالي الذي أكتب عنه. لا أحاولُ أن أعرف كم من ذكرياتي وقائع حقيقية وكم منها مُختَرَع من قبلي، لأنّ مهمّة رسم الخطِّ الفاصل بينهما يفوق قدرتي.

حفيدتي أندريا كتبتْ مقطوعةً للمدرسة قالت فيها: «كنتُ أحبّ خيال جدّتي». وسألتُها ماذا تقصدُ، فأجابت دون تردّد: «تتذكَّرين أشياء لم تحدث قط». ألا نفعل جميعنا الشيء ذاته؟ يقولون إنّ عملية التصوّر في الدماغ وعملية التذكّر تتشابهان إلى حدّ يكاد يكون فصلهما فيه غير ممكن. من يستطيع تعريف الواقع؟ أليس كلّ شيء ذاتيّاً. إذا حضرنا أنا وأنت الحدثَ ذاته فإنّنا سنتذكّره وسنرويه بطريقةٍ مختلفة. رواية طفولتنا التي يرويها أخوتي تبدو كما لو أنّ كلّ واحدٍ منّا كان في كوكب مختلف. الذاكرة مرهونة بالعاطفة؛ فنحن نتذكّر أكثر أو أفضل الأحداثَ التي تُثيرنا، مثل الفرحِ بولادةٍ، متعةِ ليلةِ حبٍّ، ألمٍ على ميت قريب، إصابة بجرح. عندما نروي الماضي إنّما

نشير إلى اللحظات الحرجة ـ حسنة كانت أو سيّئة ـ ونحذف المناطق الرمادية من كلّ يوم.

لو أنّني لم أسافر قط، لو أنّني بقيت راسيةً وآمنةً في عائلتي، لو أنّني قبلتُ رؤيةَ جدّي وقوانينه، لو استحالت إعادة خلق حياتي وتجميلها، لأنّها حُدّدت من قبل الآخرين، لكنتُ مجرّدَ حلقة أخرى من سلسلة عائلية طويلة. فتغييري للمكان أجبرني على ضبط تاريخي عدّةَ مرّات، وفعلتُ ذلك برعونة، دون أن أنتبه تقريباً، لأنّني كنتُ مشغولة أكثر من اللازم بمهمّة العيش. تكاد تكون كل الحيوات متشابهة ويمكن أن تُروى بالنبرة ذاتها التي يُقرَأُ بها دليل هاتف، ما لم يُقرِّر المرءُ أن يمنحها تأكيداً ولوناً. حاولتُ من ناحيتي أن أصقل التفاصيلَ كي أمضي مبدعة أسطورتي الخاصّة، بحيث أنّني حين أدخل مأوى عجزة بانتظار الموت يكون عندي من الموادّ ما أُسلّي به عجائز آخرين خَرِفين.

كتبتُ كتابي الأوّل بسرعة حركة الأصابع على مفاتيح الآلة الكاتبة، كما أكتب هذا، دون مُخطّط. احتجتُ للحد الأدنى من البحث لأنّه كان كاملاً في داخلي، ليس في رأسي، بل في مكان ما من صدري، حيث كان يضغطُ مثل اختناق أبديّ. تحدّثتُ عن سانتياغو في زمن شباب جدّي، كما لو أنني وُلِدتُ في ذلك الوقت، كنتُ أعرفُ تماماً كيف كانوا يُشعِلون مصباحَ الكاز قبل أن يأتوا بالكهرباء إلى المدينة، تماماً كما كنتُ أعرفُ مصيرَ مئات السجناء في تشيلي في تلك الأيام ذاتها. كتبتُ في غيبوبة كما لو أنّ أحداً كان يملي عليّ، وعزوت هذا المعروف دائماً إلى شبح جدّتي التي كانت تهمس في أذني. مرّة واحدة فقط تكرّرت هديّة الكتاب المُملى من بُعْدٍ آخر، حين كتبتُ «باولا» في العام 1993. في تلك المناسبة تلقيت دون شكّ مساعدةَ روح ابنتي الطيبة. مَنْ هي في الواقع هذه الأرواحُ وتلكَ التي تعيش معي؟ لم أرها تطفو ملفوفةً في ملحفة في ممرات بيتي، لا شيء ممتع مثل هذا. هي مجرّد ذكريات تُهاجمني، ومن كثرة ما

أدغدغُها تبدأُ تكتسب وجوداً مادياً. هذا ما يحدث لي مع الناس، ومع تشيلي أيضاً، هذا البلد الأسطوري الذي من كثرة ما اشتقت إليه أحللتُه محلَّ البلد الواقعي. هذا الشعب داخل رأسي، كما يصفه أحفادي، مسرحٌ أضع فيه وأزيل منه أشياء وشخصياتٍ وأوضاعاً على هواي. وحده المنظرُ يبقى حقيقياً وغير قابل للتبدل، وفي هذا المنظر التشيلي الجليل لستُ غريبة. تقلقني هذه النزعة إلى تحويلِ الواقع، اختراعِ الذكرى، لأنَّني لا أدري كم ستقودني بعيداً. هل يحدث لي الشيء ذاته مع الأشخاص؟ لو عدتُ ورأيتُ لبرهةٍ جدّيّ أو ابنتي، تُرى هل سأعرفهما؟ ربّما لا، لأنّني من كثرةِ ما بحثتُ عن طرقٍ للحفاظ عليهما حيَّينِ، وتذكّرتهما حتى في أدقّ تفاصيلهما، رحتُ أُبدّلهما وأزيّنهما بفضائل ربّما لم يملكاها؛ وعزوتُ إليهما مصيراً أكثر تعقيداً من الذي عاشاه. في جميع الأحوال حالفني الحظ كثيراً لأنَّ تلك الرسالة إلى جدّي المحتَضَر أنقذتني من اليأس. بفضلها عثرتُ على صوتٍ وطريقةٍ للانتصار على النسيان الذي هو لعنة الصعاليك من أمثالي. انفتح أمامي طريقُ الأدب الذي لا عودة عنه؛ ومضيتُ فيه متعثّرة في العشرين سنة الأخيرة، وأفكّر بالاستمرار بعمل الشيء ذاته ما دام قرّائي الصبورين يتحملونه.

ومع أنّ هذه الرواية الأولى منحتني وطناً وهميّاً بقيتُ أشتاقُ للآخر الذي تركتُه خلفي، لقد ترسّخت الحكومة العسكريةُ مثل صخرة في تشيلي، وبنوتشيت راح يحكم بسلطة مطلقة. وسياسة تشيكاغو بوي (صبية تشيكاغو)، كما كانوا يُسمّون تلامذة ميلتون فريدمان الاقتصاديين، فُرضت بالقوّة، لأنّه كان من المحال فعل ذلك بطريقة أخرى. وكان رجالُ الأعمال يتمتّعون بامتيازاتٍ هائلة بينما فَقَد العمّالُ معظمَ حقوقهم. في الخارج كنّا نعتقد أنّ من المستحيل إزاحة الديكتاتوريّة، لكنَّ معارضةً شجاعة كانت تنمو واقعياً في الداخل لتستعيد أخيراً الديمقراطية الضائعة. ولتحقيق ذلك كان من الضروريّ أن يتخلّوا عن خلافاتهم الحزبية التي لا تُحصى

ويتحدوا في ما سمّي بـ «التجّمع» لكنّ هذا حدث بعد سبع سنوات. في العام 1981 قليلون من كانوا يؤمنون بهذا الاحتمال.

كانت حياتي في كاراكاس، حيث مكثنا عشر سنوات، قد جرت حتى ذلك الوقت في غفلٍ تام، لكنّ الكتبَ شدّت الانتباه إليَّ قليلاً. أخيراً تخلّيتُ عن المدرسة التي عملتُ فيها وغصتُ في ريبةِ الأدب. كان في عقلي رواية أخرى، تدورُ هذه المرّة في مكان ما من الكاريبي؛ ظننتُ أنّني انتهيتُ من تشيلي، وحان الوقت لكي أستقرّ في بلدٍ راح يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى وطني المُختار. قبل أن أبدأ بـِ «إيفا لونا»، كان عليّ أن أبحثَ بوعي. فمن أجل وصفِ رائحةِ ثمرةِ مانغا، أو شكلِ نخلة، كان عليّ أن أذهب إلى السوق لأشمَّ الثمرة وإلى الساحةِ لأرى الأشجار، وهو ما لم يكن ضرورياً في حالة الدرّاق أو الصفصاف التشيليين. فأنا أحمل تشيلي عميقاً في قلبي بحيث يبدو لي أنّني أعرفها وجهاً وقفا، لكن إذا ما كتبتُ عن أيّ مكانٍ آخر عليّ أن أدرسَهُ.

في فنزويلا، الأرضِ البهية للرجال الواثقين والنساءِ الجميلات، تحرَّرتُ من انضباطِ المدارس الإنكليزية وصرامةِ الجدّ وتواضعِ التشيليِّ وآخر بقايا تلك الشكلانية، التي ربّوني عليها، كابنة دبلوماسيين صالحة. شعرتُ لأوّل مرّة براحة في جسدي، وما عاد يهمّني رأي الآخرين. في هذه الأثناء كان زواجي قد تدهور بطريقة غير قابلة للعلاج، وما إن طار الولَدان من العش، ليذهبا إلى الجامعة حتى انتفى ما يُبرّر استمرارنا معاً. انفصلنا أنا وميغِل ودّياً. وبلغ شعورنا بالراحةِ لهذا القرار حدَّ أنّنا حين ودّعنا بعضنا بعضاً قمنا بحركاتِ احترامٍ يابانيّة لعدّةِ دقائق. كنتُ في الخامسة والأربعين، لكنّني لم أرَ نفسي في وضع سيِّئ بالنسبة لعمري، على الأقل هذا ما كنتُ أُفكّر فيه، إلى أن نبّهتني أمي، المتفائلة دائماً، إلى أنّني كنتُ

سأُمضي بقية عمري وحيدة. ومع ذلك تعرَّفتُ بعد ثلاثة أشهر، خلال جولة ترفيهية في الولايات المتحدة، على ويليام غوردِن، الرجل الذي كان مُسجّلاً في كتاب قدري، كما قد تقول جدّتي المتبصّرة.



هذا الشعب في رأسي

قبل أن تسألَني كيف حدَث أنّ يساريّةٍ لها كنيتي اختارت العيشَ في الإمبراطورية اليانكية سأقول لكَ إنّه لم يكن نتيجة خطّة أبداً. حدث ذلك بالمصادفة، مثلِ الكثير من الأشياء الأساسية في حياتي. لو كان ويلي في غينيا الجديدة لكنتُ بالتأكيد الآن هناك، مرتدية الريش. أفترض أنّ هناك أناس يخطّطون لحياتهم، لكن في حالتي تخليت عن فعل ذلك منذ زمن بعيد، لأنّ مقاصدي لا تتحقّق أبداً. في كلّ عشر سنوات على وجه التقريب ألقي نظرة على الماضي وأستطيع أن أرى خريطة رحلتي، هذا إذا كان من الممكن أن يسمى هذا خريطة، إنه يبدو أقرب إلى صحن المعكرونة الناعمة. إذا عاش المرء ما يكفي ونظر إلى الخلف فمن الواضح أنّه سيرى أنّنا لا نفعل غير السير في دوائر. لم تخطر بذهني قط فكرةُ العيش في الولايات المتحدة، كنتُ أُفكّر أنّ المخابرات المركزية الامريكية التي دبّرت الانقلاب العسكري في تشيلي فعلت ذلك فقط كي تُدمّر حياتي. ومع تقدّمي في العمر أصبحتُ أكثر تواضعاً. السبب الوحيد كي أتحول إلى واحدة من ملايين المهاجرين، الذين يلهثون وراء الحلم الأمريكي، بدا للنظرة الأولى غلمة.

كان ويلي حين ظهرتُ، قد خلّف وراء ظهره طلاقين وسبحةً من العشيقات اللواتي لا يكاد يستطيع تذكرهنّ، ومضى عليه ثمانية أعوام وحيداً. كانت حياته كارثة وما يزال ينتظر شقراء أحلامه

الطويلة. ما كاد ينظر إلى الأسفل ويميّزني فوق رسوم السجادة حتى أخبرته أنّني كنتُ في شبابي شقراء طويلة؛ وبذلك تمكنتُ من لفت انتباهه. ما الذي شدّني فيه. لقد تكهّنت أنّه رجلٌ قويّ، من أولئك الذين يخرّون على ركبهم؛ لكنّهم يعودون وينهضون. كان مختلفاً عن التشيليّ المتوسّط: لا يشكو، لا يلقي بلائمة مشاكله على الآخرين، يتحمل قدَرَه، لم يكن يبحث عن أمٍّ، وكان واضحاً أنّه لا يحتاج إلى فتاة جيشا تحملُ له الفطور إلى السرير، وتُحضِّر له مساءً ثيابَ اليوم التالي. لم يكن ينتمي إلى المدرسة الإسبارطية، مثل جدّي، لأنّه كان واضحاً أنّه يستمتّع بحياته، لكنّه يملك تماسكه الرواقي ذاته. ثمّ إنّه سافر كثيراً، الأمر الجذّاب دائماً بالنسبة إلينا، نحن التشيليين، أهل الجزر. في العشرين من عمره جاب العالم باستيقاف السيارات على الطرقات، نائماً في المقابر، لأنّها، وكما وضّح لي: آمِنة جدّاً، لا أحد يدخلها ليلاً. خضع لثقافات مختلفة، وعقليته رحبة، متسامح، وفضولي. ثمّ إنّه كان يتكلّم الإسبانية بلكنةِ لصٍّ مكسيكيّ وموشوم. وحدهم المجرمون في تشيلي يشمون أنفسهم، وهكذا بدا لي شبقاً جدّاً. كان يستطيع أن يطلب طعاماً بالفرنسية والإيطالية والبرتغالية، ويعرف كيف يُغَمغِم ببعض الكلمات بالروسية، والتاغالوغية واليابانية والمندرينية. بعد سنوات اكتشفتُ أنّه يخترعها، لكنّ ذلك جاء متأخّراً. كما كان باستطاعته أن يتكلّم الإنكليزية بالطريقة التي يستطيع أمريكي شمالي أن يتمكّن بها من لغة شكسبير.

تمكّنا من أن نمكث معاً يومين، وكان عليّ بعدها أن أتابع جولتي، قرّرت في نهايتها العودة إلى سان فرنسيسكو لمدّة أسبوع، لأرى ما إذا كنتُ سأخرجه من رأسي. هذا موقف تشيلي جدّاً، فأية مواطنة من مواطنات بلدي كانت ستفعل الشيء ذاته. في حالتين نحن التشيليات صارمات بضراوة: في الدفاع عن أولادنا، وحين يكون علينا الإمساك برجل. غريزة العشّ عندنا متطوّرة جدّاً، لا تكفينا مغامرة غرامية، نريد أن نكوّن بيتاً، وننجب أولاداً قدر المستطاع،

يا للهول! حين رآني أصل إلى بيته دون دعوة حاول، وقد صار أسير رعبٍ، أن يهرب، لكنّه لم يكن خصماً حقيقيّاً بالنسبة إليّ. فقد جندلته وسقطت فوقه مثل ملاكم. أخيراً قَبِل مُكرهاً أنّني أقرب شقراء طويلة يمكن أن يحصل عليها، وتزوّجنا. كان ذلك في العام 1987.

كنتُ مستعدّة، كي أبقى إلى جانب ويلي، للتنازل عن أشياء كثيرة، لكن ليس عن ولديَّ ولا عن الكتابة، وهكذا ما إن حصلتُ على أوراق الإقامة حتى شرعتُ بعملية نقل باولا ونيكولاس إلى كاليفورنيا. عشقتُ في هذه الأثناء سان فرانسيسكو، المدينة البهيجة، المتسامحة والمنفتحة، والعالمية، كم هي مختلفة عن سانتياغو! لقد أسّس سان فرانسيسكو مغامرون وعاهرات وتجّار ووعّاظ وصلوا إليها في العام 1849، مشدودين بحمّى الذهب. أردتُ أن أكتبَ عن تلك المرحلة الرائعة بجشعها وعنفها وبطولتها واحتلالها، المرحلة التامّة لكتابة رواية. في أواسط القرن التاسع عشر كان الطريق الأكثر أماناً للوصول إلى سان فرانسيسكو، من شاطئ الولايات المتحدة الشرقي أو من أوروبا، يمرّ عبر تشيلي. كان على السفن أن تمرَّ بمضيق ماجلان أو تدورَ حول كابو دِ هورنوس. كانت مغامرات خطيرة، لكنّ الأسوأ منها هو اجتياز القارّة الأمريكية الشمالية في عرباتٍ، أو الأدغال الموبوءة بالملاريا في برزخ بنما. عَلِم التشيليون باكتشاف الذهب، قبل أن يصل خبره إلى الولايات المتحدة فهرعوا إليها جماعاتٍ، لأنّ لديهم تراثاً طويلاً بالمناجم ويحبّون الانطلاق في مغامرات. عندنا اسم لاندفاعنا في الخروج للطواف في الطرقات، نقول إنّنا «ساق كلاب» لأنّنا نتوه كالجراء، نشمّ الآثار، دون وجهة محدّدة. نحتاج للهرب، لكن ما إن نعبر الجبال حتى نبدأ نشتاق، وأخيراً نعود دائماً. نحن رحّالة جيّدون ومهاجرون سيّئون: والحنين يُلاحقنا، يدوس على كعوبنا.

كانت عائلة ويلي وحياته فوضويتين، لكن وبدل أن أخرجَ

هاربة، كما قد يفعل كل إنسان عقلانيّ، «هجمتُ وعلى الطريقة التشيلية»، مثل صرخة حربٍ أولئك الجنودِ الذين استولوا على صخرة أريكا في القرن التاسع عشر. كنتُ مصمّمة على أن أحتلّ مكاني في كاليفورنيا وفي قلب ذلك الرجل مهما كلّف الأمر. في الولايات المتحدة الجميع، باستثناء الهنود الحمر يتحدّرون من آخرين جاؤوا من الخارج، وحالتي ليس فيها أي شيء خاص. كان القرن العشرون قرن المهاجرين واللاجئين، لم يرَ العالم قط مثل تلك الحشود البشرية تهجر مكانها الأصلي لتنتقل إلى أماكن أخرى، هاربة من العنف أو الفقر. عائلتي وأنا جزء من هذا الشتات؛ وهذا ليس سيّئاً كما يرنّ في الأذن. كنتُ أعلمُ أنّني لن أندمِجَ تماماً، فقد كنتُ عجوزاً جدّاً كي أنصهر في بوتقة اليانكي الشهيرة: لي مظهر تشيلية؛ أحلمُ وأطبخ وأمارس الحبّ وأكتب بالقشتالية؛ ومعظم كتبي لها طعم أمريكي لاتيني خالص. كنتُ مقتنعة بأنّني لن أشعر بنفسي كاليفورنية أبداً، لكنّني أيضاً لم أقصّد ذلك، وأكثر ما كنتُ أطمح إليه هو الحصول على إجازة سواقة لقيادة السيارة، وتَعلّمْ ما يكفي من الإنكليزية كي أطلب طعاماً في مطعم. لم أكن أظنّ أنّني سأحصل على أكثر من ذلك بكثير.

كلّفني التكيّف في كاليفورنيا سنوات كثيرة، لكنّ العملية كانت مسلّية. ساعدني على ذلك تأليف كتابٍ عن عائلة ويلي، «الخطّة اللانهائية»، لأنّها اضطرّتني إلى التجوال فيها ودراسة تاريخها. أتذكّر كم كانت تهينني الطريقة المباشرة في كلام الغرينغويين، إلى أن انتبهتُ إلى أن الغالبية في الواقع محترمة ومهذبة. لم يكن باستطاعتي أن أصدق كم هم استمتاعيون (يستمتعون بحياتهم)، حتى أصابني الجوُّ بعدواه وانتهيت إلى أن تبللتُ في حمام جاكوزي محاطة بشموع عطرية، بينما جدّي يتململ في قبره أمام هذه الخلاعات. وقد بلغ اندماجي بالثقافة الكاليفورنية حدّ أنّني بدأتُ أُمارس التأمل وأذهب إلى العلاج، وإن كنتُ دائماً أحتال: فأنا

أخترع أثناء التأمل حكاياتٍ كيلا أضجر، وأخترعُ أخرى أثناء العلاج، كيلا أُضجر المعالج النفسي. تجاوبتُ مع إيقاع هذا المكان الرائع. وعندي أماكني المفضّلة التي أضيِّعُ فيها الوقت بتصفح الكتب، والتنزّه والتكلّم مع الأصدقاء، أحبّ أشيائي الروتينية، وفصولَ السنة وأشجارَ البلوط الكبيرة حول بيتي، رائحة فنجان الشاي، نحيبَ صفارة الإنذار الليلية تُعلن للسفنِ في الخليج عن وجود الضباب. وانتظر بلهفةٍ الديك الرومي ليوم صلاةِ الشكر وبهاء «كيتش»(*) أعياد الميلاد، بل وأشارك في نزهة الرابع من تموز. بالمناسبة، النزهة فعالة جدًا، مثل كلّ النزهات في هذه المنطقة: قيادة السيارة بسرعة، الحلول في المكان المحجوز مسبقاً، وضع السلال، ازدراد الطعام، ركل الكرة، والإسراع في العودة لتفادي ازدحام السير. في تشيلي نقضي ثلاثة أيّام في مثل هذا المشروع.

الإحساس بالزمن عند الأمريكيين الشماليين خاصّ جدّاً: يفتقرون للصبر؛ كلّ شيء يجب أن يتمَّ بسرعة، بما في ذلك الطعام والجنس، اللذان يتعامل معهما بقية العالم باحتفالية. الغرينغويون اخترعوا مصطلحين ليس لهما ترجمة «السناك» و«الكويكي»، للإشارة إلى تناول الطعام وقوفاً، وممارسة الحب على الماشي... وفي كثير من الحالات وقوفاً أيضاً. أكثر الكتب شعبية هي التعليمية: كيف تصبح مليونيراً في عشرة دروس سهلة، كيف تفقد خمسة عشر رطلاً (من وزنك) في أسبوع، كيف تتعافى من الطلاق، إلخ. الناس دائماً يبحثون عن الطرق المختصرة، ويهربون مما تعتبرونه مزعجاً: القبح، الشيخوخة، البدانة، المرض، الفقر، والفشل في أيّ جانب.

(*) kitsch كلمة إنكليزية وتعني في الأصل سقط المتاع. ففي سياق التطور الصناعي الهائل في المرحلة الأخيرة بدأت الأشياء تُفرَغ من مضمونها مثل إنتاج تمثال فينوس من الشوكولا أو البلاستيك، أو استيراد منتجات ثقافات أخرى وإخراجها من وظيفتها الثقافية أو الدينية، فتُتَفّه وتُبتَذَل، بحيث يصبح هناك طريقة وروح كيتشية.

افتتان هذا الشعب بالعنف لم يتوقّف قط عن إصابتي بالصدمة. يمكن القول إنّني عشتُ في ظروفٍ ممتعة، رأيتُ ثوراتٍ، حروباً وجرائم مدنية، هذا دون أن أذكر وحشية الانقلاب العسكري في تشيلي. دخل لصوصٌ إلى بيتنا في كاراكاس سبع عشرة مرّة، سرقوا كلّ شيء تقريباً، بدءاً من مفتاح علب الصفيح وحتى ثلاث سيارات، أخذوا اثنتين من الشارع والثالثة بعد أن خلعوا باب المرآب. من حسن الحظ أنّه ما من أحد من المهاجمين كان عنده نوايا سيّئة، حتى أنّهم تركوا لنا ذات مرّة ملاحظةَ شكرٍ ملصقة على باب البراد. بالمقارنة مع أماكن أخرى من الأرض، حيث يمكن لطفل أن يدوس لغماً ويفقد ساقيه وهو في طريقه إلى المدرسة؛ الولايات المتحدة آمنة مثل دير، لكنّ الثقافة ملازمة للعنف. هذا ما تبرهن عنه الرياضات، الألعاب والفن، كي لا نتكلّم عن السينما المرعبة. الأمريكيون الشماليون لا يريدون العنف، لكنّهم يحتاجون إلى تجريبه بالروبوت. تسحرهم الحرب، مادامت ليست على أرضهم.

بالمقابل لم تصدمني العنصرية، رغم أنّها، حسب ويلي، أخطر مشكلة في البلد، لأنّني تحمّلت خلال خمس وأربعين سنة نظام الطبقات في أمريكا اللاتينية، حيث يعيش الفقراء والناس الهجناء، الأفارقة أو السكان الأصليون في عزلة حتمية، كما لو أنّ ذلك من أكثر الأشياء طبيعية في العالم. على الأقل في الولايات المتحدة يوجد في معظم الوقت نضال ضدّ العنصرية.

حين يزور ويلي تشيلي يصبح محطَّ فضولٍ بالنسبة إلى أصدقائي وللأطفال في الشارع، نظراً لمظهره الأجنبي الذي لا يمكن نكرانه، والذي تُبرزه قبعتُه الأسترالية وجزمة راعي البقر. يُحِبّ بلدي ويقول إنّه يشبِه كاليفورنيا قبل أربعين سنة، لكنّه يشعر بأنّه غريب، كما أشعر أنا في الولايات المتحدة. أفهم اللغة لكنّني لا أملك مفاتيحها. لا أستطيع، في المناسبات التي نجتمع فيها بالأصدقاء، أن أشارك إلا قليلاً في الحديث، لأنّني لا أعرف الأحداث أو الناس

الذين يتكلّمون عنهم، لم أرَ الأفلام ذاتها في شبابي، لا أرقص على إيقاع قيثارة إلفيس(*) الجنونية، لم أدخِّن ماريغوانا ولم أخرج للاحتجاج على حرب فييتنام. لا أتابع الإشاعات السياسية لأنّني أرى الفرق قليلاً بين الديمقراطيين والجمهوريين. كم سأبدو أجنبية وأنا لم أشارك في الذهول الوطني بسبب فضيحة الرئيس كلينتون الغرامية، لأنّني بعد أن رأيت سروال الآنسة لونسكي أربع عشرة مرّة في التلفزيون فقدت الاهتمام. حتى البيسبول لغز بالنسبة إليَّ، لا أفهم لماذا كلّ هذا الحماس لمجموعة من البدينين، ينتظرون كرة لا تصل أبداً. ولا أنسجم اجتماعياً: أرتدي الحرير، بينما بقية السكان يستعملون حذاء الرياضة، وأطلب لحم عجل بينما البقية يمضون على موجة التوفو والشاي الأخضر.

أكثر ما أقدِّره في وضعي كمهاجرة هو شعوري الرائع بالحرية. فقد جئت من ثقافة تقليدية، من مجتمع مغلق، حيث كلّ واحد منّا يأتي محمّلاً منذ ولادته بِقَدَر أسلافه، وحيث نشعر بأنّنا دائماً مراقبون، محكومون، ملاحقون. الشرف الملطخ لا يمكن أن يُغسَل. طفل يسرق أقلامَ رصاص ملونة في روضة الأطفال يبقى موصوماً كنشال بقية حياته، بينما في الولايات المتحدة لا يهمّ الماضي، لا أحد يسأل عن الكنى، فابن القاتل يستطيعُ، ما دام أبيض، أن يُصبِح رئيساً. يمكن ارتكاب الأخطاء لأن الفرص الجديدة تفيض، إذ يكفي أن تذهب إلى ولاية أخرى وتبدّل اسمك كي تبدأ حياةً أخرى؛ والأماكن من السعة بحيث أنّ الطرق لا تنتهي أبداً.

كان ويلي، المحكوم بالعيش معي، يشعر في البداية بالانزعاج من أفكاري وعاداتي التشيلية، كما كنتُ أشعر تجاه أفكاره وعاداته. كان هناك مشاكل كبرى مثل محاولتي فرض قوانين تعايشي البالية على أولاده، وهو لا يملك فكرة عن ماهية الرومانسية؛ ومشاكل

(*) إلفيس برسلي.

صغرى، مثل أنّني عاجزة عن استخدام الأجهزة المنزلية الكهربائيّة، وأنّه يشخرُ، لكنّنا تخطيناها قليلاً فقليلاً. ربّما كانت هذه هي مسألة الزواج لا أكثر: المرونة. حاولتُ، كمهاجرة أن أحافِظ على الفضائل التشيلية التي تُعجبني، وأن أتخلّى عن الأحكام المسبقة التي كانت تظهرني بمظهر المجانين. قبلتُ هذا البلد. ولكي تحبّ مكاناً عليك أن تُشارك في المجتمع وتعيد القليلَ مقابل الكثير الذي تتلقاه؛ وأظنّ أنّني فعلتُ ذلك. هناك أشياء كثيرة تُعجبني في الولايات المتحدة وأخرى أرغب بتغييرها، لكن أليس الأمر كذلك دائماً. البلد كالزوج قابل دائماً للتحسن.

بعد عامٍ من انتقالي إلى كاليفورنيا، في العام 1988، تغيّر الوضع في تشيلي، لأنّ بِنوتشيت خسر الاستفتاء والبلدَ تهيّأ لاستعادة الديمقراطية. عندئذٍ عدتُ. ذهبتُ خائفةً لأنّني لم أكن أعرف ما سأجدُه هناك، وكدتُ لا أعرف سانتياغو، ولا الناس؛ فكلّ شيء كان قد تغيّر خلال تلك السنوات. امتلأت المدينةُ بالحدائق والأبنية الحديثة، وغزتها حركةُ السير والتجارة، وصارت نشيطة وسريعة وتقدمية، لكن بقي فيها عادات إقطاعية كريهة، مثل المستخدمات بوزرات زرقاء ينزّهن العجائزَ في الحي العالي، والمتسولين عند كلّ إشارة مرور. كان التشيليون يعملون بحكمة، ويحترمون التراتبيةَ، ويرتدون ملابسهم بطريقة محافظة جدّاً، الرجال بربطات العنق والنساء بالتنورات، وفي كثير من دوائر الدولة والشركات الخاصّة يستعمل الموظفون لباساً موحّداً، مثل مساعدي الطيران. لاحظتُ أنَّ الكثيرين، ممن بقوا في تشيلي وعانوا، يعتبروننا، نحن الذين غادرنا البلدَ، خونةً، ويفكّرون بأنّ الحياة في الخارج أسهل. ومن ناحية أخرى، لا يخلو الأمر من منفيين يتهمون الذين بقوا في البلد بالمتعاونين مع الديكتاتورية.

كان مرشّح التجمّع، باتريثيو أيلوين، قد فاز بهامش صغير، وحضورُ العسكر ما يزال مخزياً والناس يمضون خائفين، والصحافة ما تزال مراقبة. الصحافيون، المعتادون على الحكمة، الذين أجروا معي مقابلات كانوا يوجّهون إليّ أسئلةً حذرة وساذجة، ثم لا ينشرون الأجوبة. كانت الديكتاتورية قد عملت ما بوسعها كي تمحو التاريخ الحديثَ، واسمَ سالفادور ألليَندي. عندما عدتُ بالطائرة ورأيتُ خليج سان فرانسيسكو تنهدت تنهيدة تعبٍ، وقلتُ دون أن أُفكّر: أخيراً ها أنذا أصل إلى بيتي. كانت المرّة الأُولى منذ أن خرجتُ من تشيلي في العام 1975، التي اعتبرت فيها أنّني «في بيتي».

لا أدري ما إذا كان بيتي هو المكان الذي أعيشُ فيه، أم هو ببساطة ويلي. عشنا معاً عدّة سنواتٍ، ويبدو لي أنّه الأرضُ الوحيدة التي أنتمي إليها، ولستُ غريبة فيها. معاً تخطّينا تقلّباتٍ كثيرة، نجاحاتٍ كبيرة وخساراتٍ كبيرة. الألم الأعظم كان خسارتنا لابنتينا. ففي فترة سنة تُوفِّيَت جنيفر بجرعة مخدّراتٍ زائدة، وباولا من حالة تناسلية غريبة، تُسمّى «porfiria» أدخلَتْهَا في غيبوبة طويلة قضت على حياتها. أنا وويلي قويّان وعنيدان، وقد كلّفنا القبول بأنّ قلبنا انكسر زمناً وعلاجاً حتى استطعنا أن نتعانق ونبكي معاً. كان الألمُ رحلةً طويلة إلى الجحيم، خرجتُ منه بفضل زوجي وفضل الكتابة.

عدتُ في العام 1994 إلى تشيلي بحثاً عن الإلهام، ومنذ ذلك الوقت قمت بذلك سنوياً. وجدتُ أبناء وطني أكثر استرخاءً، والديمقراطيةَ أكثر رسوخاً، لكنّها مشروطة بوجود العسكر الذين ما زالوا أقوياء، وبأعضاء مجلس الشيوخ الأبديين الذين عيَّنهم بِنوتشيت ليتحكّموا بالمجلس. كانت الحكومة تُحافظ على توازن صعبٍ بين القوى السياسية والاجتماعية. زرت البلدات حيث كان

الناس في السابق مناضلين ومنظّمين. حكى لي الرهبانُ والراهبات التقدميون الذين عاشوا بين الفقراء خلال تلك السنوات أنّ الفقر هو ذاته، لكنَّ التضامنَ اختفى، وراحت الجريمة والمخدرات، التي تحوّلت إلى أخطر مشكلة بين الشباب، تنضمُّ إلى الكحولية والعنف المنزلي والبطالة.

كان شعار التشيليين إسكات أصوات الماضي والعمل من أجل المستقبل، وعدم إثارة العسكر مهما كان السبب. كانت تشيلي، بالمقارنة ببقية أمريكا اللاتينية، تعيش لحظةً جيّدة من الاستقرار السياسي والاقتصادي؛ رغم أنّه كان ما يزال هناك خمسة ملايين فقير. وباستثناء ضحايا القمع وأهاليهم، وبعض المنظمات التي تسهر على حقوق الإنسان، لا أحد ينطق بكلماتِ «المختفون» و«التعذيب» بصوتٍ عالٍ. تبدّلت الحالة حين أوقفوا بِنوتشيت في لندن، حيث ذهب لمراجعةِ طبيبه وقبضِ عمولته عن صفقة أسلحة، بتهمة قتل مواطنين إسبان، وجّهها إليه قاضٍ، طلبَ تسليمَهُ إلى إسبانيا. الجنرال الذي كان ما يزال يتمتع بتأييد القوات المسلحة غير المشروط، كان قد عاش خمساً وعشرين سنة معزولاً من قبل المداهنين، الذين يحيطون دائماً بالسلطة؛ ورغم أنّهم كانوا قد حذّروه من الأخطار، إلاّ أنّه سافر واثقاً من حصانته. المفاجأة التي حملها حين أوقفه البريطانيون فقط يمكن أن تُقارن بالمفاجأة التي أصيب بها بقيّة التشيليين، المعتادين على أنّه لا يُمسّ. كنتُ بالمصادفة في سانتياغو حين حدث ذلك، وتأكّدتُ كيف رُفع الغطاء خلال أسبوع عن صندوق باندورا، وما بقي مخفيّاً تحت طبقات وطبقاتٍ من الصمت بدأ يظهر. في الأيّام الأولى قامت مظاهراتٌ غاضبة في الشوارع، تُهدّد ليس بأقلّ من إعلان الحربِ على إنكلترا، أو إرسال فرقة عسكرية لإنقاذ السجين. كانت صحافة البلد الخائفة

تتكلّم عن إهانةِ صاحب السعادة، عضو مجلس الشيوخ الأبدي، وشرفِ وسيادة الوطن، لكن المظاهرات في الشارع لصالحه تضاءلت بعد أسبوع، والعسكر لزموا الصمت، والنبرة تغيّرت في وسائل الاتصال التي راحت تشير الآن إلى «الديكتاتور السابق، الموقوف في لندن». لم يُصدِّق أحدٌ أنّ الإنكليز سيسلمون بِنوتشيت إلى إسبانيا لتُحاكِمه كما حدث عملياً، لكنّ الخوف الذي كان ما يزال يطفو في الجوّ اضمحل بسرعة في تشيلي. فقد العسكر شيئاً من سمعتهم وسلطتهم خلال أيّام. والاتفاق الضمني على إسكات الحقيقة انتهى بفضل مبادرة ذلك القاضي الإسباني.

في تلك الرحلة لجأت إلى الجنوب، واستسلمتُ من جديد إلى طبيعة بلدي العجيبة، والتقيت بأصدقائي الأوفياء، الذين كنتُ أقرب إليهم من أخوتي، لأنّ الصداقة في تشيلي أبدية. عدتُ إلى كاليفورنيا بطاقاتٍ مُجدَّدة جاهزة للعمل. حدّدتُ لنفسي موضوعاً أبعد ما يكون عن الموت، وكتبتُ «أفروديت»، هذيانات حول النهم والشبقِ، الإثمين الوحيدين اللذين يستحقّان المعاناة. اشتريت كومة من كتب الطبخ، وأخرى مثلها عن الشبقية، وانطلقت في رحلة إلى حي المثليين في سان فرانسيسكو، حيث جبتُ خلال أسابيع دكاكين كتب الجنس الفاضح (بحثٌ مثل هذا سيكون صعباً في تشيلي. هذا إذا توافرت المادة، وما كنتُ لأجرؤ أبداً أن أحصل عليها، فشرف عائلتي سيكون على المحكّ). تعلّمتُ كثيراً. من المؤسف أنني حصلت على هذه المعارف متأخِّرَةً إلى هذا الحدّ من حياتي، حين لم يعد هناك من أمارسها معه: فقد صرّح ويلي بأنّه ليس مستعدّاً لأن يُعلِّق أرجوحة إلى السقف.

لقد ساعدني ذلك الكتاب على الخروج من الاكتئاب الذي أدخلني فيه موت ابنتي. منذ ذلك الوقت كتبتُ كتاباً في السنة. الحقيقة أنّه لا تنقصني الأفكار، ما ينقصني هو الوقت. وأنا أفكِّر بتشيلي

وبكاليفورنيا كتبتُ «ابنة الحظّ» و«صورة عتيقة»، الكتابين اللذين تروح وتغدو فيهما الشخصياتُ بين وطنيَّ هذين.

أرغب كي أنهي أن أضيف أنّ الولايات المتحدة أحسنت مُعاملتي، وسمحت لي بأن أكون أنا نفسي، أو أيّة نسخة عني يخطر لي أن أبدعها. في سان فرانسيسكو يمرُّ العالمُ كلّه، كلٌّ يحمل ذكرياته وآماله. في الشوارع تُسمع ألف لغة، تنتصب معابد من كلّ الأسماء، تُشمّ رائحة طعام من أقصى الأماكن. قليلون هم من يولدون هنا، فالغالبية غرباء، مثلي، في الجنّة. لا أحد يهمّه من أكون أو ماذا أفعل، لا أحد يراقبني، أو يحكم عليّ، إنهم يتركونني بسلام، الأمر الذي يحملني على أن استدرك أنّني لو سقطتُ ميتةً في الشارع فلن يعلمَ أحدٌ بي، لكن هذا في النهاية ثمن رخيص للحرية. الثمن الذي قد تدفعه تشيلي يمكن أن يكون غالياً، لأنّ الاختلافات لا تقدّر فيها حتى الآن. الشيء الوحيد الذي لا يتسامحون معه في كاليفورنيا هو عدم التسامح.

ملاحظة حفيدي ألخاندرو، عن السنوات الثلاث المتبقية لي في الحياة تُجبرني على أن أسأل نفسي ما إذا كنتُ أرغب أن أحياها في الولايات المتحدة أم أن أعود إلى تشيلي. لا أعرف. صراحة أنّني أتردّد في ترك بيتي. أزور تشيلي مرّة أو مرّتين في العام، وحين أصل يبدو كثير من الأشخاص سعداء لرؤيتي، لكنّهم أكثر سعادة حين أذهب، بمن فيهم أمّي، التي تعيش خائفة من أن ترتكب ابنتُها حماقة، كأن أظهر في التلفزيون متكلّمة عن الإجهاض مثلاً. أشعر بنفسي سعيدة لأيّام، لكنّني بعد أسبوعين أو ثلاثة أبدأ بالاشتياق للتوفو وللشاي الأخضر.

يُساعدني هذا الكتاب على أن أفهم أنّني لستُ مُجبرةً على اتخاذ

قرار: إذ يمكنني أن أضع قدماً هنا وأخرى هناك، فمن أجل هذا وُجِدت الطائرات، ولا أعتبرُ نفسي من بين أولئك الذين لا يُسافرون في الطائرة خوفاً من الإرهاب. عندي موقف جبريّ: لا أحد يستقدم أو يستأخر ساعةً في الموت. كاليفورنيا الآن مأوايَ، وتشيلي أرضُ حنيني. قلبي ليس مقسوماً، على العكس لقد كبر. أستطيع أن أعيشَ، وأكتبَ في أيّ مكان تقريباً. كلّ كتاب يُساهمُ في إتمام هذا «الشعب في رأسي» كما يُسميه أحفادي. صارعت بممارسة الكتابة البطيئةِ شياطينيَ وهوسي، سبرتُ زوايا الذاكرة، أنقذتُ قصصاً وشخصياتٍ من النسيان، سرقتُ حياةَ أناس غرباء، ومن كلّ هذه المادة الأوّلية بنيتُ مكاناً أسميه وطناً. أنا من هناك.

آملُ أن يجيبَ هذا النص اللاذعُ على سؤالِ ذلك المجهول عن الحنين. لا تُصَدِّق كلَّ ما أقوله لك، فأنا أميل للمبالغة، ولا يمكنني كما حذّرتُك في البداية أن أكونَ موضوعية عندما يتعلّقُ الأمرُ بتشيلي، ولنقل بشكلٍ أفضل، لا أكادُ أستطيع أن أكون موضوعية أبداً. في جميع الأحوال، إنّ أهمّ ما في رحلتي في هذا العالم لا يظهر في مذكراتي أو في كتبي، فقد حدث ذلك بشكل لا يكادُ يكون محسوساً في كاميرات القلب السرّية. أنا كاتبة لأنّني ولدت بسمع جيّد لالتقاط القصص، وحالفني الحظ بأسرة غريبة الأطوار، وقدرِ حاجَّةٍ تائهة. ومهنة الكتابة عرّفتني: فلقد أبدعتُ كلمة بكلمة شخصيّتي والبلدَ المُخْتَرَعَ الذي أعيشُ فيه.


محمد خطاب

امتنان

أساس هذا الكتاب هي ذكرياتي، إلاّ أنّ تعليقات أصدقائي بِليا برغارا، مالو سييرّا، فيتوريو ثُينتولِسّي، خوسفينا روسّيتي، أغوستين هونيوس، كريستان تولوثا وآخرين غيرهم قد ساعدتني. كما استفدتُ دون تروٍّ من أعمال ألونسو دِ إرثيّا إي ثونيبغا، وإدواردو بلانكو أمور، وبنيامين سوبِركاسو، وليوبّولدو كاستِدو، وبابلو نيرودا، وألفرِدو جوسيلين ـ هولت، وخورخِه لارّين، ولويس ألخِاندرو ساليناس، وماريّا لويسا كوردِرو، بابلو هونيوس وعدد آخر. أشكر، كما هي العادة أمّي، فرانسيسكا ليونا وعمّي، زوجَها، رامون هويدوبرو، لمساعدتهما إيّاي في العثور على عددٍ من المعلومات، ولتنقيحهم النصّ النهائي. شكري أيضاً إلى وكيلتيَّ الوفيّتين: كارمِن بالثلز وغلوريا غوتييرِّثْ، ومصحِّح كتاباتي: الإسباني خورخِهْ مانثانيّا، وناشرة كتبي الأمريكية تيرّي كارتين.


محمد خطاب

فهرست





وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول ولفّت العالم بدوّامتها، أربكت الجميع، واستطاع الإعلام الأمريكي أن يلفَّ العالم بكذبة أرادتها السياسة الأمريكية. كانت أحداثاً شنيعةً، أياً كان مُنَفِّذها، لأنها قتلت أبرياء وأفلتت الوحش على الجميع.

ما حدث كان له تأثيره على إيزابيل الليندي، مما جعلها تفكر بالعالم الذي تعيش فيه، وبوطنها. تُراهُ كاليفورنيا التي تحب لأنها أصبحت بلدها الواقعي، أم تشيلي «وطنها الأم» التي خرجت منه تحت ضغط الديكتاتوريةِ العسكرية المريعةِ؟ لذا فهي تقول:

«بمصادفةٍ يقشعرّ لها البدن - كارما تاريخية - اصطدمت الطائرتان المخطوفتان بهدفيهما يوم الاثنين الحادي عشر من أيلول، تماماً في الأسبوع ذاته والشهر ذاته - وساعة الصباح ذاتها تقريباً- التي حدث فيها انقلاب تشيلي العسكري عام 1973. كان ذاك الانقلاب عملاً إرهابياً دبّرته المخابرات المركزية الأمريكية ضدّ الديمقراطية. صورة الأبنية وهي تشتعل، الدخان، اللهب والذعر متشابهة في كِلا المشهدين. في ذلك الثلاثاء البعيد من العام 1973 انفطرت حياتي، ما من شيء عاد ليكون ما كان من قبل، فأنا خسرتُ بلداً. الثلاثاء المشؤوم من العام 2001 كان أيضاً لحظة حاسمة، ما من شيء سيعود ليكون كما كان، وربحت بلداً».

بعد سقوط الديكتاتورية العسكرية صار بإمكانها أن تعود إلى وطنها الأم، لكنها لا تفعل. تعود في زياراتٍ قصيرةٍ فقط، زيارات إلى بلدٍ مُخترعٍ نراه على امتداد صفحات هذا الكتاب الذي يتجاوز كونه مذكراتٍ ليصبح نوعاً من التأمُّل في الجغرافيا والناس، في سلوك الإنسان، وليصبح رحلةً عبر الذاكرة وتاريخ الأسرة يقودها الحنين.

الناشر